

مراجعات في علوم اللغة والأدب

التراثية والوافدة

المصطلح

- 1 -



تحرير

د. خالد حسن العذواني

بحوث علمية محكمة من تأليف

د. إسلام جالكبير د. خالد العذواني د. عامر الجراح

د. محمد خالد الرهاوي د. مهنا بلال الرشيد

د. سامر عبد الصمد الكاطع د. حكمة شافي الأسعد

سلسلة مركز الفكر الجديد للبحوث والدراسات - العدد الأول

مراجعات في علوم اللغة والأدب

التراثية والوافدة

المصطلح

- 1 -

Dilbilim ve Edebiyata Dair
Kültürel Miras Üzerine Değerlendirmeler
TERİM - 1

تحرير

د. خالد حسن العَدواني

بحوث علمية محكمة من تأليف

د. إسلام جانكير د. خالد العَدواني د. عامر الجراح
د. محمد خالد الرهاوي د. مهنا بلال الرشيد
د. سامر عبد الصمد الكاطع د. حكمة شافي الأسعد



- Kitabın Adı** : Dilbilim ve Edebiyata Dair Kültürel Miras Üzerine Değerlendirmeler Terim - 1
- Editör** : Dr. Öğr. Üy. Khaled Hasan ALADWANI
- Yazarlar** : Dr. Öğr. Üyesi Aslam JANKIR
Dr. Öğr. Üyesi Khaled Hasan ALADWANI
Dr. Öğr. Üyesi Amer ALJARAHA
Dr. Öğr. Üyesi Mohammad Khaled ALRHAWI
Dr. Öğr. Üyesi Mhanna Belal ALRASHID
Dr. Öğr. Üyesi Samer KATEA
Dr. Öğr. Üyesi Hekmah Shafı ALASA'AD
- Kapak** : Ceyda ŞEREFLİOĞLU
- 1. Baskı** : Mayıs 2020 ANKARA
- ISBN** : 978 - 625 - 7918 - 42 - 8
- Yayın No** : 761

© Dr. Öğr. Üy. Khaled Hasan ALADWANI

Tüm hakları yazarına aittir. Yazarın izni alınmadan kitabın tümünün veya bir kısmının elektronik, mekanik ya da fotokopi yoluyla basımı, çoğaltılması yapılamaz. Yalnızca kaynak gösterilerek kullanılabilir.

SONÇAĞ AKADEMİ

İstanbul Cad. İstanbul Çarşısı No.: 48/49 İskitler 06070 ANKARA

T / (312) 341 36 67 - GSM / (533) 093 78 64

www.soncagyayincilik.com.tr - soncagyayincilik@gmail.com

Yayıncı Sertifika Numarası: 25931

BASKI MERKEZİ



UZUN DİJİTAL MATBAA, SONÇAĞ YAYINCILIK MATBAACILIK TESCİLLİ MARKASIDIR.

İstanbul Cad. İstanbul Çarşısı No.: 48/48 İskitler 06070 ANKARA

T / (312) 341 36 67

www.uzundijital.com - uzun@uzundijital.com

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

المحتويات

الصفحة	العنوان
1	فاتحة الكتاب.....
5	إسلام رشيد جانكير..... النحو والصرف والإعراب: دراسة تأصيلية في المصطلح والمفهوم
26	خالد حسن العدواني..... النحو العربي: عرض ونقد وتوجيه
60	خالد حسن العدواني..... تجديد النحو العربي: قراءة في مصطلحي الكلام والجملّة
98	عامر خليل الجراح..... البلاغة العربيّة بين البيان التداولي والبديع الأسلوبي: قراءة وتأصيل
132	محمد خالد الرهاوي..... اللغة واللسان: رأي في بعض إشكالاتهما
150	مهنا بلال الرشيد..... علم الدلالة القديم: مفهومه، نشأته، مصادره، مجالاته وتطبيقاته
187	سامر عبد الصمد الكاطع..... مفهوم شرف المعنى في مدونة النقد العربي القديم
210	حكمة شافي الأسعد..... الأنسنة: محاولة في ضبط المصطلح الأدبي

مراجعات في علوم اللغة والأدب التراثية والوافدة

المصطلح

(1)

فاتحة الكتاب

بعد وصول حملة نابليون إلى مصر عام 1798م بدأت حال جديدة تظهر في أوساط الحياة العربية عامة، ومنها الوسط الثقافي والفكري؛ إذ لم تعد النظرة إلى الموروث القار في هذا الميدان- على ما فيه من غنى وخصب- على ما كانت عليه من حيث الإقرار بكفايته وفاعليته، وبدأت تظهر أصوات تدعو إلى التشكيك في قيمته وإلى ضرورة الانفتاح على الغرب المتقدم علمياً والأخذ عنه وإن كان ذلك قد اتخذ طابعين في ما بعد: الأول راح يرى التقدم مطلقاً في الأخذ عن الغرب والانسلاخ عن ذلك التراث وما فيه، والثاني كان أكثر اعتدالاً وواقعية، فرأى ضرورة الأخذ عن الغرب دون الانسلاخ عن ذلك التراث أو تجاوزه، وذلك من خلال تبني نظرة توفيقية تأخذ من هنا ومن هناك في سبيل بناء مجتمع عربي جديد ومتقدم.

وقد كان من الطبيعي أن تواجه تلك الأصوات بحركة مناهضة من أولئك الذين مازالوا يؤمنون بضرورة الانطلاق من التراث وحده، وأنه السبيل الوحيدة لاستمرارية روح الأمة وهويتها وكيانها، وأنه يكفيننا في البحث العلمي أن نفهم ذلك الموروث ونعي مسائله وقضاياها، وبذلك أصبحنا أمام ثلاثة تيارات متميزة في الوسط الثقافي والفكري العربي، يمكن أن نطلق عليها: تيار التراث، وتيار الحداثة، والتيار التوفيقية.

ومن خلال نظرة سريعة في النتائج التي جنيناها من ذلك الحراك الذي طال أمده وكثرت معاركه واشتدت نجد أن الثمار كانت أقل من المرجو بكثير، فلا العلم تقدم، ولا الأمة نهضت، ولا الشخصية حُفظت، ولعل السرّ في ذلك يعود إلى عدم البناء على أسس دقيقة عند تلك التيارات جميعها؛ إذ انطلق التيار الذي تمسك بالتراث إلى تراثه من منطلق الخضوع المطلق والتسليم باستقامة كل ما فيه دون إتاحة المجال لأدنى نظر في مكوناته، على حين انطلق التيار الذي رفع شعار الأخذ عن الغرب والانسلاخ عن التراث من منطلق تنزيه ذلك الوافد الغربي والرفع من شأنه، ولو كان من النفايات التي ألقع عنها الغرب ذاته بحكم التطور المستمر لأدواته ومعارفه، فكان في ذلك لا يختلف في خضوعه وتقليديته عن أصحاب التيار التراثي وإن كان تأثيره على الأمة أشد خطراً؛ فهو يسهم في ذلك في ضياع هويتها وإذابة

شخصيتها وتشتت أحوالها وتصعد أركانها، فضلاً عن كونه لا يزودها بجديد يمكن أن تنتفع به.

ويأتي الإشكال عند أصحاب التيار الثالث الذي كان من الممكن أن يكون ذا تأثير أكبر في الميدان في أنه لم يهتد تمامًا إلى رسم الصورة الصحيحة لذلك التوفيق، إذ إنه لم يبن ذلك أولاً على دراسات تقتل ذينك المجالين المختلفين (التراث والوافد الغربي) بحثاً واستقصاءً، كلاً على حدة، ومن منطلقات لا تقر بالخضوع والتسليم في هذا أو ذاك، بل تناقش وتنتقد وتوجه حتى تصل إلى كشف المناهج والفلسفات التي قامت عليها تلك المعارف وما لها وما عليها، بل ما نراه هو أن جهوده في هذا المقام بقيت تنطلق من تفوق الوافد الغربي بعُجْرِهِ وُبُجْرِهِ، ونافعه وضارّه، والنظر إلى التراث في ضوئه، كما أنه قد اكتفى بإدارة ذلك على الأفكار غالباً ومن خلال الاعتماد على النظرة الجزئية الضيقة، إذ يقتصر الأمر لديه على النظر إلى فكرة أو أكثر ههنا، ومثل ذلك هناك، وهو ما يجعل الأمر، في رأينا، أقرب إلى التلفيق من التوفيق الذي هو مسعى في غاية الحسن؛ إذ إنه لا يمكن أن يتم إلا إذا كان الباحث فوق الموضوع غير تائه في تفاصيله وجزئياته.

كل ذلك- إضافة إلى تشابه الأحوال بين يومنا وأمس أولئك؛ إذ لم يتغيّر شيء ذو بال في حال الأمة الثقافية والفكرية إلا أنها زادت فرقة وتشرذماً فوق ما كانت عليه- يجعل من إعادة طرح مشكلة سبل نهضة الأمة أمراً مشروعاً، بل ضرورة ملحة؛ إذ ينبغي لزمن الهزيمة أن يرحل لتعود الأمة إلى سابق عهدها من حيث الإبداع والابتكار الأصيل الذي لا يلغي شخصية الأمة وهويتها على نحو ما هو معلوم من حالها في القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى.

وإذا كان الأمر على هذا النحو فلنا في مركز الفكر الجديد أن نخوض غمار هذه المحاولة الشاقة في مجالي اللغة والأدب، متبنين تلك النظرة التي توصلنا إليها من خلال إعادة النظر في ثالث تلك التيارات القديمة، وهو التيار التوفيقي، والتي تنصّ على أن كل مسعى لبيتّ روح النهضة والانطلاق في الأمة من جديد لابد أن ينظر بعينين: الأولى يسلمها على التراث، والثانية يسلمها على ما توصلت إليه الأمم الناهضة، فيقتل هذا وذاك بحثاً وتمحيصاً ونقداً وتوجيهاً باتباع منهج مستقيم لا تعرف العبثية والفوضى إليه سبيلاً، حتى يصل إلى المناهج والفلسفات والأصول التي تحكم كلاً منهما، ثم يقوم بعملية اصطفاء من ذلك كله تكون أساساً لمنهجه الجديد أو مناهجه الجديدة التي يمكن أن ينطلق منها نحو بناء الفكر الأصيل المنتج الفعال.

وحتى نربط التصوّر بالإنجاز، والتنظير بالتطبيق، رأينا أن نشرع بإصدار أول كتبنا التي سنتطلق من هذه الرؤية، وقد ارتأينا أن يكون موضوعه النظر في واحد من أهم أركان الدراسات اللغوية والأدبية في التراث والدرس الغربي الحديث، ألا وهو المصطلح، وذلك لكون المصطلح يمثل الأساس الذي تبنى عليه نظريات العلوم، ولا يمكن فهم النظرية فهمًا عميقًا وتامًا إلا من خلال فهم المصطلحات التي تمسك بمفاصلها.

يتكوّن الكتاب من مجموعة من البحوث المتصلة بما تم عرضه في التقديم السابق على مستويي الرؤية والموضوع، وقد تم ترتيبها وفق رؤية تراعي الانتماء إلى جانبي اللغة والأدب أولًا، ثم الانتماء إلى جانبي التراث والدرس الغربي الحديث بعد ذلك، وأما هذه البحوث فهي:

1- النحو والصرف والإعراب: دراسة تأصيليّة في المصطلح والمفهوم: وهو للدكتور الباحث إسلام رشيد جانكيز، وقد حاول فيه دراسة المصطلحات الثلاثة وما قيل فيها وترجيح ما رآه صوابًا، أو توجيهه، أو وضع رؤية شاملة وموسّعة لمصطلح النحو الذي يحتوي ضمناً على مصطلحي الصرف والإعراب.

2- النحو العربي: عرض ونقد وتوجيه: وهو للدكتور الباحث خالد العدواني، وقد حاول فيه تناول مصطلح النحو العربي وما يتعلق به من قضايا ومسائل مختلفة، من زاوية تتجاوز حدود التوصيف إلى مستويات النقد والتوجيه، ولعل أهم ما استطاع الوصول إليه هو إعادة رسم صورة هذا العلم على نحو يقربه من صورة الأنحاء العصرية دون أن يغير في بنيته الأساسية أو يستبدل بها غيرها.

3- تجديد النحو العربي: قراءة في مصطلحي الكلام والجملة: وهو أيضًا للدكتور الباحث خالد العدواني، وقد حاول فيه تناول مصطلحي الكلام والجملة بوصفهما من المصطلحات الأساسية في علم النحو، ولعل أهم ما توصل إليه في هذا الشأن- بعد أن قام باستعراض تام لصورتهما عند النحاة على مستويات المفهوم والنشأة والتوظيف والأشكال اللغوية- هو تقديم تصوّر جديد لهما يمكن أن يكون أساسًا لإعادة بناء صورة النحو العربي بطريقة عصرية فاعلة.

4- البلاغة العربيّة بين البيان التداوئيّ والبيديع الأسلوبيّ؛ قراءة وتأصيل: وهو للدكتور الباحث عامر خليل الجراح، وقد تحدّث فيه عن مفهوم البلاغة العربية في التراث العربيّ، وأصل لها من خلال الحديث عن تحوّلها التاريخيّ والإبستمولوجي من بلاغة المناسبة التداولية إلى بلاغة المفارقة الأسلوبية، وعرض للكلام على أثر ذلك التحوّل في الثقافة العربية

الإنسانية بعامة؛ إذ انتهى وقوع المتأخرين في شَرَك الهيام بالبديع الأسلوبي من خلال الالتفات إلى الأشكال والتشكيل، انتهى إلى تزييف مضامين اللغة والفكر؛ نظريًا وإجرائيًا.

5- اللغة واللسان: وهو للدكتور الباحث محمد خالد الرهاوي، وقد تناول فيه مصطلح اللغة واستعمالاته المتعددة معرفيًا وتاريخيًا، والفرق بينها وبين اللسان والكلام، مستندًا في التفريق بينها إلى أدلة نقلية وعقلية ونتائج دراسات سابقة، واستعانة بهذا التفريق عالج المشكلة القديمة الجديدة "هل اللغة وقف وإلهام أو تواضع واصطلاح؟".

6- علم الدلالة القديم؛ مفهومه، نشأته، مصادره، مجالاته: وهو للدكتور الباحث مهنا بلال الرشيدي، وقد حاول أن يقدم فيه: تعريفًا موجزًا بمصطلح علم الدلالة ومصادره القديمة؛ كالمرويات الشفوية واللُّقى الأثرية والمدونات الفكرية، ثم ناقش آراء القائلين: بحدائثة علم الدلالة، وأثبت بالأدلة العلمية عراققة هذا العلم وأصالته وإنسانيته وعلمانيته وقدمه قديم الإنسان ذاته؛ إذ استعرض مجموعة كبيرة من المصادر والوثائق الدلالية القديمة للدلالة على صحة مذهبه وطرحه الفكري الجديد.

7- مفهوم شرف المعنى في مدونة النقد العربي القديم: وهو للدكتور الباحث سامر الكاطع، وقد حاول فيه تأصيل مفهوم (شرف المعنى) من خلال استقراء مدونة النقد العربي القديم، وخلص إلى نفي الصلة المتوهمة بين شرف المعنى والجانب الخُلقي، وأن مدار الشرف في ذلك على الصواب والوضوح والابتكار والنمذجة، مع موافقة الحال والمقام.

8- الأنسنة: محاولة في ضبط المصطلح الأدبي: وهو للدكتور الباحث حكمة شافي الأسعد، وقد رأى فيه أن الخيال يمنح المبدع خصوصية وتفردًا لعمله، ويجعل المتلقي أكثر تفاعلاً وانجذاباً. وتتشعب الطرق التي يسلكها الخيال، وتختلف من مبدع إلى آخر؛ ومن الطرق التي سلكها خيال الشعراء طريق خلع الصفات البشرية على الجماد والحيوان؛ وهو ما استخدم له مصطلح "الأنسنة".

وختامًا نسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل الذي لم نرد به إلا وجهه الكريم وأن

ينفع به نفعه بالغيث في سني الخير والوفرة.

المحرّر:

د. خالد حسن العدواني

ماردين 1441هـ - 2020م

البحث الأول

النحو والصرف والإعراب دراسة تأصيلية في المصطلح والمفهوم

Dr. Aslam JANKIR

أستاذ مساعد في جامعة ماردين آرتوقلو، كلية الآداب، قسم اللغة العربية

النحو والصرف والإعراب

دراسة تأصيلية في المصطلح والمفهوم

Aslam JANKIR*

NAHİV SARF VE İRABIN MANA VE İSTILAHINDA KAPSAMLI BİR ARAŞTIRMA

Araştırma; Arap Dili ve kurallarında üç terimi inceledi bunlar; nahiv, sarf, irabtır bunların ıstılah ve dılsen mefhumlarını ele aldı, manaların birbirine sirayet ettikten sonra aralarındaki farkı açıklamayı hedefleyip bu konuda arařtırmacıların ve alimlerin görüřlerini dile getirdi, doęru gördüğünü tercih etti. Sarf ve irab terimini içine alan nahiv terimine kapsamlı bir vizyon koydu.

مقدّمة

حظي النحو العربي باهتمام العلماء والباحثين العرب والمستشرقين، وانصبّت جهودهم فيه حتّى أصبح علمًا مستقلًا تميّزت به اللغة العربيّة؛ فأرست قواعده وأسسها؛ وتنافس العلماء في خدمة هذا العلم وإتقانه والإبداع فيه لما وُصف به هذا العلم بأنّه من أجلّ العلوم التي ينبغي للإنسان أن يتعلّمها حتّى إنّهُ أصبح مروضًا للعقول على التفكير وتهيئتها قبل الولوج في أي علمٍ آخرًا!

توالى جهود العلماء منذ القديم وسلّم السلف راية البحث في العلم والتميّز فيه إلى الأجيال القادمة التي لم تألُ جهدًا في خدمة هذا العلم وإيضاح مستغلقه وتوجيه شارده واستنطاق النصوص به وتأويلها في ضوئه حتّى وصل بالباحثين إلى ضرورة إعادة قراءة التراث وضرورة تجديده.

* Dr. Öğr. Üyesi , Mardin Artuklu üniversitesi , Edebiyat fakültesi , Arap dili ve edebiyatı bölümü , aslamrshid1@gmail.com

د. إسلام جانكير. أستاذ مساعد في جامعة ماردین آرتوقلو، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.

لكنّ مفهوم النحو ومصطلحه - وهذا يشمل الصرف والإعراب أيضًا كما سنرى - لم يكن مستقرًا على معنًى واحدٍ ولم تتضح الصورة الذهنيّة أوّل ما ظهر، بل نما وتطوّر عبر العصور وأخطأنا رؤيةً موحّدة لدى العلماء لهما.

قد تكون هذه الحالة صحّيةً أو غير ذلك ومهما يكن من أمرٍ فإنّ التطوّر يجعل باب البحث مشرّعًا أمام الباحثين للإسهام في وضع لمسات قد تكون تجديديّة أو تُدرج في خانة التجديد كما يحاول هذا البحث.

لا شكّ أنّ تحرير المصطلح وتعريفه وتوضيحه في أيّ علمٍ من العلوم له الأولويّة كي يتمكّن الباحث فيه من زمام ذلك العلم ويحسن السير في وعراته ويتقن قيادة فنونه؛ لذا ارتأينا أنّ البحث في ثالوث النحو (النحو والصرف والإعراب)، وإضفاء ومضيةٍ عليه توضح ملامحه لهما أهمّيّةً لا شكّ عظيمةً.

وقد كُسر على محورين الأوّل: المفهوم والمصطلح منذ القديم إلى الحاضر، والثاني: قراءة المفهوم والمصطلح ونظرة متسعة إليه، إضافةً إلى ما يقتضيه البحث العلمي من مقدمة تبيينيّة وخاتمة تشتمل على أهمّ النتائج المتمخّضة عنه، ولا نغفل العرض والتحليل ومناقشة كلّ مفهوم أو مصطلحٍ على حدةٍ.

- النحو والصرف (التصريف) والإعراب في كتب النحو

زخرت كتب النحو والتفسير واللغة بهذه المصطلحات الثلاث واختلفت تصوّرات المؤلفين لها حتّى إنّنا لا نكاد نقع على كتاب في العربيّة أو غيرها من العلوم الشرعيّة إلّا وردت في طياتها هذه المصطلحات الثلاثة، وكثرت الأقوال في مفوماتها ومصطلحاتها، حتّى إنّ الباحث وطالب العلم لتتنازعه هذه الأقوال وتتناهبه فلا يدري إلى أيّها يميل، ثمّ إنّّه يقف أمام هذه المصطلحات وقفة العاجز عن التمييز التامّ والحقيقيّ بينها، لذا سنقدّم طرحًا نراه يلمّ بكلّ ما يتّصلُ بها، وسنورد كلّ مصطلحٍ على حدةٍ، ونستعرض مفوماتها واضطراب المصطلحات حتّى استقرّت كعلمٍ وبناء، ونميّز بينها بترجيح بعض ما نراه أقرب إلى الصواب وأشمل لميادنها.

1- النحو:

علم النحو من العلوم الجلييلة التي نالت اهتمام المسلمين منذ ظهور الإسلام إلّا أنّ مفهومه ومصطلحه ظلّا مضطربين لم يستقرّا على شيءٍ واحدٍ موحّدٍ بين العلماء،

وسنرصد هذا الاضطراب عند العلماء قديمهم ومتأخريهم عسى أن يستقرّ بهما بحثنا أو يسهم في استقرارهما، ويضفي شيئاً جديداً إلى هذا العلم.

أ.1- المفهوم

لم يكن مفهوم النحو واحداً منذ نشأته إلى يومنا هذا وإن كانت المفهومات كلّها مرتبطة بمقصد هذا العلم وأحد أهدافه، فقديمًا فُهِمَ النحو على أنه علم يدرسُ أواخر الكلمات ويضبطها، ويكون هو والإعراب متماهين هنا كما سيأتي لاحقًا، ثمّ هو يبحث في بنية الكلمة وتغييراتها وهذا هو الصرف الذي كان جزءاً منه، ثمّ انفصل حتى استقلّ في مؤلّفاتٍ بعد حينٍ، ويكاد يقتصر مفهوم النحو على هاتين العمليتين ليشمل كلّ ما يتعلّق بهما في ما يخصّ البنية والمعنى، وإذا ما استعرضنا جملة تعريفاتٍ للنحو يمكننا استيعاب مفهومه - عند العلماء والباحثين - ودلالاته:

- ابن جني: يعرّف النحو بأنّه "انتحاء سمت كلام العرب في تصرّفه من إعراب وغيره كالثنئية والجمع والتحقيير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك"¹.

- ابن خلدون: عرّف النحو بقوله: إن العرب "استنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه منها بالأشباه"².

- السكاكي: "واعلم أن علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها، ليحترز بها عن الخطأ في التركيب"³.

- ناظر الجيش: عرّفه بقوله: "هو علم بأصول يتعرف منها أحوال الكلمة العربية، التي بها يعرف أحكام التكلم أفراداً وتركيباً، وإنما قيل: علم بأصول يتعرف منها، ولم يقل: علم أحوال الكلم؛ ليدخل فيه العلم بما هو، كالمقدمات، كالكلمة والكلم والكلام والإعراب والبناء وأنواعهما وأقسام المعارف والنكرات، ونحو ذلك؛ فإن هذه الأمور أصول

¹ ابن جني، أبو الفتح، عثمان، الخصائص، عالم الكتب، بيروت، تح: محمد علي النجار، 34/1.

² ابن خلدون، المقدمة، مكتبة ودار المدينة المنورة للنشر- الدار التونسية للنشر، 1984، ص712.

³ السكاكي، يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، مفتاح العلوم، ضبطه وعلّق عليه، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ط2، 1987، ص75.

يتعرف منها الأحوال، وليست علما بالأحوال أنفسها. وإنما قيل: التي يعرف بها أحكام التكلم؛ ليخرج علم المعاني وعلم العروض مثلا؛ فإن الأول: يتعرف منه أحوال الكلم بالنسبة إلى المطابقة لمقتضى الحال وعدم المطابقة، والثاني: يتعرف منه أحوال الكلم بالنسبة إلى كونها موزونة بأوزان خاصة.

وإنما قيل: إفرادا وتركيبا؛ ليشمل علمي الإعراب والتصريف⁴.

- أبو حيان: عرّفه بقوله: "النحو هو علم بالتغييرات اللاحقة للكلم ومدلولاتها"⁵.

- الشريف الجرجاني: عرّفه بقوله: "النحو هو علم بقوانين يعرف بها أحوال التركيب العربية من الإعراب والبناء، وغيرها، وقيل النحو علم يعرف به أحوال الكلم من حيث الإعلال، وقيل علم بأصول يعرف بها صحيح الكلام وفساده"⁶.

- مصطفى الغلاييني: عرّف النحو من خلال حديثه عن الإعراب بقوله: "علمٌ بأصولٍ يعرف بها أحوال الكلمات العربية من حيث الإعراب والبناء، أي من حيث ما يُعرض لها في حال تركيبها؛ فبه نعرف ما يجب عليه أن يكون آخرُ الكلمة من رفع أو نصبٍ أو جرٍّ أو جزمٍ أو لزوم حالةٍ واحدةٍ بعد انتظامها في الجملة"⁷.

من جملة التعريفات السابقة يظهر لنا مفهوم النحو عند العلماء ويمكن إدراجه وفق التصنيف الآتي:

- قصد كلام العرب والسير على آثارهم اللفظية والتركيبية كي يتعلّم العربيّ وغير العربيّ فصيح الكلام ولا يعيد عنه.

- ضبط الملكة اللسانية ومعرفة التركيب بقوانين مستقراة من كلام العرب.

- علم بأصول الكلمات والتركيب وأحوال الكلمات من إعراب وبناء.

⁴ ناظر الجيش، محمد بن أحمد يوسف، شرح التسهيل المسمى تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، تج: علي محمد فاخر وآخرون، دارالسلام للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1428هـ، 114/1.

⁵ أبو حيان الأندلسي، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تج: حسن هنداي، دارالقلم، دمشق، سوريا، ط1، 14/1.

⁶ التعريفات 260.259

⁷ الغلاييني، مصطفى، جامع الدروس العربية، دارالحديث، القاهرة، مصر، ط2005، ص8.

ونخلص من هذا أنّ مفهوم النحو دار حول مدارين لا ثالث لهما وهما الإفراد والتركيب، بل شمل كليهما في بعض التركيبات وهذا ما نريد توضيحه هنا في النظرة الموسّعة لمفهوم النحو.

ب-1- نظرة شاملة مفهوم النحو: يمكننا أن نوسّع دائرة نظرنا إلى مفهوم النحو استنادًا إلى المفهومات السابقة ونرى أنّ النّحو هو تلك القواعد التي تضبط الكلام العربي مفردًا كان أم تركيبًا لتضبط الأوّل – المفرد – في مجال الاستعمال والثاني – التركيب – في مجال الفصاحة، ثمّ هو يدرس النظام العام للتركيب من حيث علاقة أجزائه ببعضها لتأدية المعنى المراد منها، ويمكن توضيح المفهوم وفق الخطاطة الآتية:

مفهوم النحو

المفردة أي الكلمة (وكلّ ما يتعلّق بها)

التركيب أو الجملة

أحوال الكلمة الإعرابية في الجملة

روابط الجملة

العلاقة بين أجزاء الجملة

المعنى

ونرى أنّ هذا المفهوم هو المفهوم الشامل والمنطقيّ للنحو؛ لأنّ أغراض النحو ووظائفه كثيرةٌ ولا تقتصر على تغيير أو آخر الكلمة في الجملة كما رُوّج له عند بعضٍ، فهو يدرس اللغة، واللغة واسعةٌ ولا يحيط بها إلّا نبيّ فكيف لقواعدها (النحو) أن تختزلَ بالإعراب ومن ثمّ اختزالِ الإعراب بتغيير الحركات بحسب العوامل الداخلة على الكلمة!. وإذا ما أنعمنا النظر في تعريف ابن جنيّ فحسب، لرأينا أنّ مفهوم النحو له هذا الشمول وهذه السّعة.

ج-1- اضطراب المصطلح

لم يظهر مصطلح النحو بهذا الاسم أوّل ما ظهر وإنّ كانت بدايات النشأة غامضة؛ إذا ما علمنا أنّ النحو قد وصلنا ناضجًا متمثّلًا بكتاب سيبويه، ولم يصلنا من النحويين الأوائل شيوخ سيبويه شيء سوى ما أخبرنا به كتاب سيبويه!. وباستعراض تاريخيّ نقع على مصطلحات عدّة، وليس على مصطلح واحدٍ إلّا بعد حين!.

فمن المصطلحات التي استعملت بمعنى النحو مصطلح الإعراب، قال مالك بن أنس رضي الله عنه: "الإعراب حلي اللسان فلا تمنعوا ألسنتكم حليها"⁸، ومن المصطلحات التي استعملت بمعنى النحو مصطلح العربية، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: "تعلّموا العربيّة؛ فإنّها تشبّب العقل وتزيد في المروءة"⁹.

ومن المصطلحات التي جاءت بمعنى النحو مصطلح المجاز، بمعنى جزت في المكان أي سرت فيه، ولا شك أنّ هذا المعنى يوافق معنى النحو وهو السير على خطا العرب.

ومنها اللحن وهو بمعنى النحو إذ قال عمر بن الخطاب: "تعلّموا الفرائض والسنة واللحن كما تتعلّمون القرآن"¹⁰.

ومنها الكلام، وكلّها مصطلحات جاءت بمعنى هذا العلم، فقد ذكر الزبيدي في حديثه عن أبي الأسود الدؤلي: "هو أول من أسّس للعربيّة ونهج سبلها ووضع قياسها"¹¹، وروى القالي ثم البغدادي عن الرّجاج: "أول من وضع العربيّة ونقّط المصحف أبو الأسود"¹².

ومثل هذه الاصطلاحات هي التي كانت سائرة في القرن الأوّل الهجري في عهد الرعيل الأوّل عهد أبي الأسود الدؤلي ويحيى بن يعمر العدواني وعنبسة الفيل ونصر بن عاصم وميمون الأقرن وعبد الرحمن بن هرمز¹³.

ويرى الباحثون أنّ أول ظهور لمصطلح النحو كان عند عبد الله بن أبي إسحق (ت 117هـ)، من ذلك ما قيل في حقه إنّه: "أول من بعج النحو ومدّ القياس"¹⁴، وما نقله ابن سلام عن أبيه قائلاً: "سمعت أبي يسأل يونس بن حبيب عن أبي إسحق وعلمه، قال: هو والنحو سواء"¹⁵. ووصفه أبو الطيب بأنّه فرّع النحو وقاسه¹⁶.

⁸ الزبيدي، طبقات النحويين، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، بيروت، لبنان، 1984، ص 23.

⁹ الزبيدي، نفسه، ص 13.

¹⁰ الزبيدي، نفسه، ص 13.

¹¹ الزبيدي، نفسه، ص 13.

¹² الزبيدي، نفسه، ص 7.

¹³ القوزي، عوض حمد، المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، عمادة شؤون المكتبات، الرياض، السعودية، ص 7-22.

¹⁴ الزبيدي، طبقات النحويين، ص 31.

¹⁵ الجمعي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تمهيد جوزيف هل، ودراسة طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001، ص 30.

ثمّ ظهر مصطلح النحو بمعناه الاصطلاحي عند الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله عندما رثى عيسى بن عمر بقوله:

بطلّ النحو الذي جمّعتمْ غيرَ ما ألفَ عيسى بنُ عمَر
ذاك إكْمالٌ وهذا جَامِعٌ وهما للناسِ شمسٌ وقَمَرٌ¹⁷

ومعنى النحو هنا كان شاملاً للعربيّة مفرداتٍ وجُمَلٍ وعلاقاتٍ ومعنى - كما سيأتي - قبل أن يختزل في المعنى الاصطلاحي المعروف والشهير في هذه القضية.

انتشر مصطلح النحو في القرن الثاني للهجرة، ولكن من المعلوم أنّ هذا المصطلح لم يكن بمعنى علم النحو المعروف، بل أخذ يتبلور شيئاً فشيئاً حتى أصبح بمعناه العلميّ الذي نعرفه اليوم.

د- 1- تعريف شامل لمصطلح النحو: ونستطيع أن نعرّف مصطلح النحو ونتوسّع في تعريفه من خلال جملة التعريفات القديمة والمعاصرة بقولنا: "هو العلم بالقواعد المستنبطة من الكلام العربي وأصوله لمعرفة بنية الكلمة الداخلية وأحوالها الخارجية وربط أجزاء الكلام ببعضه من أجل تأدية المعنى المراد على طريقة العرب الفصحاء".
وهذا التعريف نكون قد وضعنا تعريفاً شاملاً للنحو يتوافق مع ما يقوم به هذا العلم ولا يقتصر على جانب دون آخر؛ إذ ليس من طبيعة علم النحو أن يختزل - وله هذا الميدان المتרחب - في دراسة أحوال الكلمة العليّة من رفع ونصب وجرّ وجزم!

ذ- 1- النشأة

بقيت اللغة العربية حبيسة الجزيرة العربيّة ردحاً من الزمن لأنّ قومها لم يكن لهم شأن ذو بالٍ عند الأمم الأخرى وما أنّ جاء الإسلام وعلا شأنُ العرب به لقيت العربيّة اهتماماً من غير العرب ولا سيّما الذين دخلوا الإسلام.

دخل الناس دين الله أفواجا، وساوى الدين الجديد بين الناس على مبدأ "إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم"، وتوجّه المسلمون من غير العرب إلى العربيّة يتعلّمونها؛ لأنّها لغة القرآن

¹⁶ أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي، مراتب النحويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 2009، ص 25.

¹⁷ أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص 37.

الكريم وتحوّلت إلى لغة العلم فيما بعد، فكان تعلّمها واجبًا على كلّ طالب علم مهما كان عرقه أو لونه أو لسانه!.

وكان لا بدّ - والحال هذه - من تسرّب اللحن إلى اللغة العربيّة، فتنبّه العربيّ لذلك وتصدّى لهذا اللحن بضرورة تقعيد اللغة العربيّة وفق أصول مستنبطة منها يسير عليها الكلام حمايةً له من اللحن والخطأ.

قد لا يكون اللحنُ هو السبب الوحيد في تقعيد اللغة العربيّة، فقد تكون هناك أسباب أخرى، منها: رغبتهم في تعليم غير العرب اللغة العربيّة بهذه القواعد - وإن لم أقع على نصّ قديمٍ صريحٍ في هذا - إلا أنّني وقعت على ما يدعم كلامنا ذا من مؤلّفات المتأخّرين¹⁸ ألفّت لتعليم غير العرب في الدولة العثمانية المتمثّلة بالمدارس الدينيّة فيها، وما يقوم عليها - أي القواعد - من فهم القرآن والحديث.

هناك روايات متضاربة حول بدايات نشأة النحو تميل أكثرها إلى أنّ الإمام علي رضي الله عنه أمر أبا الأسود الدؤليّ برفع الفاعل ونصب المفعول، وقال له: انح هذا النحو!، وهناك إشارات إلى أنّ البداية كانت قبل ذلك.

ومهما يكن من أمرٍ فإنّ النشأة الأولى للنحو يكتنفها الغموض مثل نشأة أي علمٍ آخر ولا يمكن أن ندعي كنهه لأنّ ما وصلنا مكتوبًا وصل ناضجًا مكتملًا، أمّا قبله فلا نعرف عنه سوى بعض الأخبار التي وصلتنا عن مؤلّفات نحويّة تناهبتها يد الضياع، وخير شاهدٍ على ما نقول هو كتاب سيبويه نفسه الذي يخبرنا عن شيوخ سيبويه والعلماء الذين تتلمذ عليهم ولا سيّما الخليل بن أحمد رحمه الله، فالناظر في الكتاب يمكنه - ويحق له ذلك - أن يتصوّر مدى النضج النحوي عند هؤلاء الأعلام أمثال عيسى ابن عمر ويونس بن حبيب والخليل بن أحمد الفراهيدي، ويمكنه أن يتخيّل أنّ قوانين اللغة وقواعدها عند هؤلاء كانت ناضجة وواضحة وضوح الشمس. وإنّما قلنا اللغة ثمّ قلنا قواعدها لأنّ اللغة أسبق من القواعد وهذه الأخيرة بنيت على الأولى احتجاجًا بأيّ الذكر الحكيم أوّلًا، ثمّ الشعر العربيّ وفق ضوابط نستأنس بذكرها هنا لأنّها مرتبطة بمرحلة التأسيس والنشأة.

ضوابط الاحتجاج بالشعر

¹⁸ مثل الملائكة الإسردي المتوفّي (ت1259هـ) صاحب كتاب الكافية الكبرى في النحو؛ الذي قمت بتحقيقه.

وضع علماء العربية إطاراً زمنياً ومكانياً للكلام العربي لضمان سلامة اللغة من اللحن،¹⁹ لتنتيّن مدى جِزْص علمائنا على الحفاظ على هذه اللغة ووضع القواعد المناسبة للظواهر اللغويّة التي رأوها في فصيح الشعر العربيّ وما اطمأنّ به قلوبهم منه.

زمانُ الشاهدِ الشعريّ

بَدَلْ عُلْمَاؤُنَا الْأَوَائِلُ جُهُوداً عَظِيمَةً فِي الْحِفَاظِ عَلَى الثَّرَاثِ اللَّغَوِيِّ مِنَ اللَّحْنِ وَتَسْرُبِ الدَّخِيلِ إِلَيْهِ، فَوَضَعُوا حَدّاً زَمَانِيّاً لِلْاِسْتِشْهَادِ بِالشَّعْرِ يَمْتَدُّ مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْقَرْنِ الرَّابِعِ بَعْدَهَا، فَقَدْ اسْتَشْهَدُوا بِشَعْرِ الرَّبَاءِ (ت358ق.هـ) وَجَذِيمَةَ الْأَبْرَشِ (ت366ق.هـ) وَأَعْصَرَ بْنَ سَعْدٍ (ت239ق.هـ)²⁰ - وَيَحْتَجُّونَ بِكَلَامِ عُمَارَةَ بْنِ عَقِيلٍ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّجْرِيِّ وَمَنْ عَاصِرَهُمَا مِنْ أَعْرَابِ الْقَرْنَيْنِ الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ الْهِجْرِيَّيْنِ.²¹ فَفَسَّمُوا الشُّعْرَاءَ إِلَى طَبَقَاتٍ أَرْبَعٍ:

الطبقة الأولى: طبقة شعراء الجاهلية.

الطبقة الثانية: طبقة الشعراء المخضرمين.

الطبقة الثالثة: طبقة الشعراء الإسلاميين، ومنهم جرير والفرزدق حتّى عصر إبراهيم بن هرّمة الذي يرى مُعْظَمُ اللُّغَوِيِّينَ أَنَّهُ آخِرُ شَاعِرٍ حَضَرِيٍّ يُحْتَجُّ بِشَعْرِهِ.²²

الطبقة الرابعة: طبقة الشعراء المولّدين.

ولا شكّ أنّ الاختلاف بين النحاة قد ظهر في الاستشهاد بشعر هذه الطبقات، فبينما نجدُ إجماعاً منهم على جَوَازِ الْاِسْتِشْهَادِ بِشَعْرِ الطَّبَقَتَيْنِ الْأَوَّلِيَّيْنِ، نرى تَبَايُنًا فِي هَذَا الْجَوَازِ فِي الطَّبَقَتَيْنِ الْأُخْرَيَّيْنِ، فَالطَّبَقَةُ الثَّلَاثَةُ رُجِّحَ جَوَازُ الْاِسْتِشْهَادِ بِشَعْرِهَا، إِلَّا أَنَّهُ رُجِّحَ عَدْمُ جَوَازِ الْاِسْتِشْهَادِ بِشَعْرِ الطَّبَقَةِ الرَّابِعَةِ "وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَا يُحْتَجُّ بِكَلَامِ الْمُؤَلِّدِينَ

¹⁹ تناولتها في رسالتي الدكتوراه تحت عنوان ضوابط الاحتجاج بالشاهد الشعريّ.

²⁰ - انظر ابن جني، أبو الفتح عثمان، المحتسب في تبين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها، تح: علي

النجدي ناصف، وعبد الحلیم النجار، وعبد الفتاح شلبي، القاهرة 1994، 200/1، 288.

²¹ - انظر حلواني، محمد خير، أصول النحو، الناشر الأطلسي ص 60.

²² - انظر جمعة، خالد عبد الكريم، شواهد الشعر في كتاب سيوبه، دار الشرقية، مصر الجديدة، ط2،

والمُحَدَّثِينَ²³؛ خوفاً من تسرُّب الفسادِ واللَّحِنِ إلى السنة شعرائها. فلم يكن أبو عمرو بن العلاء يَحْتَجُّ ببيتِ إسلاميٍّ على ما روى عنه الأصمعيُّ قائلاً: "جلستُ إليه - أبي عمرو - عشرَ حَجَجٍ فما سمعته يَحْتَجُّ ببيتِ إسلاميٍّ"²⁴.
والأصمعيُّ نفسه لا يَحْتَجُّ بشعرِ الكُمَيْتِ، ويقول: "الكميتُ جُزْمُقَانِيٌّ من أهلِ الموصل، ليس بحجَّة"²⁵.

وبتأملِ تحديديِّ مرحلةِ الاستشهادِ الزَّمَنِيَّةِ هذه نجدُ اضطراباً واضحاً في ذلك، ولا نكاد نرى ميزاناً دقيقاً لتحديدِ مرحلةِ الحداثة التي تبدأ ببشَّار بن بُرْد، فمن النحويين واللُّغويين من لم يستشهد ببيتِ إسلاميٍّ ومن ثمَّ نرى بعضهم يُعجَبُ بشعرِ الإسلاميين، ثمَّ يعدُّه مولِّداً؛ إذ يقول أبو عمرو بن العلاء مؤكِّداً ذلك: "لقد أحسن هذا المولِّدُ حتَّى لقد هَمَمْتُ أَنْ أُمَرَ صِبيَانَنَا بروايةِ شِعْرِهِ" يعني الفرزدق وجريروا شباههُما، فَجَعَلَهُ مُولِّداً وكانَ لا يُعَدُّ الشِّعْرَ إلَّا ما كانَ للمتقدِّمين.²⁶

ويبدو من هذا القول أيضاً حرُّصُ أبي عمروٍ وتخوُّفُهُ من شعرِ المولِّدين فقد همَّ أن يأمرَ صبيانَهُ بروايته! ويبدو الاضطراب في الموقِّفين، فهو من جهةٍ لا يعترفُ بشعرٍ إلَّا ما كان منه قديماً ومن جهةٍ أخرى يستحسنُ شعرَ المولِّدين حتَّى همَّ بروايته. ومن حقنا أن نسأل: لِمَ لم يأخذ بشعرِ هؤلاء على استحسانه إِيَّاه؟ وَمَنْ هُوَ المولِّدُ الذي لا يُحْتَجُّ بشعره؟. وأستطيع أن أدعي هنا أن المولِّد يعني الصغير في السنِّ أي الولد الصغير. ألم يكن كلُّ قديمٍ مولِّداً في زمانه بحسبِ مَنْ كان قبْلَهُ؟²⁷

²³ - انظر السيوطي جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، تح: عبد الحكيم عطية، وعلاء الدين عطية، دار البيروني، ط2، 2006، ص31.

²⁴ - انظر الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل 1/321.

²⁵ - انظر جمعة، شواهد الشعر، ص271.

²⁶ - انظر البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزنة الأدب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

ط4، 1997، 6/1، والجاحظ، البيان والتبيين، 1/321، والأسد، ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط7، 1988، ص155.

²⁷ - انظر البغدادي، خزنة الأدب، 6/1

أما سيبويه فقد احتجّ بشعرِ ابن ميادة (ت 147هـ) وبشعر ابن هرمة (ت 176هـ) الذي به انتهى الاحتجاج، ولم يتعدّ هذه المرحلة فقد تُوفّي سيبويه (180هـ)، فهل كان سيحتجّ بشعر المولّدين لو عمّر؟.

وقد سنّ الزمخشريّ في المتأخّرين كابن هشام سنة الاحتجاج بشعر المولّدين، فاحتجّ بشعر أبي تمام معلّلاً فعله هذا بقوله: "وهو وإن كان محدثاً لا يُستشهدُ بشعره في اللّغة، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه"²⁸.

هذا يعني أنّ رواية المولّد لشاعرٍ مقبولةٌ أمّا أن يُحتجّ بشعره فغيرُ مقبولٍ؟! ولا يخفى فصاحةُ الراوي الثّقة وملكتُه اللّغويّة، فمادامتِ الروايةُ منه مقبولةً فمن الأولى الاحتجاجُ بشعره أيضاً.

ومنّ هذا القول نرى أنّ الاحتجاجَ شَمَلَ المولّدين أيضاً وهو جليٌّ في تراث المتأخّرين.

مكانُ الشاهدِ الشعريّ

ذكر السيوطيّ التقسيم المكانيّ نقلاً عن الفارابي حدّد فيه القبائل التي أخذَ عنها والقبائل التي لم يؤخّدَ عنها وسبب الأخذِ وعدمه، فقال: "كانت قريشُ أجودَ العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النُطقِ وأبينها عمّا في النّفس، والذين عنهم نُقلتِ اللّغة العربيّةُ وبهم أفتديّ عنهم أخذ اللّسانُ العربيّ من بين قبائل العرب هم قيسٌ وتميمٌ وأسدٌ فإنّ هؤلاء هم الذين عنهم أكثرُ ما أُخذَ ومعظمه وعليهم أُنكَل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثمّ هذيل وبعضُ كنانةٍ وبعضُ الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم وبالجملة فإنّه لم يؤخذ عن حضريّ قطّ، ولا عن سُكّان البراري ممّن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاورُ سائر الأمم الذين حولهم فإنّه لم يؤخذ لا من لخم ولا من غسان ولا من إباد، فإنّهم كانوا مجاورين لأهل الشّام وأكثرهم نصارى يقرؤون في صلاتهم بغير العربيّة، ولا من تغلب ولا النمر فإنّهم كانوا بالجزيرة اليونانيّة، ولا من بكر لأنّهم كانوا مجاورين للتبّط والفرس، ولا من عبد القيس؛ لأنّهم كانوا من سكان البحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أزدِ عمانٍ لمخالطتهم للهند والفرس، ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم، ولا من بني حنيفة وسكّان اليمامة ولا من ثقيف وسكّان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم ولا من حاضرة

²⁸ - انظر حلواني، أصول النحو، ص 62.

الحجاز لأنّ الذين نقلوا اللُّغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم"²⁹.

إذا لم يكن هذا المنهج للتحديد المكانيّ اعتباراً، بل ناتجاً عن دقّة ملاحظةٍ وُبُعدٍ نظريّ، فلم يكن المعيارُ الذي وضعوه هو السكنُ في البادية أو في الحاضرةِ وإنّما المعيارُ هو سلامةُ لسان العربيّ من اللّحنِ والاختلال، و"همّه أن يَضَعَ لِسَانَهُ فِي مَفْصِلِ الْحِجَّةِ، ثُمَّ يُرْسِلَهَا غَيْرَ مُلْجَلِجَةٍ"³⁰.

ولهذا لم يسلم الأعرابيّ نفسه من هذا المعيار فقد وقع في الفحص والاختبار من النحاة خيفةً فقدّه فصاحته، "فينبغي أن يُستوحشَن من الأخذِ عن كلِّ أحدٍ إلا أن تقوى لغتُه وتشيع فصاحته"³¹.

فأبو عمرو بن العلاء شكّ في فصاحة أعرابيّ، فأسمعه بيتاً تعمّد فيه الخطأ وهو:

كم رأينا من مُسْحَبٍ مُسْلِحِبٍ صار لحَمّ النسر والعقبان

ففكّر الأعرابيّ وقدّر فقال: أعد عليّ ذكْرَ المُسْحُوبِ، فعَلِمَ أبو عمرو أنّ فصاحته باقيةٌ، وسأل أبا خيرة فلم يجبه، فقال له: "هيمات يا أبا خيرة لأنّ جِلْدَكَ"³².

مما سبق نجد تداخلاً بين مكان الشاهد وزمانه يوشك المكان أن يطغى على الزمان ويرتفع فيه. ومهما يكن من أمرٍ فإنّ اللُّغويين العربَ أخضعوا شواهد الشّعْرِ لمقاييسٍ فرضتها طبيعةُ عصرهم، و"كان كلُّ عربيّ على مقدار وعيه وحفظه كتاباً، أو جزءاً من كتاب، وكانت كلُّ قبيلةٍ بذلك كأنّها سجلٌّ زمنيٌّ في إحصاء الأخبار والآثار"³³.

2- الإعراب:

شغل الإعراب الباحثين والعلماء منذ زمن بعيدٍ وما زال يشغلهم إلى يوم كتابة بحثنا هذا، فأردنا أن نكون امتداداً في إسهامنا بهذا البحث في هذا الميدان، والذي ندعي أنّه سيبيحُ بعضَ ما استغلّق من معاني هذا المصطلح.

²⁹ - السيوطي، الاقتراح، ص22، 23، وجمعة، شواهد الشّعْرِ، ص271، 272.

³⁰ - الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب للرافعي، تح: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، مصر، ط، 1940، 213/1.

³¹ - ابن جني، الخصائص، 9/2.

³² - الرافعي، آداب العرب، 1/254، وابن جني، الخصائص، 3/304.

³³ - انظر الرافعي، آداب العرب، 1/213.

أ-2- الإعراب لغةً: هو الإبانة وهو مصدر أعرب عن حاجته أي أبان، وعربتُ عن القوم إذا تكلمت عنهم واحتججتَ لهم، ومنه الثَّيبُ تُعربُ عن نفسها أي تفصح، وقال الأزهري: الإعراب والتعريب معناهما واحد وهو الإبانة³⁴.

ب-2- المفهوم:

دار مفهوم النحاة للإعراب حول تغيّر نهايات الكلمة بحسب موقعها من الجملة أو بحسب العوامل الداخلة عليها وسنعرض جملة من التعريفات التي تبين هذا.

ابن جني: قال: "هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ ألا ترى أنك إذا سمعت أكرم سعيد أباه وشكر سعيدا أبوه علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ولو كان الكلام سِرْجاً واحداً لأستهم أحدهما من صاحبه"³⁵.

ابن الحاجب: قال: "الإعراب هو الشيء الذي يختلف آخر المعرب"³⁶.

أبو عليّ الفارسي: قال: "الإعراب هو نهاية الكلم المعربة سواء كان ذلك زائداً أم أصلياً بعد أن يكون الحرف بحذفها لا يدل على ما يدل عليه بإثباته فيها"³⁷.

ابن أجروم: قال: "الإعراب هو تغيير أو آخر الكلم، لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظاً أو تقديراً"³⁸.

أبو حيّان الأندلسي: قال: "الإعراب هو تغيير آخر الكلمة لأجل العامل الداخل عليها في الكلام الذي هي فيه"³⁹.

أبو سعيد السيرافي: قال: "الإعراب هو اعتقاب الحركات أو: حركات وسكون على أواخر الكلام، وما لزم طريقة واحدة فليس بمعرب"⁴⁰.

³⁴ ابن منظور، لسان العرب، دارصادر، (عرب).

³⁵ ابن جني، الخصائص، 35/1.

³⁶ ابن الحاجب، عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أمالي ابن الحاجب، دراسة وتح: فخر صالح قدارة، دار عمار، الأردن، دارالجيل، بيروت، 1989، 602/2.

³⁷ أبو عليّ الفارسي، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، التعليقة، تح: عوض القوزي، ط1، 1990، 27/1.

³⁸ ابن أجروم، محمد بن محمد بن داوود الصنهاجي، متن الأجروميّة، دارالصمعي، ط1998، ص6.

³⁹ أبو حيّان الأندلسي، التذييل والتكميل في شرح التسهيل، تح: حسن هنداوي، دارالقلم 1-5، دمشق،

والباقى كنوز إشبيليا، ط1، 245/3.

⁴⁰ أبو سعيد السيرافي، شرح كتاب سيبويه، تح: أحمد حسن مهدي، علي سيد علي، دارالكتب العلمية،

بيروت، لبنان، ط1، 2008، 39/1.

مصطفى الغلاييني: قال: "هو يعني اليوم العلم بأصول تعرف بها أحوال الكلمات العربية من حيث الإعراب والبناء أو هو الأثر الذي نراه آخر الكلمة بحسب موقعها في الجملة من رفع ونصب وجرّ وجزم"⁴¹.

من التعريفات السابقة نرى أنّ الإعراب يكاد يقتصر على تغيّر آخر الكلمة بحسب العوامل الداخلة فيها، وبعض التعريفات يجعل الحركة التي في آخر الكلمة هي الإعراب، إلّا أنّنا نرى أنّ الحركة وحدها ليست الغاية في فهم الإعراب، بل إنّ المعنى الوظيفي - الذي أشار إليه ابن جنيّ - هو المراد وهو المحكّ في تعريف الإعراب والدليل على ذلك (موسى، وعيسى) في جملة: ضرب موسى عيسى، فالحركة لم تظهر إلّا أنّ المعنى اتّضح من الجملة وإنّ لم تظهر الحركة، فاقتصر معنى الإعراب على الأثر الذي يخلفه العامل في نهاية الكلمة انتقاص لمفهوم الإعراب ومعناه ولهذا كانت فلسفة النحاة عن العامل فلسفةً متكاملة تحدّثت عن عدم تنازع عاملين العمل نفسه في آن معاً من جهة، وكذلك تحدّثت عن العوامل اللفظية والمعنوية وأنواعها من حيث عملها في الرفع والنصب والجرّ والجزم من جهة أخرى.

وبالمحصّلة فإنّ الإعراب يعني الإبانة وتغيير أواخر الكلمة بحسب العوامل الداخلة وعلامات الإعراب مرتبطة بالمعاني التي تحدّثها العوامل في الكلمات، ومن هذا التلازم بين العلامة والدلالة على المعنى نستطيع فهم الإعراب بشكل كليّ لفظاً ومعنى.

ج-2- المعنى الاصطلاحي: يمكن إجمال المعنى الاصطلاحي للإعراب في معنيين، الأوّل: تغيّر أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظاً وتقديراً، وعلاماته دلائل عليه، وهي أعلام على المعاني الوظيفية التي تفيدها الكلمة في تركيبها في العبارة، كالفاعلية، والمفعولية، والإضافة وغيرها.

والثاني: هو تطبيق الكلام على قواعد النحو⁴².

⁴¹ الغلاييني، جامع الدروس العربية، ص8.

⁴² الدالي، محمد أحمد، الحصائل، في علوم العربية وتراثها، دار النوادر، سوريا- لبنان - الكويت، ط1،

د-2- نظرة موسّعة: ممّا سبق من تعريفات ومفاهيم واصطلاحات رأينا أنّ الإعراب يتقاطع مع النحو وقد بيّنا أنّ النحو والإعراب عُرفا بمعنى واحد وهذا ما لا نراه فالإعراب برأينا هو وظيفة من وظائف النحو وهو أخصّ منه، كما أوضحنا.

والنحو علمٌ يشمل الإعراب أيضًا، ولدقّة المعنيين وتشابههما يخلط المرء بينهما، وما نريد التركيز عليه هو أنّنا لا ننظر إلى اختلاف الحركة على أنّه الغاية، بل نتعمّق في فهم المعاني الوظيفية - التي أشار إليها بعض النحاة - للإعراب فالعلامات دوالّ على المعاني التي تتعاور الكلمات بحسب موقعها في الجملة أو بحسب العوامل الداخلة عليها وهنا نعطي الإعراب مفهومًا واسعًا ودالًّا مناسبًا لهذا العلم.

3- الصرف (التصريف): من أجل فهم الصرف لا بدّ من توضيح معناه اللغوي

والاصطلاحي ومفهومه ومجال دراسته بمراجعة تاريخيّة ونظرة جديدة.

أ-3- التسمية:

ظهر هذا العلم باسم الصرف وباسم التصريف أيضًا إلّا أنّنا نميل إلى التسمية الثانية كي لا يلتبس الصرف الذي هو موضوعنا بالصرف الذي يقبل التنوين والكسر، ويقابل الممنوع من الصرف من جهة وصيغة التصريف تدلّ على الحركة والمبالغة أكثر من الصرف من جهة أخرى وهي تناسب طبيعة هذا العلم أكثر وهي التسمية التي اعتمدها القدماء أو أكثرهم كما سيظهر في التعريفات الآتية.

ب-3- مفهوم الصرف (التصريف):

الصرف أحد أهمّ علوم العربيّة التي نالت حظًا وافرًا من اهتمام علمائها منذ سيبويه إلى يومنا هذا، وكان ملازمًا للنحو، قابلاً في طيّات مؤلفاته وإن أُجّر عنه، حتّى إنّ استعمال بعض النحويين مثل الهراء (ت190هـ) إلى أن اشتهر به، وابن جيّ في قصّته الشهيرة مع أبي عليّ الفارسيّ الذي قال له: تزبّبت وأنت حصرم، فانشغل بالصرف حتّى أصبح أكمل علمٍ عنده،⁴³ وبدأ الصرف يستقلّ في مؤلّفات نرجّح أنّ هذا الاستقلال كان لأهميّة هذا العلم ودقّته وضرورة إفراده لتوضيحه، لا لأنّه قسيم النّحو!

ولنوضّح مفهوم الصرف أكثر نستعرض جملة من التعريفات القديمة والمعاصرة لعلم الصرف عسى أن يساعدنا هذا في وضع تصوّر أدقّ لمفهوم الصرف ومجال دراسته، ومن

⁴³ عبد الخالق عضيمة، المغني في تصريف الأفعال، القاهرة، دار الحديث، ط2، 1999، 12.

هذه التعريفات: التصريف "هو تغيير الكلمة بالحركات والزيادات والقلب للحروف التي رسمنا جوازها حتى تصير على مثال كلمة أخرى، والفعل بمثلها بالكلمة ووزنها به"⁴⁴.

ابن جنيّ يقول: "فالتصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلم الثابتة، والنحو إنما هو لمعرفة أحواله المتنقلة، ألا ترى أنك إذا قلت: قام بكر، ورأيت بكرا، ومررت ببكر، فإنك إنما خالفت بين حركات حروف الإعراب لاختلاف العامل، ولم تعرض لباقي الكلمة، وإذا كان ذلك كذلك فقد كان من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ⁴⁵ بمعرفة التصريف؛ لأن معرفة ذات الشيء الثابتة ينبغي أن يكون أصلا لمعرفة حاله المتنقلة"⁴⁶.

ابن عصفور الإشبيلي يقول: "التصريف معرفة ذوات الكلم في أنفسها من غير تركيب"⁴⁷. عز الدين الزنجاني يعرف التصريف بأنه "تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة لمعانٍ مقصودة لا تحصل إلا بها"⁴⁸.

أحمد الحملاوي: "الصرف لغة: هو التغيير، واصطلاحا: هو "علم يبحث عن أبنية الكلم العربية وأحوال هذه الأبنية من صحة وإعلال، وأصالة وزيادة، وحذف وإمالة، وإدغام، وعمّا يعرض لآخرها مما ليس بإعراب ولا بناء"⁴⁹.

مصطفى الغلايبي: "الصرف هو علم بأصول تُعرف بها صيغ الكلمات العربية وأحوالها التي ليست بإعراب ولا بناء، فهو علم يبحث عن الكلم من حيث ما يعرض له من تصريف وإعلال وإدغام وإبدال، وبه نعرف ما يجب أن تكون عليه بنية الكلمة قبل انتظامها في الجملة"⁵⁰.

⁴⁴ السيراقي، شرح كتاب سيبويه، 134/5.

⁴⁵ في المدارس الدينيّة القديمة يبدوون بتدريس الصرف.

⁴⁶ ابن جنيّ عثمان، المنصف في شرح كتاب التصريف للمازني، تج: إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين،

القاهرة، دار إحياء التراث القديم، ط1، 1954، 4.

⁴⁷ ابن عصفور الإشبيلي، المنتع الكبير في التصريف، تج: فخر الدين قباوة، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون،

ط1، 1996، 33.

⁴⁸ عز الدين الزنجاني، عزّي، ضمن كتاب مقيد جملي، إسطنبول، 124.

⁴⁹ الحملاوي، أحمد، شذا العرف في فنّ الصرف، تعليق، محمد بن عبد المعطي، دار الكيان، الرياض،

ص42.

⁵⁰ الغلايبي، جامع الدروس العربية، ص8.

محمد فاضل السامرائي: "هو التغيير الذي يتناول صيغة الكلمة وبنيتها لإظهار ما في حروفها من أصالة وزيادة، أو صحّة وإعلال أو غير ذلك"⁵¹.

من هذه التعريفات نرى أنّ مفهوم التصريف حول التغييرات التي تتناول صيغة الكلمة وبنيتها الداخلية لبيان الصحيح من حروفها والمعتلة والزائدة والأصلية وما أبدل منها بآخر وما حذف منها، إضافةً إلى ما تستجلبه هذه التغييرات من معانٍ مقصودة.

ج-3- مصطلح التصريف (الصرف):

اتّضح الصرف اصطلاحاً من التعريفات السابقة إلا أنّ الأستاذ عبده الراجحي لخصّ الصرف باتجاهين أحدهما: قديم يرى الصرف بأنّه علمٌ يدرس بنية الكلمة وأحوالها، وثانيهما: حديث يرى أنّ الصرف علم يشمل كلّ دراسةٍ تتصل بالكلمة أو أحد أجزائها أو تؤدّي إلى اختلاف المعاني النحوية.⁵²

ومن هذين التعريفين نرى أنّ علم الصرف أو التصريف يدرس الكلمة وما يتّصل بها؛ ليقاس عليها ويحسّن استعمالها في الجملة؛ لتأدية المعنى المقصود على نحو ما استعمله العرب من دون لحنٍ أو خطأ.

د-3- الصرف (التصريف) قسيم الإعراب:

ممّا سبق نلاحظ أنّ علم الصرف أو التصريف ليس قسيمًا لعلم النحو- خلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين - بل هو قسيم الإعراب وأنّ علم النحو يشمل الإعراب والصرف، ونستطيع أن نذهب إلى القول إنّ الإعراب والصرف من وظائف النحو. فإذا كان الإعراب يدرس تغيير نهاية الكلمة من الخارج ويبيّن معناها الوظيفي، فإنّ الصرف يدرس بنية الكلمة من الداخل والتغييرات التي تصيها لمعانٍ مختلفة ومن هنا تتمّ دراسة الكلمة خارجياً وداخلياً دراسةً شاملة.

يبدو أنّ القدماء كانوا على درايةٍ بهذا المفهوم الواسع لعلم النحو لذلك لم يؤلّفوا مؤلّفات خاصة بالصرف وإنّما جعل في ما بعد قسيم النحو لأهميته واستقلّت به المؤلّفات.

⁵¹ السامرائي، محمد فاضل، الصرف العربي أحكام ومعان، دار ابن كثير، دمشق، وبيروت، ط1، 2013.

ص9.

⁵² عبده الراجحي، التطبيق الصرفي، لبنان، دار النهضة العربية، د ط، 7.

الخاتمة

درس البحث المصطلحات الثلاث النحو والصرف والإعراب ولم يتجاوز المصطلح، فلم يدخل في عمق علومها؛ بمعنى أنه لم يتناول أبوابها بالدُرُس والمفاتيح والنقد والتوجيه، وما عدا ذلك ممّا جاء في ثنايا البحث كان من مستلزمات توضيح السبيل إلى الهدف الذي قصده.

أفضى البحث إلى جملة من النتائج، فهو من جهةٍ يوضّح كلّ مصطلحٍ على حِدَةٍ، ويضع رؤيةً شاملةً له، ومن جهةٍ أخرى يوسّع دائرةً مفهومة.

والأهمّ من هذا وذاك أنّ البحث توصل إلى أنّ النحو أشمل من الصرف وأنّه يحوي الصرف والإعراب، وأنّ الصرف ليس قسيمًا للنحو، بل هو قسيم الإعراب؛ لما بينهما من القواسم المشتركة.

والإعراب لا يعني تغيير أواخر الكلمة بحسب العوامل الداخلة عليها فحسب، بل هو الإبانة عن المعاني الوظيفيّة، وهذا المعنى يجعلنا ننفذ من الظاهر إلى الداخل، وألاّ لا نبقى جاثمين في محراب الحركات والسكنات.

وبعدُ فهذا جهدٌ مقلّ حاولنا أن نسهم به في خدمة اللغة العربيّة، وأنّ نحرك الرّاكد كي لا يتسنّ، وأنّ نعمل فيه الفكر ونتدبّره كي لا يجمد، فإنّ بلغنا الغاية فبمنّ من الله وفضله، وإنّ كانت الثانية فبتقصيري وعجزّي، وحسبي إخلاص النية والله وليّ التوفيق.

المصادر والمراجع

- ابن أجروم، محمد بن محمد بن داوود الصنهاجي، متن الأجروميّة، دار الصميعي، ط1998.
- ابن الحاجب، عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أمالي ابن الحاجب، دراسة وتحقيق، فخر صالح قدارة، دار عمار، الأردن، دار الجيل، بيروت، 1989.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، المحتسب في تبين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق، علي النجدي ناصف، وعبد الحليم النجار، وعبد الفتاح شلبي، القاهرة 1994.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، تفسير أرجوزة أبي نواس في تفرّيع الفضل بن الربيع وزير الرشيد، تحقيق، محمد بهجة الأثري، مطبوعات مجمع اللغة، دمشق.
- ابن جني، أبو الفتح، عثمان، الخصائص، عالم الكتب، بيروت، تحقيق، محمد علي النجار.
- ابن خلدون، المقدمة، مكتبة ودار المدينة المنورة للنشر- الدار التونسية للنشر، 1984.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان.
- أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي، مراتب النحويين، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 2009.
- أبو حيان الأندلسي، التذييل والتكميل في شرح التسهيل، تحقيق، حسن هندأوي، دار القلم 1-5، دمشق، والباقي كنوز إشبيليا، ط1.
- أبو سعيد السيرافي، شرح كتاب سيبويه، تحقيق، أحمد حسن مهدي، علي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
- أبو علي الفارسي، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، التعليقة، تحقيق، عوض القوزي، ط1، 1990
- الأسد، ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط7، 1988.
- بابستي، عزيزة فؤال، المعجم المفصّل في علم الصرف، دار الكتب العلمية، 1418هـ
- البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب، تحقيق، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط4، 1997.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الجيل.
- الجمعي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تمهيد جوزيف هل، ودراسة طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001.

- جمعة، خالد عبد الكريم، شواهد الشعر في كتاب سيبويه، دار الشرقية، مصر الجديدة، ط2، 1989.
- حلواني، محمد خير، أصول النحو، الناشر الأطلسي.
- الحملاوي، أحمد، شذا العرف في فنّ الصرف، تعليق، محمد بن عبد المعطي، دار الكيان، الرياض.
- الدالي، محمد أحمد، الحصائل، في علوم العربية وتراثها، دار النوادر، سوريا- لبنان - الكويت، ط1، 2011.
- الرافي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب للرافي، تحقيق، محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، مصر، ط، 1940.
- الزبيدي، طبقات النحويين، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، بيروت، لبنان، 1984
- السامرائي، محمد فاضل، الصرف العربي أحكام ومعان، دار ابن كثير، دمشق، وبيروت، ط1، 2013.
- السكاكي، يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، مفتاح العلوم، ضبطه وعلّق عليه، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ط2، 1987.
- السيوطي جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، تحقيق، عبد الحكيم عطية، وعلاء الدين عطية، دار البيروني، ط2، 2006.
- عبده الراجحي، التطبيق الصرفي، لبنان، دار النهضة العربية، د ط.
- عز الدين عبد الوهاب الزنجاني، مقيد صرف جملسي، اسطنبول.
- الغلايبي، مصطفى، جامع الدروس العربية، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط2005.
- القوزي، عوض حمد، المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، عمادة شؤون المكتبات، الرياض، السعودية.
- ناظر الجيش، محمد بن أحمد يوسف، شرح التسهيل المسمى تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، تحقيق، علي محمد فاخر وآخرون، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1428هـ.

البحث الثاني

التحو العربيُّ:

عرض وتقد وتوجيه

د. خالد حسن العدواني

أستاذ مساعد في معهد اللغات الحيّة في جامعة ماردين آرتوقلو

النحو العربي:

عرض ونقد وتوجيه

د. خالد حَسَن العَدُوَانِي

الملخّص:

يتناول البحث الذي بين أيدينا موضوع النحو العربي عامة، فيحاول أن يقدم مقارنة له على مستويات الوصف والنقد والتوجيه.

وهو يهدف من خلال ذلك إلى تحقيق هدفين بينهما تكامل وتلازم، أما الأول فهو إعادة رسم خريطة هذا النحو حتى تبدو لمن ينظر إليها واضحة كاشفة لكل ما تحتويه من عناصر ومكونات، وأما الثاني فهو إعادة تقويم ما استقر في ظنه أنه غير مستقيم في ذلك البناء الكبير بعد النظر إليه من زاوية النقد الذي يلتزم الموضوعية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أما خطته في ذلك، فتقوم على رصد ثلاث نقاط عامة في ذلك البناء، الأولى هي تحديد مفهوم ذلك النحو، ولا سيما في مرحلة البدايات، تلك المرحلة تمثل الصورة الصحيحة له، والثانية هي تحديد الأقسام التي تشكل كيان ذلك النحو، والثالثة، هي تحديد القضايا التي تنطوي عليها أقسام ذلك النحو.

الكلمات المفتاحية: النحو، الصرف، اللغة العربية، الكلمة، الجملة.

• Dr. Öğr Üyesi: Khaled Aladwani, Mardin Artuklu Üniversitesi, Yaşayan Diller Enstitüsü. aladwani.sh@gmail.com

Arabic grammar: Description, criticism and correction

Summary:

The research in our hands deals with the issue of Arabic grammar in general, and it attempts to present an approach to it on the levels of description, criticism, and guidance.

It aims through this to achieve two goals between them integration and correlation, the first is to redraw the map of this way so that it appears to those who look at it clearly revealing all its components and components, and the second is to re-evaluate what was settled in his belief that it is not straight in that big building After looking at him from the point of view of criticism that adheres to objectivity, he cannot.

As for his plan in that, it is based on monitoring three general points in that construction, the first is defining the concept of that grammar, especially in the beginnings stage, that stage represents the correct image of it, and the second is defining the sections that constitute the entity of that grammar, and the third, is defining the issues Implied by sections of that grammar.

Key words: grammar, morphology, Arabic, word, sentence.

1- المقدمة:

يتناول البحث الذي بين أيدينا موضوع النحو العربي عامة، فيحاول أن يقدم مقارنة له على مستويات الوصف والنقد والتوجيه، وهو بذلك يسير في ركب المحاولات السابقة التي سعت إلى تجديد بناء ذلك النحو ابتداء بمحاولة ابن مضاء الأندلسي ومرورًا بمحاولات المحدثين، من مثل الأستاذ إبراهيم مصطفى والأستاذ الدكتور تمام حسان والأستاذ الدكتور مهدي المخزومي وغيرهم .

وهو يهدف من خلال ذلك إلى تحقيق هدفين بينهما تكامل وتلازم، أما الأول فهو إعادة رسم خريطة هذا النحو حتى تبدو لمن ينظر إليها واضحة كاشفة لكل ما تحتويه من عناصر ومكونات، وأما الثاني فهو إعادة تقويم ما استقر في ظنه أنه غير مستقيم في ذلك البناء الكبير بعد النظر إليه من زاوية النقد الذي يلتزم الموضوعية ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

أما خطته في ذلك، فتقوم على رصد ثلاث نقاط عامة في ذلك البناء، الأولى هي تحديد مفهوم ذلك النحو، ولا سيما في مرحلة البدايات، تلك المرحلة تمثل الصورة الصحيحة

له، والثانية هي تحديد الأقسام التي تشكل كيان ذلك النحو، والثالثة، هي تحديد القضايا التي تنطوي عليها أقسام ذلك النحو.

كل ذلك في حدود المنهج الوصفي الذي يقوم أساساً على رصد عناصر الظاهرة وكشف العلاقات الرابطة بينها بغية الوصول إلى تحديد ماهيتها وكشف آلية عملها.

2- تعريف النحو:

لقد عرّف العلماء النحوَ قديماً بأنه "علم تُعرَف به أحوال الكلمات العربية مفردة ومركبة"¹، ثم عمدوا بعد ذلك إلى توضيح مقصودهم بالأحوال، وذلك في شأن الكلمة مفردة والكلمة مركبة، فقالوا في شأن الأولى: إن المراد بذلك هو صيغ الكلمات العربية وأحوالها التي ليست بإعراب ولا بناء²، في حين قالوا في شأن الثانية: إن المراد بذلك هو ما يعتري آخر الكلمة من مظاهر الإعراب والبناء³، والحقيقة أن الدارس لا يعدم أن يجد في نفسه ما يقال، وذلك على مستوى التعريف وعلى مستوى ما قالوه في توضيح مقصودهم بكلمة (الأحوال) فيه، أما على مستوى التعريف فلا شك أنه قد تجاوز في قَصْرِهِ الأمر على الكلمة في دراسة التركيب⁴، تجاوز قسمًا مهمًا من النحو العربي⁵، وذلك هو القسم الذي

¹ الغلابي، الشيخ مصطفى، جامع الدروس العربية، راجع هذه النسخة الدكتور محمد أسعد النادري، المكتبة العصرية، صدا- بيروت، 34، 1418 هـ- 1997 م، ج 1، ص 9، وينظر أيضاً: المرادي، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، شرح وتحقيق الدكتور عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، القاهرة، 1422 هـ- 2001 م، ج 1، ص 265.

² الغلابي، الشيخ مصطفى، جامع الدروس العربية، ج 1، ص 8.

³ نفسه، ص 9.

⁴ لقد أطلق النحاة على هذا التركيب اسم الجملة، وقد خصوه بالتركيب الإسنادي بشكليه الاسمي والفعلي، وقد حاول بعض المتأخرين التوسع في أشكال الجملة، فجعلوا منها التركيب الشرطي والتركيب الظرفي. ينظر: أبو علي الفارسي، الإيضاح العضدي، تحقيق حسن شاذلي فرهود، ط 1، 1389 هـ - 1969 م، ص 43، وعبد القاهر الجرجاني، المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق الدكتور كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1982 م، ج 1، ص 277، والزمخشري، المفصل في علم العربية، تحقيق الدكتور فخر صالح قدارة، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط 1، 1425 هـ - 2004 م، ص 49.

⁵ يعود السبب الحقيقي في ذلك إلى قدم هذا التعريف قياساً على المرحلة التي استوت فيها دراسات النحاة للجملة من حيث هي كل؛ إذ تعود أصول هذا التعريف إلى العصور الأولى كما يفهم من كلام الشيخ الغلابي، في حين يعود اتضاح صورة دراسات الجملة من حيث هي كل إلى ابن هشام الذي عاش في القرن الثامن الهجري⁵. ينظر في شأن النقطة الأولى: الغلابي، الشيخ مصطفى، جامع الدروس العربية، ج 1،

يعنى بدراسة الجملة من حيث هي كل، سواء أكانت داخل النص⁶ أم خارجه⁷ والمعروف في أوساط المشتغلين بعلم النحو تحت اسم إعراب الجمل، وأما على مستوى ما قالوه في توضيح مقصودهم بكلمة (الأحوال) فيه، فإننا نرى أنه لا حاجة لقيود (التي ليست بإعراب ولا بناء) في توضيح أحوال الكلمة مفردة مادامت هذه القضية داخلية في أحوال دراسة الكلمة مركبة، أضف إلى ذلك أن هذا التوضيح لم يكن مباشراً في تحديده ماهية تلك الأحوال، وذلك بالقول: إنها تتمثل في بنية الكلمة وما يطرأ عليها من تغيرات، كما أننا نرى أن ربط الأمر بقضية الإعراب والبناء في توضيح أحوال الكلمة مركبة لا يتناسب مع حقيقة الموضوعات التي درسها النحو على هذا المستوى، من مثل الأبواب النحوية التي تشغلها الكلمات في التركيب، وما يتصل بتلك الأبواب من خصائص، من مثل نوع الكلمة وأحوالها وهيكلها، ومن مثل رتبة الباب والمسافة بينه وبين ما يلازمه من الأبواب عادة، وكذلك ملازمات هذا الباب وما يكون بينه وبينها عادة من علاقات لفظية ومعنوية مختلفة، ومن مثل ما يطرأ بعد ذلك على تلك الأبواب وتلك الخصائص من تغيرات في تصريفات الكلام المختلفة، وهو فوق ذلك يبالغ في الإغلاء من شأن قضية الإعراب والبناء مع أنها لا تزيد في الحقيقة عن كونها خاصية من خصائص الأبواب، شأنها في ذلك شأن الخصائص الأخرى التي أشرنا إليها.

9. وينظر أيضاً: الدمج، خالد مصطفى، النخبة الصرف من أحكام علم الصرف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2016م، ص11، وفي شأن النقطة الثانية: قباوة، دكتور فخر الدين، إعراب الجمل وأشباه الجمل، دار القلم العربي، حلب، ط5، 1409هـ-1989م، ص5.

⁶ نميل إلى إطلاق مصطلح خاص ههنا، وهو الإجمال، ونريد به "كل تركيب مكوّن من جملتين أو أكثر، تقوم بينها علاقات رابطة"، وهو يختلف عن مصطلح الكلام الذي قد يطلق لديهم على التركيب المؤلف من أكثر من جملة أيضاً، ووجه الاختلاف أن هذا المصطلح هو مصطلح يقوم على لمح العلاقات بين عناصر التركيب، أما مصطلح الكلام، فهو مصطلح دلالي، إذ حده عندهم هو أنه اللفظ المفيد فائدة تامة يحسن السكوت عليها. ينظر: ابن عقيل، شرح ابن عقيل ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة - مصر، 1400هـ - 1980م، ط20، ج1، ص14، وابن الناظم، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1420هـ - 2000م، ص5..

⁷ أسماها النحاة في مثل هذا المقام كلاماً أيضاً. ينظر: ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت - لبنان، 1411هـ - 1991م، ج2، ص431.

ولعل نقطة أخرى يمكن أن تثار في شأن حديثهم عن الأحوال، وهي أن إغفالهم الإشارة إلى أحوال الجملة من حيث هي كل في تعريف النحو قد ساقهم إلى عدم تفصيل القول في تلك الأحوال التي لا تقتصر، في الحقيقة، على قضية المحل وعدم المحل كما يبدو من النظر في مبحث إعراب الجمل، بل تتسع لتتطابق مع أحوال الكلمة المركبة، وهي الأبواب والخصائص والتغيرات التي تطرأ على ذلك كله في تصنيفات الكلام المختلفة.

بناءً على ذلك كله نرى ضرورة إعادة النظر في أبعاد التعريف والتوضيح على حد سواء، إذ ينبغي أن يعاد رسم صورة التعريف على النحو التالي:

النحو: علم تعرف به أحوال الكلمات العربية مفردة ومركبة والجمل العربية مفردة ومركبة.

أما توضيح مرادهم بالأحوال فيجب أن يصاغ على النحو التالي:

يراد بأحوال الكلمة مفردة بنية تلك الكلمة وما يطرأ عليها من تغيرات، في حين يراد بأحوال الكلمة مركبة الأبواب النحوية التي تشغلها في التركيب وخصائص تلك الأبواب ومنها الإعراب والبناء، ثم ما يطرأ على ذلك من تغيرات بحسب تصنيفات الكلام المختلفة، ويراد بأحوال الجملة مفردة ومركبة ما يراد بأحوال الكلمة مركبة، ونعني بذلك الأبواب النحوية التي تشغلها في التركيب وخصائص تلك الأبواب، ثم ما يطرأ على ذلك من تغيرات بحسب تصنيفات الكلام المختلفة.

3- أقسامه:

يبدو من خلال النظر في تعريف علم النحو وكذلك الموضوعات التي تناولها أن هذا العلم ينقسم لديهم قسمين: أحدهما ينظر إلى العنصر اللغوي في حال إفراده، والآخر ينظر إليه في حال تركيبه، وبالعودة إلى ما قاله العلماء الذين تحدثوا في كتبهم عن علوم اللغة العربية وعدتها نجد أنهم قد أطلقوا على القسم الأول اسم علم الصرف، والثاني في حين أنهم قد أطلقوا على القسم الثاني اسم علم الإعراب.⁸

4- قضايا تلك الأقسام:

وسوف نقف عند قضايا علم الصرف أولاً، ثم نقف عند قضايا علم الإعراب بعد ذلك.

1-4- علم الصرف:

⁸ الغلابيني، الشيخ مصطفى، جامع الدروس العربية، ج1، ص8.

سنعمل على تقديم علم الصرف من خلال الوقوف عند ست قضايا نرى أنها تمثل المحددات الأساسية لهذا العلم ولكل علم، وهي تعريفه وحدوده وهدفه ومنهجه وموضوعاته ومفردات تلك الموضوعات:

1-1-4- تعريفه: يختص علم الصرف، في واقع الأمر، بدراسة أحوال الكلمات العربية مفردة، أي في ذاتها⁹.

أمثلة:

- (كِتَاب): وزنه: فِعَال: اسم ثلاثي مزيد فيه حرف واحد، صحيح الآخر، وهو بين العين واللام، وهو اسم جنس جامد يدل على ذات ... إلخ.

- (قَالَ): وزنه: فَعَلَّ: فعلٌ ثلاثي مجرد معتل أجوف واوي، أصله (قَوَّلَ)، تحركت الواو وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفًا ... إلخ.

2-1-4- حدوده: يتبين لمن يتتبع كلام العلماء في هذا الشأن أن هذا العلم يدرس الأفعال المتصرفة والأسماء المعربة¹⁰ فقط.

* الأفعال المتصرفة: هي التي نأخذ منها الماضي والمضارع والأمر (قال - يقول - قل).
* الأسماء المعربة: هي الأسماء التي تأتي مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة بحركة ظاهرة أو مقدرة، مثل: كتاب، رجل، مصطفى، عصا، ... إلخ.

ولا يدرس علم الصرف الأفعال الجامدة (التي لا نستطيع أن نأخذ منها الفعل في كل الأزمنة، مثل: ليس - عسى)، والأسماء المبنية، مثل: (الضمير - اسم الإشارة - اسم الموصول - اسم الاستفهام - اسم الشرط - الظروف المهمة والكنائيات)¹¹.

3-1-4- هدفه: من خلال النظر في أقوال العلماء في شأن تحديد المراد بأحوال الكلمة مفردة يتبين بجلاء أن هدف علم الصرف هو دراسة بنية الكلمة العربية وما يطرأ عليها من تغيرات¹².

⁹ ابن جني، المنصف في شرح كتاب التصريف للمازني، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين، القاهرة، 1954م، ص4، والغلابي، الشيخ مصطفى، جامع الدروس العربية، ص8.

¹⁰ استخدم بعضهم مصطلح الأسماء المتمكنة. ينظر: الحملاوي، الشيخ أحمد، شذا العرف في فن الصرف، قدم له وعلق عليه محمد بن عبد المعطي وخرج شواهد ووضع فهارسه أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري، دارالكيان للطباعة والنشر، الرياض، دت، ص49.

¹¹ الراجعي، الدكتور عبده، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص9.

4-1-4- منهجه: لم نقع على شيء مكتوب في ذلك، لكن نظرة عامة في مباحث هذا العلم تشير إلى أن منهجه في دراسة بنية الكلمة يقوم على نقطتين: الأولى هي تحديد الوزن الصرفي، والثانية هي تحديد طبيعة الحروف (العدد، الصحة والعلة، الأصالة والزيادة)، وكذلك منهجه في دراسة التغيرات التي تطرأ على تلك البنية، فهو أيضاً يقوم على نقطتين: الأولى هي مراعاة جانب اللفظ، والثانية هي مراعاة جانب المعنى¹³.

5-1-4- موضوعاته: يتمحور هذا العلم حول ثلاثة موضوعات، هي: (تصريف الأفعال) و (تصريف الأسماء) و (التصريف المشترك الذي يشمل الفعل والاسم)¹⁴.
● نظرة نقدية: نرى أن يتم الاقتصار في الحديث عن موضوعاته على النقطتين الأوليين، وهما تصريف الأفعال وتصريف الأسماء¹⁵.

6-1-4- مُفردات تلك الموضوعات: تنطوي موضوعات هذا العلم على مفردات كثيرة، هي:

1-6-1-4- مفردات تصريف الأفعال: وهي ثماني مفردات¹⁶:

- 1. الفعل من حيث الزمن: (ماضي، مضارع، أمر). مثال: سأل - يسأل - اسأل.
- 2. الفعل من حيث الصحة والاعتلال (صحيح، معتل). مثال: لعِبَ - بَتَى.
- 3. الفعل من حيث التجرد والزيادة (مجرد، مزيد). مثال: عَمِلَ - عَامَلَ.
- 4. الفعل من حيث الجمود والتصرف (متصرف، جامد). مثال: مَشَى - لَيْسَ.

¹² يمثل هذا التحديد وجهة نظرنا الخاصة، وهو مستخلص من نظرنا في بناء ذلك العلم.

¹³ وهذا التحديد أيضاً مستخلص من نظرنا في بناء علم الصرف.

¹⁴ التزم بهذا التصنيف علماء كثر في كتبهم، ومنهم الشيخ أحمد الحملوي في كتابه: شذا العرف في فن الصرف، والشيخ مصطفى الغلاييني في كتابه جامع الدروس العربية، والدكتور عبده الراجحي في كتابه التطبيق الصرفي. ينظر: الحملوي، الشيخ أحمد، شذا العرف في فن الصرف، ص ص261-264، والغلاييني، الشيخ مصطفى، جامع الدروس العربية، ج3، ص328، والراجحي، الدكتور عبده، التطبيق الصرفي، ص ص214-221.

¹⁵ قد يقول قائل هنا: إن ذلك سيؤدي إلى تكرار الحديث عن القضايا المشتركة بين الأسماء والأفعال، والحقيقة أننا لا نرى ضيراً في ذلك ما كان الموضوع مختلفاً.

¹⁶ بنينا ذلك على ما وجدناه في كتاب: شذا العرف في فن الصرف للشيخ أحمد الحملوي. ينظر: الحملوي، الشيخ أحمد، شذا العرف في فن الصرف، ص ص261-262.

الفعل من حيث اللزوم والتعدي (متعدٍ ، لازم) . مثال: أَكَلَ - ذَهَبَ .
الفعل من حيث البناء للفاعل والمفعول (المبني للمعلوم ، المبني للمجهول) . مثال: أَخَذَ - أُخِذَ .

الفعل من حيث التوكيد وعدم التوكيد (مؤكِّد وغير مؤكِّد) . مثال: ذَهَبَ - قَدَّ ذَهَبَ .
الفعل من حيث الإسناد إلى الضمائر. مثال: بنيتُ - بنينا - بنيتَ - بنيتِ - بنيتما - بنيتم - بنيتُ - بنيتُ - بنت - بنتا - بنتا - بنوا - بنينَ .

1-4-6-2- مفردات تصريف الأسماء: وهي سبع مفردات¹⁷:

الاسم من حيث التجرد والزيادة (مجرد - مزيد) . مثال: قلم - كتاب .
الاسم من حيث الجمود والاشتقاق (جامد - مشتق) . مثال: حَجَرٌ - قائل .
الاسم من حيث طبيعة آخره (صحيح الآخر - مقصور - منقوص - ممدود) . مثال:
البيت - المشفى - القاضي - الصحراء .

الاسم من حيث التذكير والتأنيث (مذكر - مؤنث) . مثال: كتاب - ممحاة .
الاسم من حيث الإفراد والتثنية والجمع (مفرد - مثنى - جمع) . مثال: قلم - قلمان - أقلام .

الاسم من حيث التصغير (فُعَيْل - فُعَيْعِيل) . مثال: جُبَيْلٌ - دُرَيْهْمٌ - عُصْبَيْفِيٌّ .
الاسم من حيث النسبة (علامة النسبة ياء مُشَدَّدة في آخر الاسم) . مثال: عربيٌّ - تركيٌّ
- ...)

1-4-6-3- مفردات التصريف المشترك: وهي سبع مفردات أيضاً¹⁸:

الإعلال (إعلال بالقلب - إعلال بالحذف - إعلال بالتسكين) . مثال: بنى - ابن - الباني

الإبدال (إبدال التاء في صيغة افتعل طاء إذا وقعت بعد الصاد، مثل: اصطبر)
الإدغام (الجمع بين متماثلين أو متقاربين . مثال: شدَّ) .

¹⁷ ينظر: الحملاوي، الشيخ أحمد، شذا العرف في فن الصرف، ص ص 262-263.

¹⁸ تحدث كتاب التطبيق الصرفي للدكتور عن جل هذه المسائل متفرقة، إذ ذكر القلب المكاني في البداية، ثم تحدث عن المسائل الأخرى لاحقاً. ينظر، الراجحي، الدكتور عبده، التطبيق الصرفي، ص ص 213-221.

الإمالة (الميل بالفتحة لكي تكون قريبة من الكسرة ، والميل بالألف إلى الياء على نحو ما نجد في قراءة بعض القراء لقوله تعالى: " بسم الله مَجْرَاهَا ومُرْسَاهَا ") .
 الوقف (وهو يتعلق بالحرف الأخير من الكلمة التي يتم بها معنى الجملة) .
 تخفيف الهمز (وهذا خاص بالهمزة لثقلها في النطق على اللسان) .
 القلب المكاني (وهو تقديم بعض حروف الكلمة على بعض ، مثل: جَدَبَ وَجَبَدَ) .

● نظرة نقدية: ونرى أن يُعاد النظر في توزيع تلك المفردات على النحو التالي:

1- تصريف الأفعال: وهنا يتم التوزيع في نقطتي بنية الكلمة والتغيرات التي تطرأ عليها.
 أ- بنية الكلمة: وتشمل نقطتين:
 - الميزان الصرفي¹⁹ :

- طبيعة الحروف: (من حيث العدد (ثلاثي، رباعي، خماسي، سداسي)، من حيث الصحة والعلة، من حيث الأصالة والزيادة²⁰).

ب- التغيرات التي تطرأ عليها: وهي نوعان لفظية ومعنوية:

● التغيرات اللفظية: وهي نوعان: ذاتية وبينية:

- التغيرات الذاتية: وهي تغيرات تقع داخل الفعل، ومن أمثلتها:

الإعلال (إعلال بالقلب – إعلال بالحذف – إعلال بالتسكين) . مثال: بنى – ابن – يبني .

الإبدال (إبدال التاء في صيغة افتعل طاء إذا وقعت بعد الصاد ، مثل: اصطبر)

الإدغام (الجمع بين متماثلين أو متقاربين . مثال: شَدَّ) .

الإمالة (الميل بالفتحة لكي تكون قريبة من الكسرة ، والميل بالألف إلى الياء على نحو ما

نجد في قراءة بعض القراء²¹ لقوله تعالى: ﴿والليل إذا سجي﴾ [الضحى: الآية 2] .

الوقف (وهو يتعلق بالحرف الأخير من الكلمة التي يتم بها معنى الجملة) .

تخفيف الهمز (وهذا خاص بالهمزة لثقلها في النطق على اللسان) .

¹⁹ نلاحظ أن هذا التوزيع الجديد قد نقل الحديث عن الميزان الصرفي من كونه مدخلاً يقدمون به للحديث عن قضايا علم الصرف إلى كونه قضية من تلك القضايا.

²⁰ لقد درج العلماء إلى تقسيم الفعل من هذه الناحية الأخيرة إلى مجرد ومزيد، ونرى أن يعاد النظر في ذلك انطلاقاً من طبيعة الحروف المكونة، فنقوم بتقسيم الفعل إلى: أصيل ومزيد.

²¹ ينظر: ابن الناظم، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، ص 581.

القلب المكاني (وهو تقديم بعض حروف الكلمة على بعض ، مثل: جَدَبَ وَجَبَدَ).

- التغيرات البينية: وهي التي تلحق بالفعل نتيجة اتصاله بغيره، كما هي

الحال في التغيرات التي تنجم عن إسناد الفعل إلى الضمائر²².

• التغيرات المعنوية: وتشمل²³:

التغيرات من حيث الزمن: (ماضي ، مضارع ، أمر) . مثال: سأل - يسأل - اسأل ،

ويدخل فيها موضوع الجمود والتصريف.

التغيرات من حيث الحدث: وتشمل:

- الإثبات والإلغاء: (تام، ناقص). مثال: (كان) التامة و(كان) الناقصة.

- التوكيد وعدم التوكيد: (مؤكّد وغير مؤكّد) . مثال: ذَهَبَ - قَدْ ذَهَبَ .

- الجهة: (المشاركة، المبالغة، الطلب، ... إلخ) . مثال: عَمِلَ - عَامَلَ- تعامل، اعتمَل،

استعمل .

التغيرات من حيث حال المؤثّر: (مبني للمعلوم ، مبني للمجهول) . مثال: أَخَذَ - أُخِذَ .

التغيرات من حيث المتأثّر: (متعدٍ ، لازم) . مثال: ذَهَبَ- أذهب، و نصر- انتصر .

2- تصريف الأسماء: وهنا يتم التوزيع في نقطتي بنية الكلمة والتغيرات التي تطرأ

عليها أيضاً.

أ- بنية الكلمة: وتشمل نقطتين:

- الميزان الصرفي:

- طبيعة الحروف: (من حيث العدد، من حيث الصحة والعلة في الآخر، من حيث

الأصالة والزيادة).

ب- التغيرات التي تطرأ عليها: وهي نوعان لفظية ومعنوية:

• التغيرات اللفظية: وهي تشمل:

²² إن نظرة عابرة في بنية تلك التغيرات تبين أن تلك التغيرات لا تخرج عن حدود الإعلال وقضاياه وعلى نحو

خاص الحذف والقلب.

²³ نلاحظ أن تلك التغيرات تتصل بمكونات الفعل وتوابعه، من مثل الزمن والحدث والذات المؤثرة والذات

المتأثرة.

الإعلال (إعلال بالقلب - إعلال بالحذف - إعلال بالتسكين) . مثال: هدى - قاض - القاضي .

الإبدال (إبدال التاء في صيغة افتعل طاء إذا وقعت بعد الصاد ، مثل: اصطبار) .
الإدغام (الجمع بين متماثلين أو متقاربين . مثال: شدُّ) .

الإمالة (الميل بالفتحة لكي تكون قريبة من الكسرة ، والميل بالألف إلى الياء على نحو ما نجد في قراءة بعض القراء²⁴ لقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمَرَسَاهَا﴾ [هود: الآية 41] .
الوقف (وهو يتعلق بالحرف الأخير من الكلمة التي يتم بها معنى الجملة) .
تخفيف الهمز (وهذا خاص بالهمزة لثقلها في النطق على اللسان) .

القلب المكاني (وهو تقديم بعض حروف الكلمة على بعض ، مثل: الواحد والحادي) .
القصر والمد²⁵ (وهو يتعلق بآخر الاسم، إذ قد يمد المقصور وفق قوانين اللغة) .

• التغيرات المعنوية: وتشمل:

التغيرات من حيث الجمود والاشتقاق (جامد - مشتق) . مثال: حَجَرٌ - قائل .
التغيرات من حيث الجنس (مذكر - مؤنث) . مثال: كِتَاب - ممحاة .
التغيرات من حيث العدد (مفرد - مثنى - جمع) . مثال: قلم - قلمان - أقلام .
الاسم من حيث التصغير (فُعَيْل - فُعَيْعِل - فُعَيْعِيل) . مثال: جُبَيْلٌ - دُرَيْهْمٌ - عُصَيْفِيرٌ .
الاسم من حيث النسبة (علامة النسبة ياء مُشَدَّدة في آخر الاسم) . مثال: عربيٌّ - تركيٌّ -
(...)

2-4- علم الإعراب:

وسندرسه من خلال التعريف والحدود والهدف والمنهج والموضوعات ومفردات الموضوعات أيضاً:

1-2-4- تعريفه: من خلال النظر في الدراسات النحوية التي حملت اسم الإعراب يظهر لنا أن هذا العلم هو علم تعرف به أحوال الكلمات العربية مركبة والجملة العربية مفردة ومركبة.

²⁴ المرصفي، عبد الفتاح السيد عجمي، هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ط2، ص578.

²⁵ تجاوزنا النقص في الاسم المنقوص: لأنه يدخل في باب الإعلال بالحذف.

أمثلة:

- يدرس كلمة (قلم) في مثل قولنا: " هذا قلم " ، فيقول: هي خبر مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة في آخره .

- يدرس جملة (العلمُ نورٌ) في مثل قولنا: " العلم نور " ، فيقول: هي جملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب .

- يدرس جملي (العلم نور) و (الجهل ظلام) في مثل قولنا: " العلم نور والجهل ظلام " ، فيقول: الأولى هي جملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب ، والثانية هي جملة معطوفة على الجملة الأولى ، فهي مثلها لا محل لها من الإعراب .

4-2-2- حدوده : إن نظرة سريعة في أبواب النحو التي شغلها الكلمات والتي شغلها الجمل في التركيب يظهر لنا أن هذا العلم يدرس الكلمات العربية في الأشكال التالية: (الاسم ، الفعل ، اسم الفعل²⁶ ، الحرف) ، والجمل العربية في الأشكال التالية: (الجملة الاسمية ، الجملة الفعلية) .

4-2-3- هدفه: يتبين من تتبع هذا الجانب من النحو أنه يعنى، إضافة إلى أمر البناء والإعراب الذي يصيب آخر الكلمة، يعنى بالأبواب النحوية التي تشغلها الكلمات في الجملة وما يتصل بها من خصائص محددة، من مثل نوع الكلمة وأحوالها، ومن مثل رتبة الباب ومسافته من غيره وما يلازمه من الأبواب الأخرى وما يكون عليه بعد ذلك من أحوال الربط والمطابقة وغير ذلك، كما يعنى بالتغيرات التي تطرأ على تلك الأبواب والخصائص.

وهو أمر نراه ينطبق على حال دراسته الجملة، فهو أيضاً يعنى بأحوالها ممثلة بالأبواب النحوية التي تشغلها وما يتصل بها من خصائص، وما يطرأ على ذلك كله من التغيرات .

²⁶ لقد درجنا في كتب الصرف على أن نشير إلى أن أقسام الكلم ثلاثة، هي الفعل والاسم والحرف، لكن حديث النحاة عن اسم الفعل ونسبة أبواب نحوية إليه، هي: اسم الفعل الماضي واسم الفعل المضارع واسم فعل الأمر يجعلاننا نقول بأنه قسم من أقسام الكلمة قائم بذاته، ولعل في تسمية الفراء وهو من كبار رجال الكوفة إياه باسم الخالفة ، وهي تسمية تدل على تميزه واستقلالهما يدعم ما نذهب إليه ويقويه. ينظر في شأن رأي الفراء: حسان، الدكتور تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة- المغرب، الدار البيضاء، 1994م، ص89.

4-2-4- منهجه: يقوم منهجه في دراسة أحوال الكلمة في حال تركيبها على ثلاث نقاط: الأولى هي تحديد الباب الذي تشعله الكلمة عندما تكون داخل التركيب، وهو يعتمد في ذلك على أسس وضوابط شتى، أهمها المعنى الوظيفي (الفاعل: من قام بالفعل، المفعول به: من وقع عليه الفعل، الخبر: ما يُخبر به عن المبتدأ، ... إلخ) والموقع (المبتدأ: ما نبتدئ به الكلام، ... إلخ) والعمل (الاسم المجرور: ما جر بحرف الجر، ... إلخ)، والثانية هي تحديد الخصائص التي يتحدد من خلالها ذلك الباب، وهو يستند في ذلك إلى أسس وضوابط شتى أيضاً، من مثل نوع الكلمة (اسم، فعل، حرف، اسم فعل)، وأحوالها من التنكير والتعريف والجمود والاشتقاق، وكذلك الصيغة (صيغة فعل ماض، صيغة فعل مضارع، صيغة فعل أمر)، وعلامة الآخر (ضمة، فتحة، كسرة، سكون، ... إلخ)، وحال تلك العلامة (بناء، رفع، نصب، جر، جزم)، ورتبة الباب (التقدم، التأخر)، وما يلزمه من أبواب (المبتدأ يلزمه الخبر، والفعل يلزمه الفاعل، ... إلخ)، وما يتصف به من صفات الإسناد (الخبر مسند إلى المبتدأ، والفعل مسند إلى الفاعل) والتخصيص (المفاعيل الخمسة والحال والتمييز والمستثنى تخصص الجملة قبلها) والإلحاق (المضاف ملحق بالمضاف إليه) والتبعية (الصفة تتبع الموصوف في العدد والجنس والتعيين)، وكذلك من صفات الربط (النعته السببي يحتاج إلى رابط يربطه بالمنعوت، كقولنا: رأيت رجلاً قائماً أبوه) والمطابقة (الخبر يطابق المبتدأ في العدد والجنس) والعاملية (الفعل عامل في الفاعل) والمعمولية (الفاعل معمول للفعل).

والثالثة هي تحديد ما ينتاب ذلك كله من جوانب التغيير، فيرصد مثلاً تغيرات الأبواب، من مثل تغير المبتدأ والخبر إلى مفعول به أول ومفعول به ثان بعد أفعال القلوب (أفعال الظن واليقين)، وتغير المبتدأ والفاعل والمفعول به إلى تمييز في التمييز المحوّل، وتغيرات الخصائص، من مثل تغير خاصيتي التنكير والاشتقاق في باب الحال إلى خاصيتي التعريف والجمود على نحو ما نجد في قول الشاعر: فأوردها العراك²⁷، وتغير خاصية التأخر عن

²⁷ هذا جزء من بيت للبيد يقول فيه: فأوردها العراك ولم يذدها... ولم يشفق على نغص الدخال. ينظر:

ليبيد، ديوان لبيد، دارصادر، بيروت- لبنان، ص 108.

الفعل في باب المفعول به إلى خاصية التقدم على الفعل على نحو ما نجد في قولك: قلماً اشتريتُ.

وهو منهج نراه يستمر في دراسة أحوال الجملة في حالي أفرادها وتركيبها، إذ نراه أيضاً يتناول الأبواب التي تشغلها الجملة في التركيب والخصائص التي تتصل بها ومن خلال الأسس والضوابط ذاتها (في المشترك بينهما)، كما نراه يتناول التغيرات التي تطرأ على ذلك وفق الأسلوب ذاته المتبع في دراسة تغيرات المفردات، إذ يقف عند التغيرات التي تقع في الأبواب والتغيرات التي تقع في الخصائص²⁸.

● نظرة نقدية:

ما يلاحظ على منهج علم الإعراب في دراسة الأبواب على مستويي المفردات والجملة هو أنه كان يستند إلى أسس وضوابط مختلفة، من مثل المعنى الوظيفي والموقع والعمل، وما نراه في هذا المقام هو أن مثل ذلك لا يؤسس لتصنيف دقيق للأبواب، إذ لا بد من وحدة المعيار المتبع في التصنيف فضلاً عن دقته، وعليه نرى أن يعاد النظر في هذا الأمر وأن يتم ذلك بالتزام أكثر تلك الأسس دقة وواقعية في هذا المجال، وهو أساس المعنى الوظيفي، فيتم تثبيت ما قام على هذا الأساس وإعادة ما شذ عن ذلك إليه (سنقوم بإعادة تصنيف الأبواب وفق هذا المعيار عند الحديث عن مفردات الموضوعات).

أما ما يلاحظ عليه في دراسة الخصائص على مستويي المفردات والجملة فهو أنه لم يعتمد إلى استقراء تلك الخصائص كاملة²⁹، بل اكتفى بذكر بعضها دون بعض، ثم لم يعتمد بعد ذلك إلى تصنيفها في أبواب كلية يضم فيه النظير إلى نظيره والشبيه إلى شبيهه، وهو أمر لا تخفى أهميته في ميدان الدرس العلمي الرصين، أضف إلى ذلك كله أنه لم يفتن إلى ضرورة المساواة بين تلك الخصائص في الأهمية في عملية تحديد الأبواب، بل مضى يغلب بعضها على بعض على نحو ما نرى من تغليبته لخاصيتي العمل والعلامة الإعرابية على بقية الخصائص الأخرى التي وقف عندها.

²⁸ كل ما وردناه من كلام على المنهج يمثل رأينا الخاص، وهو مستخلص من إعمال النظر في جوانب علم الأعراب.

²⁹ سيظهر صدق هذا الادعاء حين نعرض لتلك الخصائص إن شاء الله تعالى.

وما نراه أجدر في هذا الشأن هو أن يتم تناول هذه الخصائص وفق خطة جديدة تراعي كل ما سبق فتعمل أولاً على استقرار تلك الخصائص على مستويي أبواب المفردات والجمل، ثم تصنيفها في أبواب كلية، ثم المساواة بينها حين التوجه إلى الدراسة³⁰.

رؤية جديدة لخصائص أبواب المفردات وآلية تصنيفها:

أ- خصائص البنية: وتشمل: الكلمة، نوع الكلمة (اسم)، أحوال الكلمة (معرفة، نكرة، جامدة، مشتقة)، هيكل الكلمة (صيغة الكلمة، صورة الكلمة)، علامة آخر الكلمة (ضمة، فتحة، كسرة، سكون، ... إلخ)، حال العلامة (بناء، رفع، نصب، جر، جزم).

ب- خصائص المعنى: ونقصد بها مدلول الكلمة الذي يساعد في تحديد بابها.

ج- خصائص الموقع: وتشمل: الرتبة (قبل، بعد)، المسافة³¹ (مباشرة، بعد فاصل).

د- خصائص العلاقة: وهي نوعان:

• العلاقات المعنوية: وتشمل: الإسناد، التخصيص، الإلحاق، التبعية، إضافة إلى العلاقات التي تكون حروف المعاني وما تدخل عليه من التراكيب الإسنادية.

• العلاقات اللفظية: وتشمل: التلازم، الربط، المطابقة، العمل.

رؤية جديدة لخصائص أبواب الجمل وآلية تصنيفها:

أ- خصائص البنية: وتشمل: الجملة، نوع الجملة (اسمية، فعلية)، أحوال الجملة (خبرية، إنشائية، مثبتة، منفية، مؤكدة، طلبية، غير طلبية).

ب- خصائص المعنى: ونقصد بها مدلول الجملة الذي يساعد في تحديد بابها.

ج- خصائص الموقع: وتشمل: الرتبة، المسافة.

د- خصائص العلاقة: وهي نوعان:

³⁰ كما ندعي لمحاولتنا تجاوز ما ورد لدى الأقدمين فإننا ندعي لها تجاوز ما ورد لدى الدكتور تمام حسان وإن كانت ثمرة من ثمارها، فالدكتور تمام رحمه الله لم يتوسع في ذكر تلك الخصائص توسعنا ولم يعتمد إلى تصنيفها في أبواب كلية على نحو ما فعلنا. ينظر: حسان، الدكتور تمام، اللغة العربية: معناها ومبناها، ص190.

³¹ لم نجد في كتب النحاة إشارة إلى هذه الخاصية وإن كنا نجد لديهم حديثاً مطوَّلاً عن كسرها من خلال الفصل بين المتلازمات.

• العلاقات المعنوية: وتشمل: الإسناد، التخصيص، الإلحاق، التبعية، إضافة إلى العلاقات التي تكون بين الجملة التي لا تقع موقع المفرد وما قبلها.

• العلاقات اللفظية: وتشمل: التلازم، الربط، المطابقة، العمل.

تلك هي ملاحظتنا في شأن دراسة أبواب المفردات والجمل وخصائصها، أما دراسة التغيرات التي تطرأ على تلك الأمور فأهم ما يمكن ملاحظته في شأنها هو أنها لم تستطع أن تتوصل إلى خطة شاملة تدرس من خلالها تلك التغيرات، فتحدد أنواع تلك التغيرات على مستوى الأبواب وأنواعها على مستوى الخصائص.

نحو آلية واضحة لضبط التغيرات:

- على مستوى الأبواب: تجري التغيرات في هذا المستوى من خلال آلية الاستبدال

كاستبدال باب التمييز بباب الفاعل في قوله تعالى: ﴿واشتعل الرأس شيبًا﴾ [مريم: الآية 4]، إذ الأصل في التركيب: واشتعل شيبُ الرأس³².

- على مستوى الخصائص: تجري التغيرات في هذا المستوى من خلال ثلاث آليات

تختلف باختلاف الخصائص، وهذه الآليات هي الحذف، من مثل حذف الكلمة في قولنا في جواب السائل: ما هذا؟، إذ نقول: قلم، فنحذف اسم الإشارة، والاستبدال، من مثل استبدال الفتحة بالكسرة في الاسم الممنوع من الصرف في موقع الجر، كقولنا: من مفاتيح، والإلغاء³³، من مثل إلغاء المطابقة بين الصفة والموصوف في مقولة العدد في مثل قولنا: سنابل صفراء.

5-2-4- موضوعاته: يدرس إعراب المفردات، وإعراب الجمل³⁴.

6-2-4- مفردات تلك الموضوعات:

1-6-2-4- مفردات إعراب المفردات: وهي تضم مفردات إعراب الأفعال، ومفردات إعراب

أسماء الأفعال، ومفردات إعراب الأسماء، ومفردات إعراب الحروف.

1-1-6-2-4- مفردات إعراب الأفعال: وتضم:

³² النجار، عصام أحمد بدر، النحو الميسر وشواهد القرآنية بين النظرية والتطبيق، دار التقوى للطبع

والنشر والتوزيع، القاهرة، 1436هـ-2015م، ج2، ص49.

³³ يتصل الإلغاء لدينا بالمعنويات، أما الحذف فهو يتصل بالجوانب المادية.

³⁴ يتصل الأول بدراسة الكلمة العربية في حال تركيبها، في حين يتصل الثاني بدراسة الجملة في حال أفرادها وتركيبها.

أ- الفعل الماضي: من مثل: كتب ، جلس.

ب- الفعل المضارع: من مثل: يكتب، يجلس.

ج- فعل الأمر: من مثل: اكتب، اجلس.

وقد ميّز النحاة بين أشكال مختلفة من الفعل المضارع بالنظر إلى حالي البناء والإعراب، ثم بالنظر إلى الأحوال المختلفة للإعراب، فتحدثوا عن الفعل المضارع المبني المتصل بنون النسوة، من مثل (يكتبُنْ) والمتصل بإحدى نوني التوكيد الخفيفة والثقيلة، من مثل (يكتبُبنْ)، كما تحدثوا عن المضارع المرفوع، من مثل (يكتبُ) والمضارع المنصوب، من مثل (لن يكتبَ) والمضارع المجزوم، من مثل (لم يكتبَ)، لكن ذلك كله لم يخرجنا عن دائرة الباب الواحد، وهي دائرة باب الفعل المضارع.

2-4-6-1-2- مفردات إعراب أسماء الأفعال: وتضم:

أ- اسم الفعل الماضي: من مثل (هيمات، شتان، ...).

ب- اسم الفعل المضارع: من مثل (آه، وي، ...).

ج- اسم فعل الأمر: من مثل (دونك، عليك، إيه، صه، مه ...).

2-4-6-1-3- مفردات إعراب الأسماء: وهي تضم مفردات إعراب المرفوعات، ومفردات

إعراب المنصوبات، ومفردات إعراب المجرورات، ومفردات إعراب التوابع.

أ- المرفوعات: وتشمل:

- المبتدأ: من مثل كلمة (الله) في قولك: الله أكبر.

- اسم الفعل الناقص: من مثل كلمة (محمد) في قولك: كان محمد واقفًا.

- اسم الحروف العاملة عمل (ليس): من مثل كلمة (زيد) في قولك: ما زيد طالبًا.

- خبر المبتدأ: من مثل كلمة (أكبر) في قولك: الله أكبر.

- خبر الحرف المشبّه بالفعل: من مثل كلمة (منتصر) في قولك: إنَّ الحقَّ منتصرٌ.

- خبر (لا) النافية للجنس: من مثل كلمة (مقصّر) في قولك: لا طالب حق مقصّر.

- الفاعل: من مثل كلمة (الحق) في قولك: جاء الحق.

- نائب الفاعل: من مثل كلمة (الدرس) في قولك: كُتِبَ الدرسُ.

ب- المنصوبات: وتشمل:

- اسم الحرف المشبّه بالفعل: من مثل كلمة (الحق) في قولك: إنَّ الحقَّ منتصرٌ.

- اسم (لا) النافية للجنس: من مثل كلمة (طالب) في قولك: لا طالب حق مقصّر.
- خبر الفعل الناقص: من مثل كلمة (واقفًا) في قولك: كان محمد واقفًا.
- خبر الحروف العاملة عمل (ليس): من مثل كلمة (طالبًا) في قولك: ما زيد طالبًا.
- المفاعيل الخمسة: من مثل كلمة (التفاحة) في قولك: أكل زيد التفاحة، وكلمة (اليوم) في قولك: جاء محمد اليوم، وكلمة (ركضًا) في قولك: ركض محمد ركضًا، وكلمة (طلبًا) في قولك: جاء محمد طلبًا للعلم، وكلمة (البحر) في قولك: سار محمد والبحر.

- الحال: من مثل (راكضًا) في قولك: جاء محمد راكضًا.
 - التمييز: من مثل (حليبًا) في قولك: اشتريت لترًا حليبًا.
 - المنادى: من مثل كلمة (طالب) في قولك: يا طالب العلم.
 - المستثنى: من مثل كلمة (زيدًا) في قولك: جاء الطلاب إلا زيدًا.
- ج- المجرورات: وتشمل

- المضاف إليه: من مثل كلمة (النحو) في قولك: كتاب النحو.
 - الاسم المجرور: من مثل كلمة (الجامعة) في قولك: ذهب زيد إلى الجامعة.
- د- التوابع: وتشمل:

- الصفة: من مثل كلمة (المجدد) في قولك: جاء الطالب المجدد.
 - العطف: من مثل كلمة (زيد) في قولك: جاء محمد وزيد.
 - البدل: من مثل كلمة (عمر) في قولك: قال الخليفة عمر.
 - التوكيد: من مثل كلمة (نفسه) في قولك: رأيت الرجل نفسه.
- 4-2-6-4-1 مفردات إعراب الحروف: وهي تضم مفردات إعراب الحروف العاملة ومفردات إعراب الحروف المهملة³⁵.

- أ- الحروف العاملة: وتضم الحروف العاملة في الأسماء، وهي على أنواع:
- الحروف التي تعمل الجر: وتضم حروف الجر المعروفة في العربية.

³⁵ الحرف العامل هو الحرف المختص بتأثير كحرف الجر وحرف الجزم والمهمل هو الذي لا تأثير له كحرف الاستفهام وحرف العطف. ينظر: المرادي، الحسن بن قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م، ص20.

- الحروف التي تعمل النصب: من مثل حرف الاستثناء وحروف النداء³⁶
- الحروف التي تعمل الرفع والنصب: وهي على نوعين: رافعة ناصبة، وتلك الحروف العاملة عمل (ليس)، ناصبة رافعة، وتلك هي الحروف المشبهة بالفعل و (لا) النافية للجنس.

والحروف العاملة في الأفعال، وهي أيضًا على أنواع:

- الحروف التي تعمل النصب: وهي الحروف التي تنصب الفعل المضارع.
- الحروف التي تعمل الجزم: وهي الحروف التي تجزم الفعل المضارع.
ب- الحروف المهملة: وهي تضم الحروف التي تدخل على الأفعال، من مثل السين وسوف وقد، والحروف التي تدخل على الأسماء، من مثل حروف النداء ، والحروف التي تدخل عليهما معًا، من مثل الهمزة وهل في الاستفهام والواو والفاء وأو، وثم في العطف .

وهناك من يرى تقسيم هذا النمط الأخير (الحروف المهملة) بعد ذلك وفق معيار عدد الحروف، فيجعلها أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية.

2-4-2-2- مفردات إعراب الجمل: وتضم مفردات الجمل التي لها محل من الإعراب، ومفردات التي ليس لها محل من الإعراب.

2-4-2-6-1- مفردات إعراب الجمل التي لها محل من الإعراب:

- جملة المبتدأ: من مثل جملة (تسمع بالمعيدي) في قولهم: "تسمع بالمعيدي خير من أن تراه"³⁷.

- جملة الخبر: من مثل جملة (ينفع الناس) في قولك: العلم ينفع الناس.

- جملة الفاعل: من مثل جملة (قام زيد) في قول القائل: يعجبني قام زيد .

- جملة نائب الفاعل: من مثل جملة (لا تفسدوا في الأرض) من قوله تعالى: ﴿

وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض، قالوا: إنما نحن مصلحون﴾ [البقرة: الآية 11].

³⁶ وذلك عند من يعمل هذه الحروف، أما من يهملها فإنه لا يرى العمل بها. ينظر تفصيل هذه المسألة في شأن حرف الاستثناء وحروف النداء: النادري، محمد أسعد، نحو اللغة العربية، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط2، 1418هـ-1997م، ص 677 و724.

³⁷ الميداني، مجمع الأمثال، القاهرة، 1955م، ج1، 129.

- جملة المفعول به: من مثل جملة (شرهم الفقير) في قول الشاعر: رأيت
الناس شرهم الفقير³⁸.

- جملة الحال: من مثل جملة (يضحك) في قولك: جاء محمد يضحك.

- الجملة المستثنى: من مثل جملة (من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر)
في قوله تعالى: ﴿ فذكّر، إنما أنت مذكر ﴾ لست عليهم بمسيطر ﴿ إلا من تولى
وكفر ﴾ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴿ [الغاشية: الآيات 21-22-23-24].

- جملة المضاف إليه: من مثل جملة (ينتصر الحق) في قولك: سنفرح يوم
ينتصر الحق.

- جملة جواب الشرط الجازم المتصلة بالفاء: من مثل جملة (سوف ينجح) في
قولك: من يدرس فسوف ينجح.

- جملة الصفة: من مثل جملة (يزرع القمح) في قولك: مررت برجل يزرع القمح.

- جملة البدل: وهذه قد تكون مبدلة من اسم مفرد، من مثل جملة (إن ربك لذو
مغفرة وذو عقاب أليم) في قوله تعالى: ﴿ وما يُقال لك إلا ما قد قيل للرسول من قبلك ، إنَّ
ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ [فصلت: الآية 43]، وقد تكون مبدلة من جملة لها
محل من الإعراب، من مثل جملة (تلمم بنا في دارنا) في قول الشاعر³⁹:

متى تأتينا تلمم بنا في دارنا تجد حطباً جزلاً وناراً تأججاً

- الجملة المعطوفة: وهذه قد تكون معطوفة على اسم مفرد، من مثل (يقبضن)
في قوله تعالى: ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ﴾ [الملك: الآية 19]، وقد
تكون معطوفة على جملة لها محل من الإعراب، من مثل جملة (يبكي) في قولك: جاء
محمد يضحك ويبكي.

2-2-6-2-4- مفردات إعراب الجمل التي ليس لها محل من الإعراب:

- الجملة الابتدائية: من مثل جملة (العلم نور) في قولهم: العلم نور والجهل ظلام.

³⁸ صدره: دعيني للغى أسمى فإني... وهو للشاعر عروة بن الورد. ينظر: عروة بن الورد، ديوان عروة بن
الورد، دراسة وشرح وتحقيق أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ-1998 م، ص 79.

³⁹ سيبويه، الكتاب، القاهرة، 1317 هـ، ج 1، ص 446. والزمخشري، الكشاف، القاهرة، 1354 هـ، ج 3،

- الجملة الاستئنافية: من مثل جملة (رحمه الله) في قولهم: مات فلان، رحمه الله.
- الجملة الاعتراضية: من مثل جملة (حفظكم الله) في قولك: هذا- حفظكم الله-
كتاب.

- الجملة التفسيرية: من مثل جملة (تعال) في قولك: كتبت إليه أن تعال.
- جملة صلة الموصول: من مثل جملة (أنعمت عليهم) في قوله تعالى: ﴿صراط الذين
أنعمت عليهم﴾ [الآية 7 من سورة الفاتحة].

- جملة جواب الشرط الجازم غير المتصلة بالفاء: من مثل جملة (مات) في قول
قس بن ساعدة: "من مات فات" ⁴⁰.

- جملة جواب الشرط غير الجازم: من مثل جملة (انصب) في قوله تعالى: ﴿فإذا
فرغت فانصب﴾ [الشرح: الآية 7].

- جملة الشرط غير الظرفي: من مثل جملة (جد) في قولهم: من مات فات.
- جملة جواب القسم: من مثل جملة (إن الحق غالب) في قولك: والله إن الحق
غالب.

- الجملة المعطوفة على جملة ليس لها محل من الإعراب: من مثل جملة (الجهل
ظلام) في قولهم: العلم نور والجهل ظلام.

- الجملة المبدلة من جملة ليس لها محل من الإعراب: من مثل جملة (يُضَاعَفُ له
العذاب) في قوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاماً﴾ ⁴¹ يُضَاعَفُ له العذاب يوم
القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾ [الفرقان: الآيتان 68-69].

● نظرة نقدية:

يلاحظ مما تقدم أن النحاة لم يلتزموا بمعيار محدد في تصنيف الأبواب، بل كانوا
ينطلقون في ذلك من معايير مختلفة وإن كان معيار المعنى الوظيفي هو الغالب، كما
يلاحظ أنهم قد أعلوا من شأن معيار العمل في توزيعها على مجموعات بعد ذلك، فهم بعد
أن قاموا بتصنيف أبواب الأسماء مثلاً إلى مبتدأ وخبر وفاعل ونائب فاعل ومفعول به

⁴⁰ هذه الجملة من خطبة قس بن ساعدة المشهورة في سوق عكاظ. ينظر: صفوت، أحمد زكي، جمهرة خطب
العرب في العصور العربية الزاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1352هـ-1933م،
ص35.

ومفعول فيه ومفعول مطلق ومفعول لأجله ومفعول معه... إلخ قاموا بتوزيعها على أساس العمل إلى مرفوعات ومنصوبات ومجرورات، وبعد أن قاموا بتصنيف أبواب الجمل إلى خبرية وحالية ومفعولية وإضافية وابتدائية واستئنافية واعتراضية وتفسيرية... إلخ قاموا بتوزيعها إلى جمل لها محل من الإعراب وجمل ليس لها محل من الإعراب، ثم قاموا بتوزيع التي لها محل إلى جمل في محل رفع وجمل في محل نصب وجمل في محل جر وجمل في محل جزم.

وما نراه أولى في هذا المقام هو أن يتم التصنيف وفق معيار المعنى الوظيفي فقط، ثم أن يتم توزيع تلك الأبواب وفق معيار يتصل بوظائف المعاني الوظيفية لتلك الأبواب في التركيب، وذلك على النحو التالي:

1- مفردات إعراب المفردات: وتشمل:

أ- مفردات إعراب الأفعال: لقد صنف النحاة الأفعال وفق ثلاثة معايير مختلفة، هي: الزمن (الماضي) والبنية (المضارع)⁴¹ والمعنى الوظيفي (الأمر)، وهو تصنيف، كما نرى، غير متسق، ولذا نرى أن نستبدل به التصنيف التالي:

- فعل إخبار: وهو يقسم من جهة التمام والنقص إلى تام وناقص، ومن جهة الزمن إلى ماض وحال.

- فعل أمر.

هذا من حيث التصنيف، أما من حيث التوزيع، فهي جميعاً تدخل في باب العمدات التي بها قوام التركيب الإسنادي في لغة العرب، ولا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً.

ب- مفردات إعراب أسماء الأفعال: وهذه تبع لما قبلها على مستويي التصنيف والتوزيع، فهي على مستوى التوزيع تنقسم إلى:

- اسم فعل إخبار: وهو ينقسم من جهة الزمن إلى ماض وحال.

- اسم فعل أمر.

أما على مستوى التوزيع فهي تدخل في باب العمدات كذلك.

⁴¹ وذلك من منطلق تسميتهم الفعل المضارع بهذا الاسم لمضارعه اسم الفاعل في حركته وسكونه. ينظر: ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، تحقيق ودراسة جودة مبروك محمد مبروك، مراجعة رمضان عبدالنواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، ص435.

ج- مفردات إعراب الأسماء: ويتمثل تصنيفها وتوزيعها لدينا بالتالي:

1- العمدات: وهي، كما قلنا، تمثل أساس التركيب الإسنادي، وتشمل:

- المخبر عنه⁴²: من مثل كلمة (زيد) في قولك: زيد طالب.

- الخبر: من مثل كلمة (طالب) في قولك: زيد طالب.

- الفاعل: من مثل كلمة (زيد) في قولك: جاء زيد.

ملاحظة: قد يسأل سائل ههنا: وماذا نقول في شأن ما تدخل عليه الأفعال الناقصة وحروف النفي التي تعمل عمل ليس، وما تدخل عليه الأحرف المشبهة بالفعل ولا النافية للجنس؟، وماذا نقول في شأن نائب الفاعل؟، فأقول: أما تلك التي تدخل عليها الأفعال الناقصة وحروف النفي التي تعمل عمل ليس، وما تدخل عليه الأحرف المشبهة بالفعل ولا النافية للجنس فهي ماتزال في حكم المخبر عنه والخبر، إذ إن ما جد فيها هو تغيير الخصائص فقط، وأما نائب الفاعل فإنه مازال في حكم ما نقل عنه (المفعول به، الجار والمجرور، والظرف، والمفعول المطلق)، إذ إن الإسناد في الحقيقة لا يقوم به، بل بالفاعل المجهول، ووجود الضمة في آخره لا يعدو حدود الإشارة إلى الفاعل المجهول المحذوف، إذ هي من بقاياها الدالة عليه.

2- الفضلات: وهي تتصل غالبًا بعلاقة الإسناد الناتجة عن تلازم العمدات، ولذلك

فهي أقل أهمية من العناصر السابقة⁴³، وتشمل:

- المفعول به: من مثل كلمة (التفاحة) في قولك: أكل زيد التفاحة.

- المفعول فيه: من مثل كلمة (اليوم) في قولك: جاء محمد اليوم.

- المفعول المطلق: من مثل كلمة (ركضًا) في قولك: ركض محمد ركضًا.

- المفعول لأجله: من مثل كلمة (طلبًا) في قولك: جاء محمد طلبًا للعلم.

- المفعول معه: من مثل كلمة (البحر) في قولك: سار محمد والبحر.

⁴² عدلنا عن مصطلح المبتدأ إلى مصطلح المخبر عنه ههنا تمشيًا مع ميلنا إلى إجراء التصنيف وفق معيار المعنى الوظيفي.

⁴³ وهي قد يتوقف فهم مقصود المتكلم عليها، فلا يستغنى عنها، وقد تكون لتوكيد أو وصف أو غير ذلك مما هو زائد على المعنى، فيمكن الاستغناء عنها إن أراد المتكلم ذلك. ينظر: البيطار، عاصم، النحو والصرف، طبعة كلية الآداب بجامعة دمشق، دمشق، 1981م، ص8.

- الحال: من مثل كلمة (راكضًا) في قولك: جاء محمد راکضًا.
 - التمييز: من مثل كلمة (حليبًا) في قولك: اشتريت لترًا حليبيًا.
 - المنادى: من مثل كلمة (طالب) في قولك: يا طالب العلم.
 - المستثنى: من مثل كلمة (زيدًا) في قولك: جاء الطلاب إلا زيدًا.
 - المضاف إليه: من مثل كلمة (المدرسة) في قولك: ذهب زيد إلى المدرسة.
- ملاحظة: قد تثير النقطة الأخيرة استغرابًا كبيرًا، إذ كيف ننسب مصطلح (المضاف إليه) إلى الاسم الواقع بعد (إلى)، وهو كما نعلم حرف جر، ثم كيف لا نذكر مثالاً لما اشتهر عند النحاة أنه مضاف إليه، وفي الرد نقول: إن رغبتنا في بناء التصنيف على أساس المعنى الوظيفي جعلتنا نميل إلى اصطلاح بعض النحاة الذي ينص على تسمية ما يعرف بحروف الجر: حروف الإضافة⁴⁴، ومن ثم تسمية ما تدخل عليه مضافًا إليه، وهذا في زعمنا هو الصواب، إذ إن هذه الحروف تقوم بإضافة معنى ما قبلها إلى ما بعدها.
- هذا ردنا في شأن النقطة الأولى، أما النقطة الثانية فإن عدم ذكرنا لمثال لا يعني أننا ننكر أن يكون ما اصطلاح على تسميته مضافًا إليه، مضافًا إليه، بل هو عندنا كذلك، لكننا نراه مما وقع التغيير في خصائصه، وذلك من خلال حذف حرف الإضافة، وهو أمر يتوافق مع ما نص عليه النحاة، إذ يشيرون إلى وجود حرف محذوف بين المضاف والمضاف إليه، من مثل: اللام ومن وفي⁴⁵.
- 3- التوابع: وهذه قد تكون تابعة لعمدة أو لفضلة⁴⁶، وهي عندما تكون تابعة لعمدة فإنها تتصل بذلك العمدة خاصة لا بعلاقة الإسناد، وهذا يفرق بينها وبين الفضلة الذي يتصل بعلاقة الإسناد لا بأنفس العمدات، وتشمل:

- الصفة: من مثل كلمة (المجدد) في قولك: جاء الطالب المجدد.
- المعطوف: من مثل كلمة (زيد) في قولك: جاء محمد وزيد.
- البديل: من مثل كلمة (عمر) في قولك: قال الخليفة عمر.
- التوكيد: من مثل كلمة (نفسه) في قولك: رأيت الرجل نفسه.

⁴⁴ الغلابي، الشيخ مصطفى، جامع الدروس العربية، ج3، ص168.

⁴⁵ نفسه، ص205.

⁴⁶ هذا القيد يجعلنا نعرض عن جعلها من الفضلات على نحو ما فعل أهل النحو.

د- مفردات إعراب الحروف: ويتمثل تصنيفها وتوزيعها لدينا بالتالي:

1- المحوِّلات: وهذه تسهم في تحويل المعنى الوظيفي لما تدخل عليه، وهي

نوعان:

- محوِّلات كلمة: وأهمها: التنوين و(لام) التعريف و(ها) التنبيه قبل

اسم الإشارة و(لام) البعد بعد اسم الإشارة و(تاء) التأنيث الساكنة.

- محوِّلات جملة: وهذه نوعان أيضاً:

• كُليَّة: وتتميز هذه بأن أثرها يظهر على مستوى الجملة كاملة، إذ إنها تحدد

الأسلوب الكلامي الذي تنتهي إليه، وتشمل:

- أحرف النفي: من مثل (لم، لمَّا، لن، ما، إن، لا، لات).

- أحرف الشرط: من مثل (إن، إذْما، لو، لولا، لوما، أمَّا، لمَّا).

- أحرف التحضيض والتنديم: من مثل (هَلَّا، ألَّا، لوما، لولا، ألَّا).

- أحرف العرض: من مثل (ألَّا، أمَّا، لو).

- أحرف التنبيه: من مثل (ألَّا، أمَّا، ها، يا).

- أحرف التوكيد: من مثل (إنَّ، لام الابتداء، نونا التوكيد، قد، أحرف الزيادة).

- أحرف التمني: من مثل (ليت، لو، هل).

- أحرف النداء والاستغاثة والندبة: من مثل (الهمزة، يا، أيا، هيا، وا).

- حرفي الاستفهام: من مثل (الهمزة، هل).

- حرف الترحي والإشفاق: من مثل (لعل).

- حرف الأمر: من مثل (اللام).

- حرف النهي: من مثل (لا).

• جُزئيَّة: وهذه تؤثر في الجملة موضعياً، وتشمل:

- حرفي الاستقبال: من مثل (السين، سوف).

2- الروابط: وهذه نوعان:

• روابط داخلية: وهذه تؤدي وظيفة الربط بين عناصر الجملة، وتشمل:

- أحرف السبك: من مثل (أن، أنّ، كي، ما، لو، همزة التسوية).

- حرف التعليل: من مثل (كي).

- أحرف الإضافة: من مثل (من، إلى، عن، على، في، الباء، الكاف، اللام، ... إلخ).
- أحرف العطف: من مثل (الواو، الفاء، أو، ثم، بل، لكن، لا، أم، حتى).
- حرفي التشبيه: من مثل (الكاف، كأن).
- روابط خارجية: وهذه يمتد تأثيرها إلى خارج الجملة، فتربط بين جملتين أو أكثر، وتشمل:

- حرفي التفسير: من مثل (أي، أن).
- اللام الرابطة لجوابي الشرط والقسم.
- الفاء الرابطة لجواب الشرط.
- اللام الموطئة للقسم.
- أحرف العطف: من مثل (الواو، الفاء، أو، ثم).
- أحرف الاستئناف: من مثل (الواو، الفاء، أو، ثم، بل، لكن، لا، أم، حتى).
- حرفي الاستطراد (الاعتراض): من مثل (الواو، الفاء).
- حرفي الاستدراك: من مثل (لكن، لكن).
- 3- المعوّضات: وهذه تأتي عوضاً مما قبلها⁴⁷، وتشمل:
 - حروف الجواب: من مثل (نعم، بلى، إي، أجل، جبر، إن، لا، كلاً).
 - حرف الجزاء: من مثل (إذن).
- 4- المتّمات: وهذه تدل على تمام معنى الجملة، وتشمل:
 - هاء السكت.
 - ألف الإطلاق.
- 2- مفردات إعراب الجمل: وتشمل:
 - أ- مفردات إعراب الجمل التي تقع موقع المفرد: ويتمثل تصنيفها وتوزيعها لدينا بالتالي:
 - مفردات إعراب الجمل التي تقع موقع الفعل: وتشمل:

⁴⁷ فقولنا: نعم في الرد على سؤال من قال: هل جاء زيد؟، يعني عن إعادة ذكر الجملة.

- جملة جواب الشرط الواقعة موقع الفعل المضارع: من مثل جملة (سوف ينجح) في قولك: من يدرس فسوف ينجح.

• مفردات إعراب الجمل التي تقع موقع الاسم: وتشمل:

1- العمدات: وتشمل:

- جملة المخبر عنه: من مثل جملة (تسمع بالمعيدي) في قولهم: "تسمع بالمعيدي خير من أن تراه"⁴⁸.

- جملة الخبر: من مثل جملة (ينفع الناس) في قولك: العلم ينفع الناس.

- جملة الفاعل: من مثل جملة (قام زيد) في قول القائل: يعجبني قام زيد .

2- الفضلات: وتشمل:

- جملة المفعول به: من مثل جملة (شرهم الفقير) في قول الشاعر: رأيت الناس شرهم الفقير⁴⁹.

- جملة الحال: من مثل جملة (يضحك) في قولك: جاء محمد يضحك.

- الجملة المستثنى: من مثل جملة (من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر)

في قوله تعالى: ﴿ فذكّر، إنما أنت مذكر ﴾ لست عليهم بمسيطر ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴿ [الغاشية: الآيات 21-22-23-24].

- جملة المضاف إليه: من مثل جملة (ينتصر الحق) في قولك: سنفرح يوم ينتصر الحق.

3- التوابع: وتشمل:

- جملة الصفة: من مثل جملة (يزرع القمح) في قولك: مررت برجل يزرع القمح.

- جملة البدل: وهذه قد تكون مبدلة من اسم مفرد، من مثل جملة (إن ربك

لدو مغفرة وذو عقاب أليم) في قوله تعالى: ﴿ وما يُقال لك إلا ما قد قيل للرسول من

⁴⁸ ورد ذكره سابقًا.

⁴⁹ ورد ذكره سابقًا.

قبلك ، إِنَّ رِبْكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿ [فصلت: الآية 43] ، وقد تكون مبدلة من جملة لها محل من الإعراب، من مثل جملة (تلممُ بنا في دارنا) في قول الشاعر⁵⁰:

متى تأتينا تلممُ بنا في دارنا تجدُ حطباً جزلاً و ناراً تأججاً

- الجملة المعطوفة: وهذه قد تكون معطوفة على اسم مفرد، من مثل (يقبضن) في قوله تعالى: ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ﴾ [الملك: الآية 19] ، وقد تكون معطوفة على جملة لها محل من الإعراب، من مثل جملة (يبكي) في قولك: جاء محمد يضحك ويبكي.

ب- مفردات إعراب الجمل التي لا تقع موقع المفرد: وتشمل :

1- الجمل المؤسّسة: وتشمل:

- الجملة الابتدائية: من مثل جملة (العلم نور) في قولهم: العلم نور والجهل ظلام.

- الجملة الانتقالية (الاستئنافية بغير حرف): من مثل جملة (إن شانئك هو الأبر) في قوله تعالى: ﴿ إن شانئك هو الأبر ﴾ [الكوثر: الآية 3].

2- الجمل الرّادفة: وتشمل:

- الجملة الاستئنافية (التي تأتي مقترنة بحرف): من مثل جملة (صلِّ لربك) في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فصلِّ لربك وانحر ﴾ [الكوثر: الآية 2].

- الجملة الاستطرادية (الاعتراضية): من مثل جملة (حفظكم الله) في قولك: هذا- حفظكم الله- كتاب.

- الجملة التفسيرية: من مثل جملة (تعال) في قولك: كتبت إليه أن تعال.

3- الجمل القيود: وتشمل:

- جملة صلة الموصول: من مثل جملة (أنعمت عليهم) في قوله تعالى: ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ [الفاتحة: الآية 7] .

- جملة الشرط غير الظرفي: من مثل جملة (مات) في قولهم: " من مات فات

51،،

⁵⁰ ورد ذكره سابقاً.

⁵¹ ورد ذكره سابقاً.

4- الجمل الجوابية: وتشمل:

- جملة جواب الشرط غير الواقعة موقع الفعل المضارع: من مثل جملة (ينجح) في قولك: من يدرس ينجح، وجملة (انصب) في قوله تعالى: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ [الشرح: الآية 7].

- جملة جواب القسم: من مثل جملة (إن الحق غالب) في قولك: والله إن الحق غالب.

5- الجمل التابعة: وتشمل:

- الجملة المعطوفة على جملة لا تقع في موقع المفرد: من مثل جملة (الجهل ظلام) في قولهم: العلم نور والجهل ظلام.

- الجملة المبدلة من جملة لا تقع في موقع المفرد: من مثل جملة (يضعف له العذاب) في قوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثماً﴾ يضعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾ [الفرقان: الآيتان 68-69].

5- خاتمة البحث:

لقد حاول هذا البحث أن يقدم دراسة للنحو العربي عامة، تناولت جوانبه المختلفة على مستويات الوصف والنقد والتوجيه، وقد ارتأى أن يكون ذلك من خلال الوقوف عند ثلاث نقاط أساسية: الأولى هي بيان مفهوم هذا النحو، والثانية هي بيان أقسامه، والثالثة هي بيان القضايا التي اشتملت عليها تلك الأقسام.

تناول البحث النقطة الأولى من خلال الوقوف عند التعريف الذي ينسب إلى المتقدمين والذي ينص على تحديد النحو بأنه العلم الذي تعرف به أحوال الكلمات العربية مفردة ومركبة، ثم تبين له أن هذا التعريف ليس تاماً؛ لأنه يستثني من حده جانباً من النحو العربي مهماً، وهو الجانب المعروف باسم إعراب الجمل؛ ولذلك اقترح تعديله حتى يصبح شاملاً لذلك الجانب، فقال في تعريف النحو بعد ذلك: هو العلم الذي تعرف به أحوال الكلمات العربية مفردة ومركبة والجملة العربية مفردة ومركبة.

كما تناول في هذا المقام ما قيل في توضيح مقصودهم بالأحوال، فانتهى بعد مناقشته إلى أنه في حاجة أيضاً إلى تعديل، فكان ذلك، وتم التعديل على النحو التالي: يراد بأحوال الكلمة مفردة بنية الكلمة وما يطرأ على تلك البنية من تغيرات، في حين يراد بأحوال الكلمة

مركبة الأبواب النحوية التي تشغلها في الجملة وخصائص تلك الأبواب، ومنها البناء والإعراب، وما يطرأ على تلك الأبواب والخصائص من تغيرات في تصريفات الكلام المختلفة.

ثم دعا في هذا السياق إلى تفصيل القول في أحوال الجملة، فأشار إلى أن تلك الأحوال لا تقتصر على قضية المحل وعدم المحل، كما يبدو ذلك في مبحث إعراب الجمل، بل تمتد لتتطابق مع أحوال الكلمة المركبة، وهي الأبواب، والخصائص، وما يطرأ على ذلك كله من تغيرات.

في حين تناول النقطة الثانية من خلال تحليل فحوى تعريف النحو وكذلك من خلال النظر في موضوعات النحو، فبين أنه ينقسم لديهم قسمين: الأول يعنى بدراسة أحوال الكلمة مفردة، والثاني يعنى بدراسة أحوال الكلمة مركبة والجملة مفردة ومركبة، ثم بين من خلال الوقوف عند إشارات بعض العلماء التي وردت في سياق حديثهم عن علوم اللغة العربية أنهم كانوا يطلقون على القسم الأول علم الصرف، وعلى الثاني علم الإعراب، فأقر ذلك، وتابع ما أشار إليه العلماء في هذا الجانب.

أما النقطة الثالثة، وهي النقطة المتعلقة بالقضايا، فقد تناولها على مستويي علم الصرف وعلم الإعراب ووفق آلية واحدة اشتملت على ست نقاط في كل منهما، هي مفهوم كل قسم وحدوده وهدفه ومنهجه وموضوعاته ومفردات تلك الموضوعات، وقد انتهى في شأن المستوى الأول (علم الصرف) إلى جملة أحكام، بعضها يعد امتداداً لما انتهى إليه الصرفيون، ومن ذلك ما أثبتته على مستوى المفهوم، إذ أشار إلى أنه يُعنى بدراسة أحوال الكلمة العربية في حال أفرادها، وعلى مستوى الحدود، إذ أشار إلى أنه يُعنى بدراسة الفعل المتصرف والاسم المتمكن،

في حين كان له في بعضها الآخر إضافات كلية أو جزئية، ومن ذلك ما أثبتته على مستوى الهدف، إذ أشار إلى أنه يُعنى بدراسة بنية الكلمة وما يطرأ عليها من تغيرات، وعلى مستوى المنهج؛ إذ أشار إلى أنه يُعنى بدراسة البنية من حيث الوزن الصرفي والحال التي تكون عليها حروف الكلمة من حيث العدد ومن حيث الصحة والعلة والأصالة والزيادة، ويُعنى بدراسة التغيرات من حيث كونها ناتجة عن سبب لفظي أو سبب معنوي، وعلى مستوى الموضوعات، إذ أشار إلى أنه يتناول موضوعين، هما تصريف الأفعال وتصريف الأسماء،

وعلى مستوى مفردات الموضوعات؛ إذ دعا إلى توزيع تلك المفردات وفق ما تم اقتراحه على مستويات الموضوعات والهدف والمنهج، وذلك من خلال إدراجها تحت موضوعي تصريف الأفعال وتصريف الأسماء، ثم تناولها في كل منهما من زاويتي البنية والتغيرات، ثم تناولها في كل من هاتين الزاويتين من خلال ما تنطوي عليه كل منهما من عناصر، ونعني بذلك الميزان الصرفي وطبيعة الحروف على مستوى الأولى، والتغيرات اللفظية والتغيرات المعنوية على مستوى الثانية.

أما المستوى الثاني (علم الإعراب)، فقد كانت نسبة الإضافة في الأحكام التي توصل إليها في شأنه أكبر، ومن ذلك ما نراه على مستوى المفهوم، إذ نجده في هذا المقام يتجاوز المفهوم القديم الذي يربط الأمر بأحوال الكلمة في حال تركيبها إلى مفهوم جديد يربط الأمر بأحوال الكلمة في حال تركيبها والجملة في حال أفرادها وتركيبها، وعلى مستوى الحدود، إذ نجده يجعل حدود هذا العلم هي الكلمة العربية عامة والجملة العربية عامة، وعلى مستوى الهدف، إذ نجده يحدد هدف هذا العلم بدراسة أحوال الكلمة المركبة ممثلة بالأبواب والخصائص وما يطرأ عليها من تغيرات، وأحوال الجملة المفردة والمركبة ممثلة بالأبواب والخصائص وما يطرأ عليها من تغيرات، وعلى مستوى المنهج، إذ نجده يبين منهج العلماء في دراسة تلك الأحوال، بل إنه يتجاوز ذلك إلى حد انتقاد ذلك المنهج، بل إلى إعادة رسمه من خلال خطة جديدة يتم فيها تلافي ما أشار إليه من جوانب النقص في أثناء عملية النقد، وكل ذلك مبين في ثنايا البحث.

وهو يتابع أحكامه بعد ذلك حتى يصل إلى مستوى الموضوعات، إذ نجده يحدد موضوعات هذا العلم بنقطتين: الأولى هي إعراب المفردات، والثانية هي إعراب الجمل إلى أن ينتهي إلى المستوى الأخير وهو مستوى مفردات تلك الموضوعات، فيستعرض أولاً مفردات إعراب المفردات، ثم ينتهي بذكر مفردات إعراب الجمل، وكل ذلك وفق رؤية ما هو قائم، ثم يسלט على ذلك رؤيته النقدية لينتهي بعد ذلك إلى إعادة رسم الصورة من خلال تلافي النقاط التي أشار إليها في أثناء عملية النقد.

والله المستعان

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- 1- ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، تحقيق ودراسة جودة مبروك محمد مبروك، مراجعة رمضان عبدالنواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1.
- 2- ابن الناظم، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1420هـ- 2000م.
- 3- ابن جني، المنصف في شرح كتاب التصريف للمازني، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين، القاهرة، 1954م.
- 4- ابن عقيل، شرح ابن عقيل ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة- مصر، 1400هـ- 1980م، ط20، ج1.
- 5- ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت- لبنان، 1411هـ- 1991م، ج2.
- 6- أبو علي الفارسي، الإيضاح العضدي، تحقيق حسن شاذلي فرهود، ط1، 1389هـ- 1969م.
- 7- البيطار، عاصم، النحو والصرف، طبعة كلية الآداب بجامعة دمشق، دمشق، 1981م.
- 8- حسان، الدكتور تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة- المغرب، الدار البيضاء، 1994م.
- 9- الحملاوي، الشيخ أحمد، شذا العرف في فن الصرف، قدم له وعلق عليه محمد بن عبد المعطي وخرج شواهد ووضع فهارسه أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري، دار الكيان للطباعة والنشر، الرياض، دت.
- 10- الدمج، خالد مصطفى، النخبة الصرف من أحكام علم الصرف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2016م.الراجعي، الدكتور عبده، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- 11- الزمخشري، المفصل في علم العربية، تحقيق الدكتور فخر صالح قدارة، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط1، 1425هـ- 2004م.
- 12- الزمخشري، الكشاف، القاهرة، 1354هـ، ج3.
- 13- سيبويه، الكتاب، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، 1317هـ، ج1.

- 14- صفوت، أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1352هـ-1933م.
- 15- عبد القاهر الجرجاني، المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق الدكتور كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1982م، ج1.
- 16- عروة بن الورد، ديوان عروة بن الورد، دراسة وشرح وتحقيق أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ-1998م.
- 17- الغلاييني، الشيخ مصطفى، جامع الدروس العربية، راجع هذه النسخة الدكتور محمد أسعد النادري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط34، 1418هـ-1997م، ج1.
- 18- قباوة، دكتور فخر الدين، إعراب الجمل وأشباه الجمل، دار القلم العربي، حلب، ط5، 1409هـ-1989م.
- 19- لبيد، ديوان لبيد، دار صادر، بيروت- لبنان.
- 20- المرادي، الحسن بن قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م.
- 21- المرادي، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، شرح وتحقيق الدكتور عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، القاهرة، 1422هـ-2001م، ج1.
- 22- المرصفي، عبد الفتاح السيد عجمي، هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ط2.
- 23- الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1955م، ج1.
- 24- النادري، محمد أسعد، نحو اللغة العربية، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط2، 1418هـ-1997م.
- 25- النجار، عصام أحمد بدر، النحو الميسر وشواهد القرآنية بين النظرية والتطبيق، دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1436هـ-2015م، ج2.

البحث الثالث

تجديد النحو العربي

قراءة في مصطلحي الكلام والجملة

د. خالد حسن العدواني

أستاذ مساعد في معهد اللغات الحيّة في جامعة ماردين آرتوقلو

تجديد النحو العربي

قراءة في مصطلحي الكلام والجملة

خالد حسن العَدُوَانِي*

الملخّص:

يحاول هذا البحث، كما يبدو من عنوانه، أن يقدم إسهامًا في مجال تجديد النحو العربي، وذلك من خلال تقديم قراءة جديدة لمصطلحي الكلام والجملة المشهورين في ذلك النحو، وعلى مستويات عدة، من مثل المفهوم الذي يرسم حدود كل منهما، والوظيفة التي يضطلع بها كل منهما، والأشكال اللغوية التي يتجلى من خلالها كل منهما. وهو يتناول موضوعه من خلال خطة تتكون من مقدمة ومطلبين وخاتمة، يقف في المقدمة عند قضايا تعريفية تتصل بموضوعه وأهدافه وخطته.

في حين يتناول في المطلب الأول التعريف بما جاء في كتب النحو في شأن مصطلحي الكلام والجملة من محددات تتصل بالمفهوم وتاريخ النشأة والتوظيف والأشكال اللغوية التي يتجلى من خلالها كل منهما.

ويحاول في المطلب الثاني أن يقدم طروحات جديدة في شأن هذين المصطلحين من خلال إعادة النظر في بعض المحددات السابقة، ولاسيما المفهوم والتوظيف والأشكال.

أما الخاتمة، فيعرض فيها أهم ما توصل إليه من نتائج وتوصيات.

الكلمات المفتاحية: التجديد، النحو، الكلام، الجملة، اللغة العربية.

* Dr. Öğr Üyesi: Khaled Aladwani, Mardin Artuklu Üniversitesi, Yaşayan Diller Enstitüsü. aladwani.sh@gmail.com

Renewing Arabic grammar Reading in the speech term and sentence term

Summary

This research, as it appears from its title, attempts to contribute to the renewal of the grammar of the Arabic language, by presenting a new reading of the famous speech term and the famous sentence term in those rules, and on several levels, such as the concept that draws the boundaries of each of them, the function performed by each of them, And the linguistic forms through which they appear.

It deals with its subject through a plan consisting of an introduction, two demands, and a conclusion, standing in the introduction when introductory issues related to its subject, objectives and plan.

Whereas in the first demand, the definition of what was mentioned in the grammar books regarding the terms speech and sentence related to the concepts related to the concept, the history of origin and employment and the linguistic forms through which each is evident.

In the second demand, it tries to present new proposals regarding these two terms by reviewing some of the previous determinants, especially the concept, employment, and forms.

As for the conclusion, it presents the most important findings and recommendations.

Key words: renewal, grammar, speech, sentence, Arabic language.

1- مقدمة:

يحاول هذا البحث، كما يبدو من عنوانه، أن يقدم إسهامًا في مجال تجديد النحو العربي، ذلك المجال الذي شغل أذهان كثير من العلماء والدارسين في القديم والحديث، من مثل قطرب وابن مضاء وإبراهيم مصطفى وتمام حسان ومهدي المخزومي وغيرهم كثير.¹

وأما مدار ذلك الإسهام فهو العمل على تقديم قراءة جديدة لمصطلحي الكلام والجملة المشهورين في ذلك النحو، تُسهم في تقديم تصورات جديدة لهما أكثر جدوى، وعلى

¹ لقد عددنا محاولتي قطرب وابن مضاء من هذا القبيل من حيث كونهما قامتتا على نقد قضايا في هذا النحو

مستويات عدة، من مثل المفهوم الذي يرسم حدود كل منهما، والوظيفة التي يضطلع بها كل منهما، والأشكال اللغوية التي يتجلى من خلالها كل منهما. وهو، في الحقيقة، يمثل خطوة أولى على طريق مشروع نتبناه لإصلاح النحو العربي وتجديده، تتبعها خطوة ثانية، ثم الثالثة سنقف عندهما تبعاً بإذن الله في دراسات لاحقة حتى نستكمل بناء هذا المشروع الذي نراه بات حاجة ملحة لإعادة إحياء هذا التراث العظيم.

وأما ما يهدف إليه من خلال هذه المحاولة، فهو يتمثل في جملة نقاط، أهمها:
1- الإسهام في تجديد النحو العربي وإعادة إحيائه على نحو يجعله قريباً من صورة الأنحاء المعاصرة التي رسمتها المناهج العلمية الحديثة منذ مطلع القرن العشرين، وهو أمر لا تخفى أهميته البالغة على مستوى تنشيط البحث العلمي في هذا المجال، وكذلك على مستوى تيسير تعليم ذلك النحو على المستوى التطبيقي.

2- تقديم تصور جديد في مجال تجديد النحو العربي، نزع من أن الذين سبقونا من العلماء الأجلاء لم يلتفتوا إليه، وهو الانطلاق في تجديد ذلك النحو من تجديد النظر في مصطلحي الكلام والجملة اللذين قام عليهما بنیان ذلك النحو.

3- بيان أن هذا النحو يحمل في طياته عناصر تجديده، وهو أمر يدل على خصوبة هذا العلم وعلى عظم الجهود المباركة التي بذلها أسلافنا في هذا المجال. وهو يتناول موضوعه من خلال خطة تتكون من مقدمة ومطلبين وخاتمة، يقف في المقدمة عند قضايا تعريفية تتصل بموضوعه وأهدافه وخطته.

في حين يتناول في المطلب الأول التعريف بما جاء في كتب النحو في شأن مصطلحي الكلام والجملة من محددات تتصل بالمفهوم وتاريخ النشأة والتوظيف والأشكال اللغوية التي يتجلى من خلالها كل منهما.

ويحاول في المطلب الثاني أن يقدم طروحات جديدة في شأن هذين المصطلحين من خلال إعادة النظر في بعض المحددات السابقة، ولاسيما المفهوم والتوظيف والأشكال. أما الخاتمة، فيعرض فيها أهم ما توصل إليه من نتائج وتوصيات.

2- الكلام والجملة في كتب النحو:

لا يمكن للباحث أن ينكر مقدار الاهتمام الذي حظي به مصطلحا الكلام والجملّة في كتب النحاة العرب من حيث الحرص على ذكرهما حتى لا نكاد نجد كتابًا يخلو في مبتدئه من التعرّيج على هذه النقطة والوقوف عندها والتنبيه عليها.

إلا أننا، ومع ذلك كله، لا نكاد نقع على دراسة مفردة في هذا المجال وتفصيلية وفق خطة محكمة تتناول الموضوع من جوانبه جميعها بحيث لا تدع جزئية فيه إلا وتتناولها، ولا إشكالية إلا وتحاول حلها وكشف ملبساتها.

ومن هذا المنطلق تأتي محاولتنا في هذا المطلب، فهي تسعى، على نحو حثيث، إلى تقديم توصيف كامل لكل ما يتعلق بهذين المصطلحين في كتب النحاة، بحيث تتناول جميع ما من شأنه أن يكون محددًا لهما ومبينًا لأبعادهما راسمًا لحدودهما، وفي مقدمة ذلك: المفهوم، وتاريخ نشأة، والوظيفة، والأشكال اللغوية.

وسوف نقوم بتتبع ذلك في مصطلح الكلام أولاً، ثم ندلف بعد ذلك إلى مصطلح الجملّة.

2-1-1- الكلام:

وسوف نتناول ذلك وفق الخطة التي حددناها آنفًا، أي إننا سنقف عند المفهوم الذي حدده النحاة له، ثم ننتقل بعد ذلك إلى بيان تاريخ نشأة هذا المصطلح في سياق تاريخ النحو العربي، والوظيفة التي يؤديها في نطاق هذا العلم، والأشكال اللغوية التي رأوا أنه يتجلى من خلالها عمليًا.

وقد يكون من المفيد أن نشير ههنا إلى أن كلامنا سوف يسير بين دفتي النقل والعقل؛ إذ هنالك قضايا لم يقف عندها النحاة صراحة في ما وقع بين أيدينا من كتبهم، لكنها تفهم بالاستنتاج من سياقات كلامهم في تلك الكتب.

2-1-1-1- المفهوم:

إن تعدد تعريفات الكلام في كتب النحو في القديم والحديث يجعل أمر تحديد مفهوم هذا المصطلح أمرًا أكثر صعوبة، إذ لا يكفي في مثل هذه الحال العودة إلى أحد هذه التعريفات، ثم القيام بتحديد هذا المفهوم في ضوءه؛ وذلك لاحتمال انطواء التعريفات الأخرى على مفهومات مغايرة لمفهوم هذا التعريف أو لاحتمال وجود إضافات في تلك التعريفات غير موجودة في هذا التعريف.

وعليه فإننا نرى أن الطريقة المثلى للوصول إلى الحق في هذا المجال هي الوقوف عند أهم ما جاء في كتب النحاة القدماء والمحدثين من تعريفات للكلام وتحليل مضمونها.

1- يقول ابن جني: "أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحويون الجمل، نحو: زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد، وفي الدار أبوك، وصه، ومه، ورويد، وحاء وعاء في الأصوات، وحسن، ولبّ، وأف، وأوه، فكل لفظ مستقل بنفسه، وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام"².

2- يقول الزمخشري: "والكلام هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى، وذلك لا يتأتى إلا في اسمين، كقولك: زيد أخوك، وبشر صاحبك، أو في فعل واسم، نحو قولك: ضرب زيد، وانطلق بكر، وتسمى الجملة"³.

3- يقول العكبري: "الكلام عبارة عن الجملة المفيدة فائدة تامة، كقولك: زيد منطلق، وإن تأتني أكرمك، وقم، وصه، وما كان نحو ذلك"⁴.

4- يقول ابن هشام: "الكلام هو القول المفيد بالقصد، والمراد بالمفيد ما دل على معنى يحسن السكوت عليه"⁵.

5- يقول ابن الناظم: "الكلام لفظ مفيد فائدة تامة، يصح الاكتفاء بها كالفائدة في (استقم) (...) ولا بد للكلام من طرفين: مسند ومسند إليه، ولا يكونان إلا اسمين، نحو: زيد قائم أو اسمًا وفعلاً، نحو: قام زيد، ومنه: استقم، فإنه مركب من فعل أمر وفاعل، هو ضمير المخاطب، وتقديره: استقم أنت"⁶.

² ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية - القسم الأدبي، ط2، 1371هـ - 1952م، ج1، ص17.

³ الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، المفصل في علم العربية، تحقيق الدكتور فخر صالح قُدّارة، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 1425هـ - 2004م، ص32.

⁴ العكبري، أبو البقاء، مسائل خلافة في النحو، تحقيق محمد خير الحلواني، دار الشرق العربي، بيروت - لبنان، حلب- سورية، ط1، 1412هـ - 1992م، ص35.

⁵ ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت - لبنان، 1411هـ - 1991م، ج2، ص431.

⁶ ابن الناظم، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1420هـ - 2000م، ص5.

6- يقول ابن عقيل في شرح الألفية: "الكلام المصطلح عليه عند النحاة عبارة عن اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها، فاللفظ جنس يشمل الكلام والكلمة والكلم، ويشمل المهمل، ك (دَئِزٍ)، والمستعمل، ك (عمرو)، ومفيد: أخرج المهمل، وفائدة يحسن السكوت عليها " أخرج الكلمة وبعض الكلم - وهو ما تتركب من ثلاث كلمات فأكثر ولم يحسن السكوت عليه - نحو: إن قام زيد.

ولا يتركب الكلام إلا من اسمين، نحو: زيد قائم، أو من فعل واسم، ك قام زيد "7.

7- يقول الشيخ مصطفى الغلاييني: "الكلام هو الجملة المفيدة معنى تاماً مكتفياً بنفسه : مثل: رأس الحكمة مخافة الله. فاز المتقون. من صدق نجاً.

فإن لم تدف الجملة معنى تاماً مكتفياً بنفسه فلا تسمى كلاماً، مثل: إن تجتهد في عملك ؛ فهذه الجملة ناقصة الإفادة ؛ لأن جواب الشرط فيها غير مذكور وغير معلوم، فلا تسمى كلاماً فإن ذكرت الجواب فقلت: إن تجتهد في عملك تنجح، صار كلاماً"8

8- يقول الدكتور فخر الدين قباوة: "الكلام هو القول الدال على معنى يحسن السكوت عليه، ويتألف من عناصر ثلاثة:

المفرد: وهو الاسم، أو الفعل مجرداً من الفاعل، أو الحرف.

شبه الجملة: وهي الظرف أو الجار الأصلي والمجرور.

الجملة: وهي الفعل والفاعل، أو المبتدأ والخبر، أو أداة الشرط مع جملتيه، وما تفرع عن ذلك"9.

إن استعراضاً سريعاً للتعريفات السابقة يبين للباحث حقيقة جوهرية، وهي أنه لم يكن لدى النحاة تصور موحد لمفهوم الكلام، بل إن تصوراتهم لهذا المفهوم قد اختلفت باختلاف المنطلقات التي كانوا ينطلقون منها، وعلى كل حال يمكن التفريق بين ثلاثة أشكال عامة من تلك التصورات لديهم: الأول يمثل التصورات القائمة على أساس

⁷ ابن عقيل، شرح ابن عقيل ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة - مصر، 1400هـ - 1980م، ط20، ج1، ص14.

⁸ الغلاييني، الشيخ مصطفى، جامع الدروس العربية، مراجعة الدكتور محمد أسعد النادري، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت - لبنان، ط34، 1418هـ - 1997م، ج1، ص14.

⁹ قباوة، الدكتور فخر الدين، إعراب الجمل وأشبه الجمل، دار القلم العربي، حلب - سورية، ط5،

1409هـ - 1989م، ص15.

ملاحظة المبني، والثاني يمثل التصورات القائمة على أساس ملاحظة المعنى، والثالث يمثل التصورات القائمة على أساس ملاحظة المعنى والعلاقة.

1- التصورات القائمة على أساس ملاحظة المبني: وهي قليلة على كل حال، ويمثلها في هذا المقام تعريف الزمخشري الذي جعل من الإسناد الشرط الأساس للحكم على تركيب ما أنه يدخل في باب الكلام دون إعارة أدنى انتباه للمعنى.

2- التصورات القائمة على أساس ملاحظة المعنى: وهذه التصورات هي الأكثر بروزًا في هذا المقام ؛ إذ نلاحظها في معظم التعريفات الأخرى، من مثل تعريف العكبري وتعريف ابن الناظم وتعريف ابن عقيل وتعريف ابن هشام وتعريف مصطفى الغلابي وتعريف فخر الدين قباوة ، ففي جميع هذه التعريفات نجد أن شرط المعنى المفيد التام الذي يحسن السكوت عليه هو الشرط الأساسي، بل الوحيد في تحديد الكلام.

3- التصورات القائمة على أساس ملاحظة المعنى والعلاقة: ويمثل هذا الشكل من التصورات في هذا المقام تعريف أبي الفتح عثمان بن جني، إذ يسعى هذا التعريف إلى الربط بين عنصري المعنى والعلاقة في تحديد تصوره لمفهوم الكلام ؛ ولذلك كان الكلام عنده هو: كل لفظ مستقل بنفسه، ومفيد لمعناه.

2-1-2- النشأة:

إن عدم وجود كتب نحوية قبل كتاب شيخ النحاة سيبويه والمعروف باسم (الكتاب) أو ضياع تلك الكتب أو الرسائل في تلك المرحلة المبكرة والتي عرفت علماء عظاما وأجلاء، من مثل أبي الأسود وعيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ويحيى بن يعمر الليثي العدواني والخليل بن أحمد الفراهيدي وغيرهم رحمهم الله جميعا، أقول: إن كل ذلك يحتم على الباحث أن يجعل قبلته في تلمس ذلك واستجلاء حقيقته كتاب سيبويه أنف الذكر ليرى هل كان هذا المصطلح معروفاً عنده ومستعملاً في ثنايا كتابه الضخم.

• مصطلح الكلام في كتاب سيبويه:

الواقع أن الدارس يستطيع أن يجد أقوالاً ليست بالقليلة مما يدل على وجود هذا المصطلح عند سيبويه دالاً على معظم المفهومات التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة، ومن ذلك:

- 1- يقول سيبويه في مثل (لقيت زيدًا وعمرو كلمته)، يقول: " فإذا جاز أن يكون المبتدأ (أي: ابتداء الكلام) بهذه المنزلة جاز أن يكون بين الكلامين "10.
- 2- ويقول أيضًا: " ولم يكن ليكون هذا كلامًا حتى يبني عليه أو يبني على ما قبله "11.
- 3- ويقول في مثل (إن يضرب يأتينا): " لم يكن كلامًا "12.
- 4- ويقول في مثل (ما زيد عاقلاً عمرو)، يقول: " لم يكن كلامًا "13.
- 5- ويقول في مثل (أزيدٌ ذُهبٌ به): " لم يكن إلا رفعاً ؛ لأنك لو لم تقل به فكان كلامًا لم يكن إلا رفعاً "14.
- 6- ويقول: " لو قلت: فيها عبد الله حسنٌ السكوت وكان كلامًا مستقيمًا كما حسنٌ واستغنى في قولك: هذا عبد الله "15.
- 7- ويقول: " ألا ترى أنّ (من زيد) لا يكون كلامًا حتى يكون معتمدًا على غيره ، وكذلك (قط زيد) كما أن (غلام زيد) لا يكون كلامًا حتى يكون معه غيره "16.
- 8- ويقول: " ولو قلت: أزيدًا ضربتَ عمرًا، وضربتَ أخاه لم يكن كلامًا "17.
- 9- ويقول: " واعلم أنّ (قلتُ) إنما وقعت في كلام العرب على أن يُحكى بها، وإنما يُحكى بعد القول ما كان كلامًا لا قولًا، نحو: قلت: زيد منطلق "18.
- 10- يقول: " لأنك لو قلت: ما زيد منطلقًا زيد لم يكن حد الكلام، وكان ههنا ضعيفًا "19.
- 11- ويقول في مثل (جئتكَ لتفعل، وحتى تفعل) يقول: " ولو لم تضمرها (يعني: أنّ) لكان الكلام محالًا "20.

¹⁰ سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ط3، 1408 هـ -

1988م، ج1، ص90.

¹¹ نفسه، ج2، ص78.

¹² نفسه، ج1، ص14.

¹³ نفسه، ج1، ص61.

¹⁴ نفسه، ج1، ص104.

¹⁵ نفسه، ج2، ص88.

¹⁶ نفسه، ج3، ص330.

¹⁷ نفسه، ج1، ص108.

¹⁸ نفسه، ج1، ص122.

¹⁹ نفسه، ج1، ص62.

12- ويقول في باب الاستقامة من الكلام والإحالة: "فمنه مستقيم حسن ومحال ومستقيم كذب ومستقيم قبيح وما هو محال كذب.

فأما المستقيم الحسن، فقولك: أتيتك أمس وسأتيك غدًا، وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدًا وسأتيك أمس، وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدًا رأيتُ، وكبي زيدٌ يأتيك وأشباه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس"²¹.

ففي كل تلك الأقوال نجد أن الرجل يستخدم مصطلح الكلام استخدامًا صريحًا دون لبس أو موارد، دالًا به على معظم المفهومات التي رصدناها في الفقرة السابقة، ولاسيما المفهوم الذي المفهوم الذي تمت صياغته على أساس ملاحظة المبنى، والمفهوم الذي تمت صياغته على أساس ملاحظة المعنى.

2-1-3- التوظيف:

الحق أن الدارس لا يحتاج في هذا المقام إلى مزيد جهد لتبين الأهمية التي حظي بها هذا المصطلح في أقدم كتب النحو التي وصلت إلينا، ونعني كتاب سيبويه، وهي أهمية تجلت في كثرة إشارات إليه في ثنايا هذا الكتاب، وقد لاحظنا ذلك جليًا واضحًا في الفقرة السابقة، كما تجلت في اتخاذه وسيلة لقياس التراكيب اللغوية العربية، والتفريق بين ما يمكن أن يمثل منها تركيبًا مكتمل البناء والخصائص على مستويات النحو والدلالة والتداول، وما لا يمكن أن يكون منها كذلك، ومن ثمَّ لتحديد ما يصلح منها لأن يكون التركيب الذي يمكن لعلم النحو أن يتخذه نواة لدراسته قواعد العربية، وما لا يصلح منها لذلك، وهو ما يعني أن سيبويه – وهذا غالبًا صنيع من سبقه من علماء العربية رحمهم الله أجمعين – قد أراد لهذا المصطلح في هذه المرحلة المبكرة، أراد له أن يدل -وظيفيًا- على الوحدة التركيبية التي يدرسها علم النحو، أو لنقل على نحو أكثر اختصارًا وإيجازًا: وحدة دراسة النحو.

²⁰ نفسه، ج3، ص6.

²¹ نفسه، ج1، ص25 – 26.

ولعل خير ما يدل على صدق هذا الاستنتاج أنه كان المصطلح الوحيد في هذا المقام، الذي استخدم للدلالة على نمط معين من التركيب العربي لم ينافسه في ذلك مصطلح آخر.

2-1-4- الأشكال:

إن نظرة في سريعة في بعض أقوال النحاة التي حاولت شرح مفهوم هذا المصطلح من خلال نماذج كلامية حية تبين للدارس أن آراءهم في ذلك لم تكن موحدة، بل اتخذت اتجاهات ومشارب عدة، يمكن أن نلخصها على النحو التالي:

1- الرأي الأول: وقد حصره أصحاب هذا الرأي بالتركيب الإسنادي فقط، ومن هؤلاء: أ- الزمخشري، إذ يقول: "والكلام هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى، وذلك لا يتأتى إلا في اسمين، كقولك: زيد أخوك، وبشر صاحبك، أو في فعل واسم، نحو قولك: ضرب زيد، وانطلق بكر، وتسمى الجملة"²².

ب- ابن الناظم، إذ يقول: "الكلام لفظ مفيد فائدة تامة، يصح الاكتفاء بها كالفائدة في (استقم) (...). ولا بد للكلام من طرفين: مسند ومسند إليه، ولا يكونان إلا اسمين، نحو: زيد قائم أو اسماً وفعلًا، نحو: قام زيد، ومنه: استقم، فإنه مركب من فعل أمر وفاعل، هو ضمير المخاطب، وتقديره: استقم أنت"²³.

ج- ابن عقيل، إذ يقول: "الكلام المصطلح عليه عند النحاة عبارة عن اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت علمها، فاللفظ جنس يشمل الكلام والكلمة والكلم، ويشمل المهمل، ك (دَيِّزٍ)، والمستعمل، ك (عمرو)، ومفيد: أخرج المهمل، وفائدة يحسن السكوت عليها "أخرج الكلمة وبعض الكلم - وهو ما تركب من ثلاث كلمات فأكثر ولم يحسن السكوت عليه - نحو: إن قام زيد.

ولا يتركب الكلام إلا من اسمين، نحو: زيد قائم، أو من فعل واسم، كقام زيد"²⁴.

2- الرأي الثاني: ويرى أصحاب هذا الرأي أن الكلام يتمثل في شكلين، هما التركيب الإسنادي والتركيب الشرطي، ومن أصحاب هذا الرأي:

²² الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، المفصل في علم العربية، ص32.

²³ ابن الناظم، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، ص5.

²⁴ ابن عقيل، شرح ابن عقيل ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، ج1، ص14.

أ- العكبري، إذ يقول: "الكلام عبارة عن الجملة المفيدة فائدة تامة، كقولك: زيد منطلق، وإن تأتني أكرمك، وقم، وصه، وما كان نحو ذلك"²⁵.

ب- ابن هشام، إذ يقول: "وهذا يظهر لك أنهما (أي: الكلام والجملة) ليسا مترادفين كما يتوهمه كثير من الناس، وهو ظاهر قول صاحب المفصل، فإنه بعد أن فرغ من حد الكلام قال: "ويسى جملة"، والصواب أنها أعم منه، إذ شرطه الإفادة بخلافها، ولهذا تسمعونهم يقولون: جملة الشرط، جملة الجواب، جملة الصلة، وكل ذلك ليس مفيداً، فليس بكلام"²⁶.

ج- الشيخ مصطفى الغلابي، إذ يقول: "الكلام هو الجملة المفيدة معنى تاماً مكتفياً بنفسه: مثل: رأس الحكمة مخافة الله. فاز المتقون. من صدق نجا"²⁷.

د- الدكتور فخر الدين قباوة، إذ يقول: "الكلام هو القول الدال على معنى يحسن السكوت عليه، ويتألف من عناصر ثلاثة:

المفرد: وهو الاسم، أو الفعل مجرداً من الفاعل، أو الحرف.

شبه الجملة: وهي الظرف أو الجار الأصلي والمجرور.

الجملة: وهي الفعل والفاعل أو المبتدأ والخبر، أو أداة الشرط مع جملتيه، وما تفرع عن ذلك"²⁸.

3- الرأي الثالث: وقد حصر أصحاب هذا الرأي الكلام في ثلاثة أشكال، هي التركيب الإسنادي، والتركيب الشرطي والتركيب المؤلف من تراكيب عدة، ومن أبرز هؤلاء:

أ- سيبويه، إذ يقول: "لو قلت: "فيها عبد الله" حسن السكوت، وكان كلاماً مستقيماً، كما حسن واستغنى في قولك: هذا عبد الله"²⁹، ويقول في مثل (لقيت زيدا وعمرو كلمته)،

يقول: "فإذا جاز أن يكون المبتدأ (أي: ابتداء الكلام) بهذه المنزلة جاز أن يكون بين الكلامين"³⁰، ويقول في مثل (إن يضرب يأتينا): "لم يكن كلاماً"³¹، ويقول: "واعلم أن قلت

²⁵ العكبري، أبو البقاء، مسائل خلافية في النحو، ص35.

²⁶ ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ج2، ص431.

²⁷ الغلابي، الشيخ مصطفى، جامع الدروس العربية، ج1، ص14.

²⁸ قباوة، الدكتور فخر الدين، إعراب الجمل وأشباه الجمل، ص15.

²⁹ سيبويه، الكتاب، ج2، ص88.

³⁰ نفسه، ج1، ص90.

(إنما وقعت في كلام العرب على أن يُحكى بها، وإنما يُحكى بعد القول ما كان كلامًا لا قولًا، نحو: قلت: زيد منطلق "32.

4- الرأي الرابع: هو بحسب استقرائنا في هذا الجانب أكثر الآراء اتساعا؛ إذ يستدرك على الآراء السابقة جميعًا، ويضيف إلى أشكال الكلام التركيب القسمي، وأهم من يمثل هذا الرأي بحسب استقرائنا هذا هو:

أ- أبو الفتح بن جني، إذ يقول: "أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحويون الجمل، نحو: زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد، وفي الدار أبوك، وصه، ومه، ورويد، وحاء وعاء في الأصوات، وحسيّ، ولبّ، وأف، وأوه، فكل لفظ مستقل بنفسه، وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام"33، ويقول: "فعلى هذا يكون قولنا: قام زيد كلامًا، فإن قلت شارطًا: إن قام زيد، فزدت عليه (إن) رجوع بالزيادة إلى النقصان، فصار قولًا لا كلامًا؛ ألا تراه ناقصًا ومنتظرًا للتمام بجواب الشرط، وكذلك لو قلت في حكاية القسم: "حلفتُ بالله"، أي: كان قسمي هذا، لكان كلامًا؛ لكونه مستقلًا، ولو أردت به صريح القسم لكان قولًا من حيث كان ناقصًا، لاحتياجه إلى جوابه"34، ويقول: "إذا قال: قام محمد، فهو كلام، وإذا قال: قام محمد وأخوك جعفر، فهو أيضًا كلام، كما كان لما وقع على الجملة الواحدة كلامًا، وإذا قال: قام محمد، وأخوك جعفر، وفي الدار سعيد، فهو أيضًا كلام، كما كان لما وقع على الجملتين كلامًا"35.

خلاصة القول أن النحاة، كما اختلفوا في تحديد مفهوم الكلام فلم يكن لديهم تعريف محدد له، اختلفوا أيضًا في تحديد أشكاله اللغوية، فكانت الرؤية تضيق عند بعضهم حتى تكاد تحصره في شكل واحد، هو الشكل الإسنادي بنمطيه المعروفين، وهما التركيب الاسمي والتركيب الفعلي، في حين نراها تتسع قليلًا عند غيرهم لتحصره بالتركيبين الإسنادي والشرطي المؤلف من أداة الشرط وجملتي الشرط والجواب، ثم نراها تتسع أكثر قليلًا عند فريق ثالث، إذ يزيد على التركيبين السابقين، وإن كان ذلك على نحو غير

³¹ نفسه، ج1، ص14.

³² نفسه، ج1، ص122.

³³ ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، ج1، ص17.

³⁴ نفسه، ج1، ص19.

³⁵ نفسه، ج1، ص26 - 27.

صريح³⁶، تركيبًا ثالثًا هو التركيب المؤلف من جملتين أو أكثر، ثم نجد التوسع الأكبر عند فريق رابع، إذ يزيد هذا على من سبقه من خلال زيادة التركيب القسسي المؤلف من جملي القسم والجواب، وكذلك من خلال الإشارة الصريحة إلى التركيب المؤلف من جملتين أو أكثر.

2-2- الجملة:

وسوف ندرس الجملة، في هذا المقام، معتمدين على الخطة نفسها التي درسنا من خلالها الكلام في الفقرة السابقة وبالترتيب نفسه، أي سوف نقف أولاً عند المفهوم، ثم نتناول بعد ذلك تاريخ النشأة، ثم الوظيفة؛ لننتهي أخيرًا إلى الأشكال اللغوية حددها النحاة لها.

2-2-1- المفهوم:

لقد شهد تعريف الجملة تنوعًا ملحوظًا في كتب النحاة ما بين مرحلة وأخرى، وأحيانًا داخل المرحلة الزمنية نفسها، وبذلك لم تكن أوفر حظًا وأسعد حالًا من الكلام من هذه الناحية.

وبناءً على ما تقدم يصبح تحديد مفهومها من خلال الوقوف عند تعريف واحد لها أمرًا ظاهر الخطأ والنقصان، ويصبح الطريق الأمثل للوصول إلى نتيجة صحيحة ومرتضاه في هذا المجال هي أن يقوم الباحث بجمع ما تستطيع يده الوصول إليه من تلك التعريفات ومناقشتها وتحليلها بهدف الوصول إلى الحق في ذلك.

تعريفات الجملة في كتب النحاة:

1- يقول المبرد: "وإنما كان الفاعل رفعًا؛ لأنه هو والفاعل جملة يحسن السكوت عليها، وتجب بها الفائدة للمخاطب، فالفاعل والفعل بمنزلة الابتداء والخبر، إذا قلت: قام زيد، فهو بمنزلة قولك: القائم زيد"³⁷.

2- يقول الجرجاني: "وإنما سمي كلاً ما كان جملة، نحو: (زيد منطلق)، و (خرج عمرو)"³⁸.

³⁶ هذا الحكم مأخوذ بالاستنتاج من قول سيبويه السابق: "واعلم أنّ (قلتُ) إنما وقعت في كلام العرب على أن يُحكى بها، وإنما يُحكى بعد القول ما كان كلاً لا قولاً".

³⁷ المبرد، محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة - مصر، ط3، 1415هـ - 1994م، ج1، ص146.

- 3- يقول ابن يعيش: "والجواب أن الكلام عبارة عن الجمل المفيدة، وهو جنس لها، فكل واحدة من الجمل الفعلية والاسمية نوع له يصدق إطلاقه عليها"³⁹.
- 4- يقول ابن هشام: "وبالجملة عبارة عن الفعل وفاعله، ك(قام زيد)، والمبتدأ وخبره، ك(زيد قائم) وما كان بمنزلة أحدهما، نحو: (ضُرب اللص)، و(أقائم الزيدان)، (وما كان زيد قائمًا)، و(ظننته قائمًا)"⁴⁰، ويقول أيضًا: "وبهذا يظهر لك أنهما (أي: الكلام والجملة) ليسا مترادفين كما يتوهمه كثير من الناس، وهو ظاهر قول صاحب المفصل، فإنه بعد أن فرغ من حد الكلام قال: "ويسمى جملة"، والصواب أنها أعم منه، إذ شرطه الإفادة بخلافها"⁴¹.
- 5- يقول الشريف الجرجاني: إن الجملة " عبارة عن مركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى، سواء أفاد كقولك: زيد قائم، أو لم يفد كقولك: إن يكرمي، فإنه جملة لا تفيد إلى بعد مجيء جوابه، فتكون أعم من الكلام مطلقًا"⁴².
- 6- يقول الغلاييني: "والمركب الإسنادي (ويسمى جملة أيضًا): ما تألف من مسند ومسند إليه، نحو: "الحلم زين". " يفلح المجتهد"⁴³، ويقول: "والمسند إليه هو الفاعل ونائبه والمبتدأ واسم الفعل الناقص واسم الأحرف التي تعمل عمل (ليس) واسم (إن) وأخواتها واسم (لا) (النافية للجنس)"⁴⁴ ويقول: "والمسند هو الفعل واسم الفعل وخبر المبتدأ وخبر الفعل الناقص وخبر الأحرف التي تعمل عمل (ليس) (خبر (إن) وأخواتها"⁴⁵.
- 7- يقول الدكتور فخر الدين قباوة: "الجملة: وهي الفعل والفاعل، أو المبتدأ والخبر، أو أداة الشرط مع جملتيه، وما تفرع عن ذلك.

³⁸ الجرجاني، عبد القاهر، المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق الدكتور كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر والتوزيع، الجمهورية العراقية، 1982م، ج1، ص68.

³⁹ ابن يعيش النحوي، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ج1، ص21.

⁴⁰ ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ج2، ص431.

⁴¹ نفسه، ج2، ص431.

⁴² الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة - مصر، دت، ص70.

⁴³ الغلاييني، الشيخ مصطفى، جامع الدروس العربية، ج1، ص13.

⁴⁴ نفسه، ج1، ص13.

⁴⁵ نفسه، ج1، ص14.

والمراد بالمتفرع ما تفرع عن الفعل والفاعل، وهو الفعل ونائب الفاعل، وما تفرع عن المبتدأ والخبر، وهو الفعل الناقص مع اسمه وخبره، والحرف المشبه بالفعل مع اسمه وخبره⁴⁶.

التحليل:

إن نظرة عجلى في تلك الأقوال التي جمعناها من كتب تنتهي إلى معظم المراحل التي مر بها النحو العربي تبين على نحو لا يترك مجالاً للشك أن النحاة العرب لم يتفقوا على مفهوم محدد للجملة، بل ظل مفهومها لديهم يخضع لوجهات النظر التي كانوا ينطلقون منها شأنه في ذلك شأن مفهوم الكلام.

وعلى كل حال يستطيع الباحث، في هذا المقام، أن يفرق بين مفهومات تعود إلى وجهتي نظر، إحداهما تنطلق من المبنى فقط، فتحدد الجملة بحدود البنية التركيبية المكونة لها غير ملتفتة إلى مسألة الإفادة وعدم الإفادة، والأخرى تنطلق من المبنى والمعنى، فتحددها بحدود بنيتها التركيبية وما تنطوي عليه تلك البنية من فائدة معنوية، فهي إذًا تضع المعنى شرطاً أساساً لاعتداد بنية تركيبية ما جملة.

1- المفهومات التي تتصل بوجهة النظر المبنوية: ومن تلك المفهومات، في هذا المقام، ما نجده في تعريفات عبد القاهر وابن يعيش وابن هشام والشريف الجرجاني والغلاييني وفخر الدين قباوة، فكل هذه المفهومات مبنية على أساس النظر إلى المبنى وإغفال جانب المعنى، فالجملة عند هؤلاء هي التركيب الإسنادي أو الإسنادي والشرطي، ولا يهم بعد ذلك إن كان ينطوي على معنى مفيد أو لا ينطوي.

2- المفهومات التي تتصل بوجهة النظر المبنوية المعنوية: ويمثلها هنا ما نجده في تعريف محمد بن يزيد المبرد، فهذا الرجل يحدد الجملة في حدود التركيب الإسنادي الاسمي أو الفعلي والذي يتحقق فيه شرط الإفادة.

2-2-2- النشأة:

إن أول ما يتبادر إلى ذهن من يقف أمام مثل هذا السؤال التأصيلي هو أن يربط تلك النشأة بنشأة النحو أو على الأقل بانطلاق حركة التأليف النحوي التي ارتبطت بظهور كتاب سيبويه، لكن الذي سيفاجئ مثل هذا الشخص هو أن سيبويه – وهذا ينسحب

⁴⁶ قباوة، الدكتور فخر الدين، إعراب الجملة وأشباه الجملة، ص 15.

حتماً على من سبقوه – لم يشر إلى هذا المصطلح في كتابه قط، بل إن كلمة (جملة) لم ترد لديه إلا مرة واحدة وبدلالاتها المعجمية المباشرة، أي: الإجمال الذي هو خلاف التفصيل⁴⁷. يقول: "وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجهًا، وما يجوز في الشعر أكثر من أن أذكره لك ههنا، لأن هذا موضع جمل"⁴⁸. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فلا بد من البحث عن نشأة هذا المصطلح في المرحلة أو المراحل التي تلت ظهور هذا الكتاب.

• مصطلح الجملة عند خلفاء سيبويه:

كما لم يشر شيخ النحاة سيبويه إلى هذا المصطلح في كتابه⁴⁹، لم يشر خلفاؤه المباشرون، من مثل الكسائي والأخفش والفراء وغيرهم، إليه في كتبهم، وهو ما يعني أن الجهل بهذا المصطلح لم يقف عند حدود عصر سيبويه، بل استمر إلى ما بعد ذلك من نهايات القرن الثاني الهجري وبدايات القرن الثالث.

على أننا إذا ما توغلنا قليلاً في القرن الثالث الهجري نجد أن الأمر يبدأ بالاختلاف قليلاً، ونرى أن هذا المصطلح يبدأ بالظهور في كتابات أحد أعلام هذه المرحلة على نحو جلي، أما ذلك العلم فهو محمد بن يزيد المبرد صاحب كتاب (المقتضب).

• من أقوال المبرد في هذا الباب:

الواقع أن الدارس يستطيع أن يجد للرجل أقوالاً كثيرة في هذا الباب، ومن ذلك: 1- يقول في باب الفاعل: "وإنما كان الفاعل رفعًا؛ لأنه هو والفعل جملة يحسن السكوت عليها، وتجب بها الفائدة للمخاطب، فالفاعل والفعل بمنزلة الابتداء والخبر، إذا قلت: قام زيد، فهو بمنزلة قولك: القائم زيد"⁵⁰.

⁴⁷ عبد اللطيف، الدكتور محمد حماسة، بناء الجملة العربية، دار غريب، القاهرة – مصر، 2003م،

ص 21

⁴⁸ سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 32.

⁴⁹ ومع ذلك يرى بعض الباحثين أن سيبويه باستعماله لهذا اللفظ استعمالاً لغويًا قد بذر البذرة الأولى لدخوله في الجهاز الاصطلاحي النحوي. ينظر: الأسدي، الدكتور حسن عبد الغني جواد، مفهوم الجملة عند سيبويه، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 1، 2007م، ص 26.

⁵⁰ المبرد، محمد بن يزيد، المقتضب، ج 1، ص 146.

2- يقول في باب إضافة الأزمنة إلى الجمل: "اعلم أنه ما كان من الأزمنة في معنى (إذ) فإنه يضاف إلى الفعل والفاعل وإلى الابتداء والخبر، كما يكون ذلك في (إذ).

وذلك قولك: جئتك إذ قام زيد، وجئتك إذ زيد في الدار"⁵¹.

3- يقول في باب إضافة الأزمنة إلى الجمل أيضًا: "فأما (إذ) فإنما يقع بعدها الجمل؛ لأنه لا معنى للجزاء فيها؛ لأنها ماضية لا تحتاج إلى الجواب. تقول: جئتك إذ قام زيد، وكان هذا إذ زيد أمير، كما تقول: هذا كان يوم الجمعة"⁵².

إذًا، فمصطلح الجملة يعود في نشأته الأولى إلى القرن الثالث الهجري، إذ نشأ على يدي أحد أعلامه البارزين، وهو أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، وكان ذلك في كتابه المعروف باسم (المقتضب).

2-2-3- التوظيف:

إن نظرة سريعة في أقوال المبرد التي ذكر فيها مصطلح الجملة تبين أن الرجل قد استخدم هذا المصطلح للدلالة على الوحدة التركيبية التي يدرسها علم النحو مخالفًا بذلك سيويه وخلفاءه المباشرين الذين كانوا يستعملون مصطلح الكلام للدلالة على هذه الوحدة.

وهي على كل حال مخالفة شكلية وقفت عند حدود تغيير المصطلح، ولم تتجاوز ذلك إلى حدود تغيير المفهوم الذي تتحدد تلك الوحدة التركيبية في ضوئه.

على أن الأمر لم يدم على هذا النحو عند أغلب الذين تلقفوا مصطلح المبرد، بل أخذت الهوة تتسع أكثر فأكثر، إذ أضافوا إلى مخالفته مخالفة أخرى تجلت في إدخال تغيير على المفهوم الذي تتحدد في ضوئه الوحدة التركيبية المدلول عليها بمصطلح الجملة، فلم يعد مفهوم الجملة عندهم كما كان عند المبرد، وهو اللفظ المفيد الذي يحسن السكوت عليه، بل أصبح قائمًا على أساس شكلي يحدد الجملة بالتركيب الإسنادي أفاد أو لم يفد.

وكما أدى التغيير الذي أحدثه المبرد مع مرور الوقت إلى تغيير المفهوم الذي تتحدد في ضوئه الوحدة التركيبية التي يدرسها النحو، أدى كذلك إلى فقدان مصطلح الكلام أهميته

⁵¹ نفسه، ج 4، ص 347.

⁵² نفسه، ج 4، ص 348.

في الدرس النحوي، فلم يعد يذكر بوصفه عنصراً فاعلاً في هذا الدرس، بل بوصفه عنصراً مساعداً في شرح مفهوم الجملة فقط.

4-2-2- الأشكال:

من خلال النظر في الأقوال التي أثبتناها في أثناء حديثنا عن مفهوم الجملة عند النحاة وفي غيرها مما لم نثبتته في ذلك المقام يمكن القول: إن النحاة يكن لهم رأي حاسم ومحدد في الأشكال اللغوية التي تأتي عليها الجملة العربية، بل تعددت آراؤهم في ذلك وتشعبت وضافت واتسعت واتخذت مسارات عدة يمكن حصرها على النحو التالي:

1- المسار الأول: وقد رأى أصحابه أن الجملة تتجلى شكلياً في التركيب الإسنادي فقط، سواء أكان مبتدئاً باسم أم مبتدئاً بفعل، وسواء أكان مفيداً أم لم يكن، ومن هؤلاء: أ- المبرد، إذ يقول: "وإنما كان الفاعل رفعاً؛ لأنه هو والفعل جملة يحسن السكوت عليها، وتجب بها الفائدة للمخاطب، فالفاعل والفعل بمنزلة الابتداء والخبر، إذا قلت: قام زيد، فهو بمنزلة قولك: القائم زيد"⁵³.

ب- ابن يعيش، إذ يقول: "والجواب أن الكلام عبارة عن الجمل المفيدة، وهو جنس لها، فكل واحدة من الجمل الفعلية والاسمية نوع له يصدق إطلاقه عليها"⁵⁴.

ج- الشريف الجرجاني، إذ يقول: إن الجملة "عبارة عن مركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى، سواء أفاد كقولك: زيد قائم، أو لم يفد كقولك: إن يكرمني، فإنه جملة لا تفيد إلى بعد مجيء جوابه، فتكون أعم من الكلام مطلقاً"⁵⁵.

د- الغلابي، إذ يقول: "والمركب الإسنادي (ويسمى جملة أيضاً): ما تألف من مسند ومسند إليه، نحو: "الحلم زين". "يفلح المجتهد"⁵⁶، ويقول: "والمسند إليه هو الفاعل ونائبه والمبتدأ واسم الفعل الناقص واسم الأحرف التي تعمل عمل (ليس) واسم (إن)

⁵³ نفسه، ج1، ص146.

⁵⁴ ابن يعيش النحوي، شرح المفصل، ج1، ص21.

⁵⁵ الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، ص70.

⁵⁶ الغلابي، الشيخ مصطفى، جامع الدروس العربية، ج1، ص13.

وأخواتها واسم (لا) النافية للجنس "57، ويقول: "والمسند هو الفعل واسم الفعل وخبر المبتدأ وخبر الفعل الناقص وخبر الأحرف التي تعمل عمل (ليس) وخبر (إن) وأخواتها"58.

2- المسار الثاني: وقد توسع أصحابه كثيراً في هذا الباب، فقالوا بوجود ثلاثة أشكال للجمل في اللغة العربية، هي الجملة القائمة على عنصر الإسناد، والجملة الشرطية، والجملة الظرفية، ومن هؤلاء:

أ- أبو علي الفارسي، إذ يقول: "وأما الجملة التي تكون خبر المبتدأ، فعلى أربعة أضرب: الأول: أن تكون جملة مركبة من فعل وفاعل، والثاني: أن تكون مركبة من ابتداء (مبتدأ) وخبر، والثالث: أن تكون شرطاً وجزاء، والرابع أن تكون ظرفاً"59.

ب- عبد القاهر الجرجاني، إذ يقول: "فقد حصل لك أربع أضرب من الجمل، وهي في الأصل اثنتان: الجملة من الفعل والفاعل، والجملة من المبتدأ والخبر"60.

ج- الزمخشري، إذ يقول: "والخبر على نوعين: مفرد وجملة، فالمفرد على ضربين: خال عن الضمير ومتضمن له، وذلك (زيد غلامك) و (عمرو منطلق)، والجملة على أربعة أضرب: فعلية واسمية وشرطية وظرفية، وذلك (زيد ذهب أخوه)، و (عمرو أبوه منطلق)، و (بكر أن تعطه يشكرك)، و (خالد في الدار)"61.

3- المسار الثالث: وقد اتخذ أصحابه خطأً متوسطاً بين أصحاب المسارين السابقين، فقالوا بوجود شكلين للجملة، هما الجملة القائمة على عنصر الإسناد والجملة الظرفية، ومن هؤلاء:

أ- ابن هشام إذ يقول في باب انقسام الجملة إلى اسمية وفعلية وظرفية: "فالاسمية هي التي صدرها اسم، ك(زيد قائم) و(هيمات العقيق) و(قائم الزيدان) عند من جوزه، وهو الأخفش والكوفيون.

والفعلية هي التي صدرها (أولها) فعل، ك(قام زيد) و(ضرب اللص) و(كان زيد قائماً) و(ظننته قائماً) و(يقوم زيد)، و(قم).

⁵⁷ نفسه، ج1، ص13.

⁵⁸ نفسه، ج1، ص14.

⁵⁹ أبو علي الفارسي، الإيضاح العضدي، تحقيق حسن شاذلي فرهود، ط1، 1389هـ - 1969م، ص43.

⁶⁰ الجرجاني، عبد القاهر، المقتصد في شرح الإيضاح، ج1، ص277.

⁶¹ الزمخشري، المفصل في علم العربية، ص49.

والظرفية هي المصدرة بظرف أو مجرور، نحو: (أعندك زيد)، و(أفي الدار زيد) إذا قدرت زيداً فاعلاً بالظرف أو الجار والمجرور، لا بالاستقرار المحذوف، ولا مبتدأ مخبراً عنه بهما، ومثل الزمخشري لذلك بـ (في الدار) من قولك: "زيد في الدار"، وهو مبني على أن الاستقرار المقدر فعل لا اسم، وعلى أنه حذف وحده وانتقل الضمير إلى الظرف بعد أن عمل فيه.

وزاد الزمخشري وغيره الجملة الشرطية، والصواب أنها من قبيل الجملة الفعلية⁶².
ب- السيوطي، إذ يقول: "وتنقسم الجُمْلَةُ إلى اسمية وفعلية وظرفية، فالاسمية التي صدرها اسم كـ(زيد قائم) و(هيهات العقيق)، والفعلية التي صدرها فعل كـ(قام زيد) و(ضُرب اللص)، و(كَانَ زيد قائماً) و(ظننته قائماً) و(يقوم) و(قم)، والظرفية المصدرة بظرف أو مجرور، نحو: عندك زيد أو في الدار زيد، إذا قدرت زيداً فاعلاً بالظرف أو المجرور لا بالاستقرار المحذوف ولا مُبتدأ مخبراً عنه بهما.

وَزَادَ الزمخشري وغيره في الجمل: الشرطية، والصواب أنها من قبيل الفعلية لأن المراد بالصدر المسند أو المسند إليه، ولا عبرة بما تقدم عليهما من حروف⁶³.

4- المسار الرابع: وقد فعل أصحابه ما فعله أصحاب المسار الثالث، لكن الإضافة ههنا كانت مختلفة، إذ أضاف هؤلاء إلى التركيب الإسنادي التركيب الشرطي، ومنهم:
أ- فخر الدين قباوة، إذ يقول: "الجملة: وهي الفعل والفاعل، أو المبتدأ والخبر، أو أداة الشرط مع جملتيه، وما تفرع عن ذلك.

والمراد بالمتفرع ما تفرع عن الفعل والفاعل، وهو الفعل ونائب الفاعل، وما تفرع عن المبتدأ والخبر، وهو الفعل الناقص مع اسمه وخبره، والحرف المشبه بالفعل مع اسمه وخبره⁶⁴.

3- الكلام والجملة: ظروف خاصة:

قبل الشروع في عرض هذه النقطة لابد أن نوضح للقارئ الكريم أن ما سنقوم بطرحه في هذا المقام لا يمثل قطيعة مع جهود النحاة العرب في هذا الباب، بل هو متابعة حقيقية

⁶² ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ج2، ص433.

⁶³ السيوطي، الإمام جلال الدين، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، دار

الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1418هـ - 1998م، ج1، ص50.

⁶⁴ قباوة، الدكتور فخر الدين، إعراب الجمل وأشباه الجمل، ص15.

تلك الجهود وسير على خطاها واقتفاء لأثرها، ولكن بطريقة مختلفة تتمثل في إعادة ترتيب تلك الجهود وتبويبها وتنسيقها بحيث تبدو أكثر وضوحًا وانسجامًا.

إذًا الاختلاف بين ما سنقوم به، ههنا، وما قام به الأسلاف من قبلنا في هذا الباب هو في طريقة العرض والتبويب أساسًا، وإن كنا لا نستطيع إنكار وجود بعض الزيادات هنا وهناك، وهي، على كل حال، زيادات اقتضتها طريقة العرض الجديدة.

والحقيقة أن ذلك ينسجم انسجامًا تامًا مع مذهبنا في تجديد النحو خاصة والدرس اللغوي العربي عامة؛ إذ نرى: أن تجديد هذا الدرس لا يمكن أن يكون إلا من داخله، وإلا من خلال إعادة ترتيبه وتبويبه، وأن كل محاولة تسعى إلى التجديد من خلال نبذ هذا الدرس وتمهيشه هي ضرب من الضلال ولا تقل خطورة عن تلك المحاولات التي ترمي إلى تقديسه والعكوف عليه كأنه وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

على أنه لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا، في هذا المقام، الإشارة إلى أن عملية التجديد الداخلية هذه والقائمة على إعادة الترتيب والتبويب، لا يمكن أن تسير بعيدًا عن التأثير بروح العصر العلمية ومعطياته المنهجية، إذ تبقى تلك الروح وهاتيك المنهجيات الأساس الذي لا يمكن لعملية تجديد ناجحة أن تتم من دونه.

كانت هذه مقدمة لا بد منها للدخول إلى موضوع هذا المطلب، أما الخطة التي سوف نتبعها في هذا المقام فهي مستوحاة من الخطة التي اتبعناها في المطلب الأول، إذ سوف نقوم بمناقشة القضية على مستوى الكلام أولاً، ثم ننتقل بعد ذلك لمناقشتها على مستوى الجملة.

1-3-1- طروحات خاصة على مستوى الكلام:

وسوف تشمل طروحانا ثلاثة جوانب في هذا المستوى، هي: المفهوم والأشكال والتوظيف.

1-3-1- من حيث المفهوم:

ذكرنا حين الكلام على مفهوم الكلام في النحو العربي أن النحاة كان لديهم ثلاثة أشكال من التصورات لهذا المفهوم، وهي: التصورات القائمة على أساس ملاحظة المبنى، والتصورات القائمة على أساس ملاحظة المعنى، والتصورات القائمة على أساس ملاحظة المعنى والعلاقة.

وإن نظرة سريعة في تلك التصورات تبين أن الشكل القائم على أساس ملاحظة المعنى والعلاقة هو أكثر تلك الأشكال اكتمالاً وأولها بالاعتداد عندما نريد أن نقدم تحديداً واضحاً للكلام، إذ لا يمكن بناء ذلك من خلال الشكل الأول والقائم على أساس ملاحظة المبنى؛ وذلك لأن الاعتماد على المبنى وحده سوف يؤدي إلى إبعاد المعنى عن النحو وإلى المساواة بين تراكيب لغوية ليست سواء من الناحية الدلالية.

مثال: إن الاعتماد على المبنى وحده في تحديد الكلام سوف يجعلنا نساوي بين التركيب الإسنادي في قولنا: "العلم نور"، وقولنا: "العلم شر"، وذلك لتحقيق شرط الإسناد في كليهما.

ثم إن حصر المسألة بحدود التركيب الإسنادي هو تضيق مخل للمسألة، وسوف يؤدي في كثير من المواقع إلى التحكم والافتراض من خلال محاولات رد جميع التراكيب إليه. كما لا يمكن الاطمئنان إلى الشكل الثاني وهو الشكل القائم على أساس ملاحظة المعنى، لأن التعويل عليه وحده سيلزمنا بالمطابقة بين تراكيب تقع في مقامات مختلفة.

مثال: إن التعويل على المعنى المفيد في تحديد الكلام سيلزمنا بالمطابقة بين التركيب الشرطي في قولنا: "إن تدرس تنجح"، وقولنا: "أنت إن تدرس تنجح"، وذلك لتحقيق شرط المعنى المفيد هنا وهناك.

أضف إلى ذلك أن مثل هذا الشكل من التصورات (الشكل الذي اعتمدناه) قائم على أساس النظرة المركبة إلى المسألة، فالكلام في ضوءه لا يتحدد في ضوء عنصر واحد، وهو المعنى المفيد التام فقط، بل يجتمع إليه في ذلك عنصر آخر هو على درجة كبيرة من الأهمية حين النظر إلى التركيب اللغوي، وذلك العنصر هو استقلال.

على أن ما يُؤخذ على أصحاب مثل هذا الشكل من التصورات هو أنهم لم يوضحوا للقارئ تمامًا مقصودهم بعنصر الاستقلال، بل تركوا ذلك مرهونًا بالأمثلة التي كانوا يذكرونها هنا وهناك.

فماذا كان يقصد أولئك بعنصر الاستقلال؟:

إن نظرة سريعة في الأمثلة وفاحصة التي كانوا يذكرونها في هذا الباب، ومن ذلك ما نجده في الأقوال التالية:

1- " أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحويون الجمل، نحو: زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد، وفي الدار أبوك، وصه، ومه، ورويد، وحاء وعاء في الأصوات، وحسّ، ولبّ، وأف، وأوّه" ⁶⁵.

2- " فعلى هذا يكون قولنا: قام زيد كلامًا، فإن قلت شرطًا: إن قام زيد، فزدت عليه (إن) رجع بالزيادة إلى النقصان، فصار قولًا لا كلامًا ؛ ألا تراه ناقصًا ومنتظرًا للتمام بجواب الشرط، وكذلك لو قلت في حكاية القسم: " حلفتُ بالله "، أي: كان قسمي هذا، لكان كلامًا ؛ لكونه مستقلاً، ولو أردت به صريح القسم لكان قولًا من حيث كان ناقصًا، لاحتياجه إلى جوابه" ⁶⁶.

3- " فإذا قال: قام محمد، فهو كلام، وإذا قال: قام محمد وأخوك جعفر، فهو أيضًا كلام، كما كان لما وقع على الجملة الواحدة كلامًا، وإذا قال: قام محمد، وأخوك جعفر، وفي الدار سعيد، فهو أيضًا كلام، كما كان لما وقع على الجملتين كلامًا" ⁶⁷.

4- " ففرق (يعني سيبويه) بين الكلام والقول كما ترى، نعم وأخرج الكلام هنا مخرج ما قد استقر في النفوس وزالت عنه عوارض الشكوك، ثم قال في التمثيل: " نحو قلت: زيد منطلق، ألا ترى أنه يحسن أن تقول: زيد منطلق" ⁶⁸.

أقول: إن نظرة سريعة في تلك الأمثلة كافية لبيان أن الاستقلال الذي كان يعنيه أصحاب هذا الشكل من التصورات في سياق سعيهم لتحديد مفهوم واضح للكلام، إنما هو وقوع التركيب مفردًا لا يسبقه شيء أو وقوعه بعد القول.

كيف كان التركيب الواقع بعد القول تركيبًا مستقلًا في عُرف هؤلاء؟:

إن التدقيق في القول الرابع من الأقوال السابقة يُبيّن أن حجة هؤلاء في اعتداد هذا التركيب مستقلًا هي أنه كان في الأصل كذلك، وهو ما يعني أن هذا التركيب لديهم هو في حكم التركيب الواقع مفردًا لا يسبقه شيء، ولكن بالأصل لا بحقيقته الواقعة.

3-1-2- من حيث الأشكال:

⁶⁵ ابن جني، الخصائص، ج 1، ص 17.

⁶⁶ نفسه، ص 19.

⁶⁷ نفسه، ج 1، ص 26 – 27.

⁶⁸ نفسه، ج 1، ص 19.

لقد بيَّنَّا حين الحديث عن الأشكال اللغوية للكلام أن آراء النحاة في ذلك لم تكن واحدة، بل اتخذت خطأً متدرجًا من التضييق إلى التوسع، ففي حين كنا نجد الرؤية تضيق عند بعضهم حتى تكاد تحصره في شكل واحد، هو الشكل الإسنادي بنمطيه المعروفين، وهما التركيب الاسمي والتركيب الفعلي، نراها تتسع قليلاً عند غيرهم لتحصره بالتركيبين الإسنادي والشرطي المؤلف من أداة الشرط وجملتي الشرط والجواب، ثم نراها تتسع أكثر فأكثر عند فريق ثالث، إذ يزيد على التركيبين السابقين، وإن كان ذلك على نحو غير صريح، تركيبًا ثالثًا هو التركيب المؤلف من جملتين أو أكثر، ثم نجد التوسع الأكبر عند فريق رابع، إذ يزيد هذا على من سبقه من خلال إضافة التركيب القسمي المؤلف من جملي القسم والجواب، وكذلك من خلال الإشارة الصريحة إلى التركيب المؤلف من جملتين أو أكثر.

وإن نظرة سريعة في تلك الآراء تبين أن رأي الفريق الرابع، وهو الرأي الذي يميل إلى حصر الكلام في أربعة أشكال لغوية، هي: التركيب الإسنادي بنمطيه الفعلي والاسمي، والتركيب الشرطي، والتركيب القسمي، والتركيب المؤلف من جملتين أو أكثر، تبين أن هذا الرأي هو الرأي الأكثر سدادًا وتوفيقًا؛ وذلك، في رأينا، من باين: الأول أنه أكثر تلك الآراء انسجامًا مع معيار تمام الفائدة الذي يشكل أساس مفهوم الكلام عند معظم من تصدوا لتحديد هذا المفهوم، إذ إن الفائدة التامة لا يمكن أن تكون مرهونة بشكل لغوي أو شكليين، والثاني هو أنه أكثر انسجامًا مع واقع الاستعمال اللغوي الذي يؤكد وجود أشكال كثيرة نسبيًا للكلام.

إذًا هذا الرأي هو أكثر آراء النحاة توفيقًا في هذا الباب، لكن ذلك، وانطلاقًا من معيار تمام الفائدة الذي رأيناه في محاولات النحاة الهادفة إلى تحديد مفهوم الكلام، لا يعني أنه قد أتى بالقول الفصل في المسألة وأن الدارس لا يستطيع أن يضيف إلى ما جاء به أشكالًا أخرى، فذلك، في رأينا، غير وارد أبدًا، وما نراه أن باب الاجتهاد في ذلك مفتوح لكل من شاء وأراد.

اجتهاد بسيط:

نرى أن نضيف إلى ما جاء به الفريق الرابع شكليين آخرين للكلام، وليصبح عدد الأشكال اللغوية للكلام في لغة العرب ستة أشكال، أما الشكلان اللذان نرى إضافتهما فهما

التركيب الندائي، وهو التركيب المؤلف من أداة النداء والمنادى وجواب النداء، من مثل: (يا طالب، ادرس)، والتركيب الطلبي، وهو التركيب المؤلف من الطلب وجوابه، من مثل: (ادرس، تنجح).

أما حجتنا في ذلك، فهي أن تمام الفائدة في كلا التركيبين لا يتحقق إلا باكتمال عناصرهما لفظاً أو تقديرًا، إذ لا فائدة تامة في قولي في النداء: "يا طالب" إلا بقولي في الجواب: "ادرس"، ولا فائدة تامة في قولي في الطلب: "ادرس" إلا بقولي في الجواب: "تنجح". هذه مسألة، وهناك مسألة أخرى نود الوقوف عندها قبل مغادرة هذه النقطة من البحث، وهي أننا، كما قمنا بتوسيع دائرة أشكال الكلام، نرى أن نقوم باقتراح وضع هيكلية لتبويبها في أبواب خاصة، ثم إطلاق تسميات معينة على تلك الأبواب تجعل التعامل معها أكثر يسرًا ومرونة.

تبويب أشكال الكلام وتسميتها:

ونقترح، في هذا المقام، أن يتم سلك تلك الأشكال الكلامية، اعتمادًا على النظر في بنيتها المكونة وفي طبيعة العلاقات القائمة بين عناصرها، في ثلاثة أبواب كلامية: الأول يضم الشكل الإسنادي فقط، والثاني يضم الأشكال الشرطي والقسي والندائي والطلبية، والثالث يضم الشكل الذي يتألف من جملتين أو أكثر.

كما نقترح أن تتم تسمية كل باب من تلك الأبواب الثلاثة بتسمية خاصة تتناسب مع بنيته المكونة وطبيعة العلاقات القائمة بين عناصرها، بحيث نطلق على الباب الأول الذي يضم الشكل الإسنادي فقط اسم الكلام البسيط، وعلى الباب الثاني الذي يضم الأشكال الشرطي والقسي والندائي والطلبية اسم الكلام المركب، وعلى الباب الثالث الذي يضم الشكل الذي يتألف من جملتين أو أكثر اسم الكلام الممتد أو الكلام الحر.

3-1-3- من حيث التوظيف:

ذكرنا في المطلب السابق أن النحاة في المراحل الأولى من تاريخ النحو، وعلى رأسهم سيبويه، كانوا يستخدمون مصطلح الكلام بدلالته القائمة على تحقق الإفادة، كانوا يستخدمونه للدلالة على التركيب أو التراكيب التي كانوا يتخذونها مادة للتحليل النحوي، أو لنقل بمصطلحات اليوم: وحدة للتحليل النحوي.

والذي نراه، في هذا المقام، أنهم كانوا في غاية التوفيق والإصابة في توجيههم هذا، إذ ليس هنالك ما هو أولى من التركيب اللغوي المفيد فائدة تامة بأن يُتخذ وحدة للدرس النحوي، وهو التركيب الذي تكتمل فيه جميع الخصائص اللغوية والدلالية والتداولية.

على أننا، ومع إقرارنا بصواب ما قاموا به في هذا الباب، نرى أن الأمر يحتاج إلى بعض التقييد، فالكلام، كما رأينا، ليس شكلاً واحداً، بل هو أشكال متعددة، ومنها ما هو مؤلف من تراكيب لا يمكن تجاهلها حين الولوج إلى التحليل بوصفها وحدات أكثر داخلية، ما يعني أن الكلام لا يمكن أن يكون الوحدة الوحيدة في التحليل النحوي وإن كان ذلك لا ينفي أن يكون الوحدة الأساسية أو المركزية في هذا التحليل.

إذًا ما نراه هو أنه يجب العودة إلى صنيع الأوائل في اعتداد الكلام وحدة التحليل النحوي، ولكن بعد تقييد ذلك بكونه الوحدة المركزية لا الوحدة الوحيدة لهذا التحليل.

2-3-2- طروحات خاصة على مستوى الجملة:

وسوف نتبع هنا الخطة نفسها التي أتبعناها على مستوى الكلام، أي سوف نقوم بطرح ما نراه على مستويات المفهوم والأشكال والتوظيف.

1-2-3- من حيث المفهوم:

ذكرنا حين تولينا بيان مفهوم الجملة عند نحاة العربية أنهم لم يتفقا على مفهوم محدد لها، بل كانت لهم في ذلك مفهومات عدة، ثم قمنا بإرجاع تلك المفهومات إلى وجهتي نظر لديهم: الأولى كانت تسعى إلى بناء مفهوم الجملة اعتماداً على المبنى وحده، والثانية كانت تسعى إلى بنائه اعتماداً على المبنى والمعنى معاً.

والذي نراه أن أصحاب وجهة النظر الثانية القائمة على أساس اعتداد المبنى والمعنى قد كانوا أكثر إصابة توفيقاً من أصحاب وجهة النظر الأولى القائمة على أساس اعتداد المبنى وحده، وإن لم يكونوا قد أصابوا الحقيقة تامة غير منقوصة.

أما كونهم أكثر إصابة وتوفيقاً، فلأنهم أحسنوا عندما انتبهوا إلى أهمية عنصر المعنى في تحديد مفهوم الجملة، وأما كونهم لم يصيبوا الحقيقة كاملة، فلأنهم قد اعتدوا بعنصر المبنى، وأغفلوا عنصر العلاقة الذي يُعد، في رأينا، ركنًا أساسًا في عمليات التركيب اللغوي.

وللخروج من هذا المأزق نرى أن يتم استبدال عنصر العلاقة بعنصر المبنى، بحيث يصبح مفهوم الجملة قائمًا على أساس مراعاة عنصري المعنى والعلاقة.

كيف نحدد مفهوم الجملة في ضوء عنصر العلاقة؟:

لقد سبق أن وقفنا عند عنصر العلاقة حين تحدثنا عن مفهوم الكلام، وقلنا حينها: إن الكلام يتحدد - علاقياً - بوقوعه وحدة تركيبية مفردة لا يسبقها شيء حقيقةً أو أصلاً، والذي نراه، في هذا المقام، هو أن يتم تحديد الجملة - علاقياً - بوقوعها وحدة تركيبية تابعة حقيقةً لوحدة تركيبية أخرى تسبقها أو تلحقها أو تحيط بها.

أمثلة:

أ- لسانك إن صُنِّتَه صانك.

ب- جاء محمدٌ يركض.

ج- كان زيدٌ - رحمه الله - رجلاً كريماً.

د- جاء الذي أحترمه.

في جميع الأمثلة السابقة نجد أن التراكيب التي تحتها خطوط قد جاءت تابعة حقيقةً لما قبلها، وقد تنوعت أوجه تلك التبعية، فمنها ما هو دلالي، ومنها ما هو نحوي، وهذا النحوي، منه ما هو متصل بالإعراب، ومنه ما هو متصل بالروابط.

رأي في التركيب الواقع بعد القول:

لقد أشرنا سابقاً إلى أن أصحاب الشكل الثالث من أشكال تصورات مفهوم الكلام قد رأوا أن هذا التركيب هو تركيب كلامي باعتداده تركيباً مستقلاً بالأصل وقد أقرنا ذلك منهم، لكن الذي نراه ههنا هو أن نوسع دائرة النظر إلى هذا التركيب، فنعدده تركيباً جُملياً أيضاً، وذلك من منطلق أن استقلاله لديهم إنما كان بحكم الأصل لا بحكم الحقيقة والواقع.

3-2-2- من حيث الأشكال:

رأينا في المطلب السابق كيف أن آراء النحاة العرب في الأشكال التي تأتي عليها الجملة قد اتخذت مسارات عدة، ففي حين كان بعضها يلتزم نهج التضييق في ذلك حتى لا يقر إلا شكلاً واحداً للجملة، وهو الشكل الإسنادي، كان بعضها الآخر يسير في باب التوسع إلى

حد بعيد، فيعترف بوجود ثلاثة أشكال لها، هي: الشكل الإسنادي والشكل الشرطي والشكل الظرفي.

وبين هذا وذاك كانت هنالك مسارات تُؤثر التوسط في المسألة، ولكن هذه المسارات لم تكن متوافقة في اختياراتها، ففي حين كان بعضها يميل إلى الإقرار بوجود الشكلين الإسنادي والشرطي، كان بعضها الآخر يميل إلى الإقرار بوجود الشكلين الإسنادي والظرفي.

هذه خلاصة قول القوم في المسألة، وما نراه، في هذا المقام، هو أن مذهب التوسع هو المذهب الأكثر إصابة بغض النظر عن مدى موافقتنا على اعتدادهم التركيب الظرفي شكلاً من أشكال الجملة في كلام العرب.

أما حجتنا في إصابة مذهب التوسع، فهي أن الواقع اللغوي يدعم، وعلى نحو قوي، وجود أشكال للجملة غير التركيب الإسنادي، وقد يكون دليلنا على ذلك ما نراه في مثل هذا المثال:

- لسانك إن صُنِّتَه صانك.

ففي مثل هذا المثال، وهو مقيس على كلام العرب ولا لبس فيه، لا تجد بدءاً من جعل التركيب الشرطي (إن صنته صانك) كاملاً خبراً للمبتدأ (لسان)، ما يعني أن التركيب الشرطي يمكن أن يقع جملة واحدة في كلام العرب وأن ذلك ليس حكراً على التركيب الإسنادي.

على أن ميلنا إلى مذهب المتوسعين، في هذا المقام، لا يعني إقرارنا بصحة كل ما قالوه في هذا الباب، بل إننا لنرى فيه ما هو موضع اعتراض، وذلك قولهم باعتداد التركيب الظرفي، من مثل: (أفي الدار زيد)، و(أعندك زيد) جملة، وهو، في رأينا، من قبيل التركيب الإسنادي.

كما أن ذلك لا يعني إقرارنا بأنهم قد بلغوا في التوسع منتهاه الذي لا يترك زيادة لمستزيد، بل إن الناظر في التراكيب العربية ليجد عددًا لا بأس به منها يمكن أن يُدخل في هذا الباب، ومن ذلك التركيب القسسي، والتركيب الندائي، والتركيب الطلبي، والتركيب الذي يتألف من جملتين أو أكثر من غير ما سبق.

حجتنا في ذلك:

أما حجتنا في اعتداد مثل هذه التراكيب جملة، فهي أن معظم هذه التراكيب تؤلف بنية تركيبية واحدة بحيث لا يغني جزء منها عن الآخر، ولا يدفع ذلك وقوع الحذف فيها أحياناً، فالمحذوف، في هذا المقام، هو في حكم المثبت؛ ولذلك كنا نرى النحاة يقدرونه، هذا من جانب، ومن جانب آخر نجد أن كثيراً من هذه التراكيب يأتي أحياناً في الكلام مؤدياً وظيفة نحوية واحدة، ولبيان ذلك نقف عند أمثلة للتركيبين القسمي والمؤلف من جملتين أو أكثر.

- قال تعالى: "والذين جاهدوا فينا لهديتهم سبلنا" [العنكبوت، الآية: 69].
- قال تعالى: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُدخلنهم في الصالحين" [العنكبوت، الآية: 9].
- قال زهير⁶⁹:

لعمرك - والخُطوبُ مُغَيَّرَاتٌ وفي طول المعاشرة التقالي -
لقد باليتُ مَظْعَنَ أُمَّ أَوْفَى ولكنَّ أُمَّ أَوْفَى لا تُبَالِي

- قال تعالى: "إِنَّا أعطيناك الكوثر، فصلٍ لربِّك وانحر، إِنَّ شانئك هو الأبتَر" [سورة الكوثر، الآيات: 1، 2، 3].

ففي المثال الأول نجد أن التركيب القسمي المؤلف من القسم المحذوف وجوابه المذكور (لهديتهم سبلنا) قد أدى بجملته وظيفة الإخبار عن المبتدأ (الذين)، وكذلك في المثال الثاني، إذ نجد أن التركيب القسمي المؤلف من القسم المحذوف وجوابه المذكور (لنُدخلنهم في الصالحين) قد أدى بجملته وظيفة الإخبار عن المبتدأ (الذين).

أما في المثال الثالث، فنلاحظ أن التركيب المؤلف من جملتين: (والخُطوبُ مُغَيَّرَاتٌ، وفي طول المعاشرة التقالي) قد أدى بجملته وظيفة نحوية واحدة، هي الاعتراض بين القسم وجوابه.

وفي المثال الرابع نجد أن السورة من أولها إلى آخرها قد أدت وظيفة نحوية واحدة، وهي المفعولية لفعل القول: (قال).

⁶⁹ ابن أبي سلمي، زهير، ديوان زهير، شرح الأستاذ علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان،

كل ذلك يجعلنا لا نتحرج في إدخال تراكيب أخرى في طوق الجملة، وهو، في رأينا، أمر لو فعلناه لدفع عنا كثيرًا من حالات التعليل المنطقي الصوري، كما نراها عند الذين تصدوا لبيان الخبر في مثل قوله تعالى في الآيتين السابقتين، إذ لم يجدوا بدءًا من اعتداد الخبر قائمًا في التركيب القسسي، لكنهم أبوا أن يقولوا: إنما كان ذلك لأن هذا التركيب يؤلف بمجموعه جملة، بل قالوا: إن ذلك وقع لأن القسم وجوابه في الارتباط كالجملة الواحدة⁷⁰.

كما أن مثل ذلك قد يدفع عنا كثيرًا من مشكلات التكلّف والتمحُّل، كما نراها عند الذين حاولوا بيان الاعتراض في مثل قول زهير بن أبي سلمى السابق، إذ لم يجد هؤلاء متسعًا يحول دون قولهم بوقوع الاعتراض بكل ما وقع بين جزأي القسم، لكنهم أبوا أن يقولوا: إن ذلك المعترض في هذا المقام جملة واحدة.

وكذلك عند الذين يحاولون إعراب التركيب المؤلف من جملتين أو أكثر والواقع بعد القول، كما في سورة الكوثر التي ذكرناها منذ قليل، إذ نجدهم – وخوفًا على ما استقروا عليه من اعتداد مثل هذا التركيب كلاً – نجدهم يقولون: هو كلام وقع في موقع الجملة، وليس جملة على الحقيقة.

وإذا كنا نرى، في هذا المقام، توسيع نطاق أشكال الجملة، بحيث تشمل، إضافة إلى التركيبين الإسنادي والشرطي اللذين تابعتنا النحاة فيهما، التراكيب القسسي والندائي والطلبي والمؤلف من جملتين أو أكثر غير ما سبق، أقول: إذا كنا نرى ذلك، فإننا لا نرى ضيقًا في محاولة وضع هيكلية لتبويب تلك الأشكال وتسميتها بحيث يصبح التعامل معها أكثر سهولة على نحو ما فعلنا في شأن أشكال الكلام.

تبويب أشكال الجملة وتسميتها:

ونقترح، في هذا المقام، أن يتم سلك تلك الأشكال الجملية، اعتمادًا على النظر في بنيتها المكونة وفي طبيعة العلاقات القائمة بين عناصرها، في ثلاثة أبواب جملية: الأول يضم الشكل الإسنادي فقط، والثاني يضم الأشكال الشرطي والقسسي والندائي والطلبي، والثالث يضم الشكل الذي يتألف من جملتين أو أكثر.

⁷⁰ الزمخشري، المفصل في علم العربية، ص358.

كما نقترح أن تتم تسمية كل باب من تلك الأبواب الثلاثة بتسمية خاصة تتناسب مع بنيته المكونة وطبيعة العلاقات القائمة بين عناصرها، بحيث نطلق على الباب الأول الذي يضم الشكل الإسنادي فقط اسم الجملة البسيطة، وعلى الباب الثاني الذي يضم الأشكال الشرطي والقسامي والندائي والطلبي اسم الجملة المركبة، وعلى الباب الثالث الذي يضم الشكل الذي يتألف من جملتين أو أكثر اسم الجملة الممتدة أو الجملة الحرة.

3-2-3- من حيث التوظيف:

أشرنا في غير هذا الموضوع إلى أن النحاة، ابتداء من المبرد، بدؤوا يستخدمون مصطلح الجملة على التركيب الذي يشكل محور الدراسة النحوية متجاوزين بذلك مصطلح الكلام الذي كان يستخدم للغاية نفسها عند من سبقهم من علماء العربية، وقلنا حينها: إن التغيير في هذا المجال قد بدأ شكلياً، إذ لم يزد عن حدود تغيير المصطلح، لكنه ما لبث بعد ذلك أن تحول إلى تغيير جوهري، إذ أصبح يطلق على نمط من التركيب لا يعتد فيه بالبعد الدلالي المعنوي، وهو ما كان عنصرًا أساسيًا قبل ذلك.

والذي نراه، في هذا المقام، هو متابعة النحاة في صنيعهم هذا، وهو استخدام الجملة للدلالة على التركيب الذي يمثل وحدة الدراسة النحوية، ولكن ليس بوصفها دالة على الوحدة المركزية أو الأساسية، بل بوصفها دالة على الوحدة الثانوية أو المساعدة.

إذًا ما نراه هو تغيير المعادلة السائدة قديمًا، والمتمثلة باستخدام مصطلح (الكلام) في المراحل الأولى للدلالة على التركيب الذي يمثل وحدة الدرس النحوي، ثم استخدام مصطلح (الجملة) للقيام بهذا المهمة في المراحل اللاحقة (بغض النظر عن اختلاف التركيب أو بقائه على ما هو عليه)، ليكون الأمر على النحو التالي: وهو استخدام المصطلحين معًا، ولكن بوصف الأول (الكلام) يدل على الوحدة المركزية لهذا الدرس، والآخر (الجملة) يدل على الوحدة الثانوية له.

4- خاتمة:

لقد حاولنا في هذا البحث الإسهام في تجديد النحو العربي من خلال الوقوف عند مصطلحي الكلام والجملة اللذين يعدان من أهم مصطلحاته، وقد تم ذلك على مرحلتين: الأولى وقفنا فيها عند قضايا تتصل بهذين المصطلحين في كتب المتقدمين والمتأخرين من النحاة، من مثل تاريخ النشأة والوظيفة والمفهوم والأشكال، والثانية حاولنا فيها تقديم طروحات جديدة في شأن هذين المصطلحين من خلال إعادة النظر في أقول النحاة في بعض القضايا السابقة من مثل الوظيفة والمفهوم والأشكال وترجيح بعضها على بعض وتوضيح ما وقع في بعضها من لبس.

وقد استطاع البحث - بفضل الله وتوفيقه - أن يتوصل إلى مجموعة من النتائج والاقتراحات، يمكن أن نسوقها على النحو التالي:

1- النتائج:

وهي تخص المرحلة الأولى التي تتولى تقديم توصيف لهذين المصطلحين في كتب النحاة من خلال الوقوف عند قضايا النشأة والوظيفة والمفهوم والأشكال، وأهمها:

أ- أن مصطلح الكلام يعود في نشأته الأولى إلى المرحلة الأولى من تاريخ النحو، أو لنقل: مرحلة التأسيس، يدلنا على ذلك وجوده على نحو ناضج في كتاب سيبويه الذي يمثل بدايات التراث النحوي المكتوب، كما يمثل خلاصة جهود من سبقه؛ إذ ليس لسبويه، في الحقيقة، ما هو أكثر من تثبيت جهود من سبقه من علماء العربية، وهو على كل حال فضل لا يُنكر وجهد لا يُكفر.

ب- أنه قد استُخدم في تلك المرحلة امتدادًا إلى عصر سبويه ومن جاء بعده بقليل للدلالة على الوحدة التركيبية التي تمثل محور الدرس النحوي الذي أقاموا بنيانه.

ج- أن النحاة لم يتفقوا على مفهوم محدد لهذا المصطلح، بل ظلت تصوراتهم له مرهونة بوجهة النظر التي كانوا ينطلقون منها حين البحث في هذه المسألة، وقد استطاع البحث أن يفرق بين ثلاثة أشكال لتصوراتهم في هذا المجال: الأول يمثل التصورات التي قامت على أساس ملاحظة المبني، والثاني يمثل التصورات التي قامت على أساس ملاحظة المعنى، والثالث يمثل التصورات التي قامت على أساس ملاحظة المعنى والعلاقة.

د- أنهم لم يتفقوا على عدد محدد من الأشكال التي يتجلى من خلالها الكلام، بل كانت لهم في ذلك آراء عدة، حصرها البحث في أربعة آراء: الأول يرى أن للكلام شكلاً واحداً يمثله التركيب الإسنادي، والثاني يرى أن له شكلين، هما التركيب الإسنادي والتركيب الشرطي، والثالث يرى أن له ثلاثة أشكال، هي التركيب الإسنادي والتركيب الشرطي والتركيب المؤلف من جملتين أو أكثر، والرابع يرى أن له أربعة أشكال، هي: التركيب الإسنادي والتركيب الشرطي والتركيب المؤلف من جملتين أو أكثر والتركيب القسمي.

هـ- أن مصطلح الجملة يعود في نشأته الأولى إلى القرن الثالث الهجري، وتحديدًا إلى زمن محمد بن يزيد المبرد، وكتابه الموسوم بـ (المقتضب).

و- أنه قد استُخدم لدى المبرد ومن تلاه من النحاة إلى يومنا هذا للدلالة على الوحدة التركيبية التي تشكل محور البحث النحوي وإن كانت معايير تحديد هذه الوحدة قد اختلفت ما بين المبرد ولاحقيه، إذ كان المبرد ينطلق من عنصر الإفادة المعنوية في تحديده لتلك الوحدة، في حين انطلق لاحقوه من عنصر المبنى متجاوزين كل دور للمعنى واكتماله في ذلك.

ز- أن النحاة لم يتفقوا على مفهوم محدد للجملة، بل ظلت مساعيمهم في ذلك رهينة وجهات النظر التي كانوا ينطلقون منها، وقد قام البحث برد مفهوماتهم، في هذا المجال، إلى وجهتي نظر: الأولى هي وجهة النظر المبنوية، والثانية هي وجهة النظر المعنوية.

ح- أنهم لم يتفقوا على عدد محدد من الأشكال التي تتجلى بها الجملة في لغة العرب، بل كانت لهم آراء عدة في ذلك، حصرناها في أربعة مسارات: الأول يبالغ في التضييق حتى لا يقر إلا شكلاً واحداً، وهو التركيب الإسنادي، والثاني يسعى إلى التوسع في المسألة، فيقر ثلاثة أشكال، هي التركيب الإسنادي والتركيب الشرطي والتركيب الظرفي، والثالث اتخذ التوسط في المسألة منهجاً، فأقر شكلين، هما: التركيب الإسنادي والشرطي، والرابع سار على نهج الثالث إلا أنه خالفه في الاختيار، إذ أقر التركيب الإسنادي وأنكر التركيب الشرطي واستبدل به التركيب الظرفي.

2- الاقتراحات:

وهي تخص المرحلة الثانية القائمة على إعادة النظر في أقوال النحاة في بعض القضايا السابقة من مثل الوظيفة والمفهوم والأشكال وترجيح بعضها على بعض وتوضيح ما وقع في بعضها من لبس، وأهمها:

أ- تبني الشكل الثالث من التصورات المتصلة بتحديد مفهوم الكلام، وهو الشكل الذي يقوم على أساس ملاحظة عنصري المعنى والعلاقة، ويحدد الكلام بأنه " اللفظ المستقل المفيد لمعناه "، ولكن بعد توضيح مقصود أصحاب هذا الشكل بمعيار الاستقلال، وبيان أنهم يقصدون به: وقوع التركيب مفردًا لا يسبقه شيء حقيقةً أو أصلًا.

ب- إقرار فكرة التوسع في أشكال الكلام التي رأيناها عند أتباع الفريق الرابع الذين جعلوا أشكال الكلام أربعة، هي التركيب الإسنادي والتركيب الشرطي والتركيب القسمي والتركيب الذي يتكون من جملتين أو أكثر من غير ما سبق، ولكن دون موافقتهم في عدد تلك الأشكال، إذ رأينا أن نضيف إلى ذلك التركيبين الندائي والطلبي.

ج- اقتراح تبويب لتلك الأشكال يجعلها في ثلاثة أبواب: الأول يضم التركيب الإسنادي فقط، والثاني يضم التراكيب الشرطي والقسمي والندائي والطلبي، والثالث يضم التركيب الذي يتألف من جملتين أو أكثر من غير ما سبق، ثم اقتراح تسميات لتلك الأبواب بحيث تتم تسمية الباب الأول باسم الكلام البسيط، والثاني باسم الكلام المركب، والثالث باسم الكلام الممتد أو الحر.

د- العودة إلى صنيع الأوائل باعتبار مصطلح الكلام دالًّا على الوحدة التركيبية التي يقوم عليها درس النحو، ولكن بعد تعديل بسيط يقتضي النظر إليه على أنه دالٌّ على الوحدة التركيبية المركزية، وليس على الوحدة الوحيدة المطلقة.

هـ- تجاوز وجهتي نظر النحاة في تحديد مفهوم الجملة، وهما الوجهة التي حاولت أن تحدده على أساس معيار المبني، والوجهة التي حاولت أن تحدده على أساس معياري المبني والمعنى، واعتماد وجهة نظر جديدة - وإن كانت أقرب إلى الثانية - تسعى إلى تحديده على أساس معياري المعنى والعلاقة، كما هي الحال عند أصحاب الشكل الثالث من أشكال تصورات مفهوم الكلام، ولكن بعد تقييد عنصر العلاقة بقيد عدم الاستقلال، بحيث يصبح مفهوم الجملة دالًّا على التركيب المفيد غير المستقل عن غيره.

و- توسيع دائرة النظر إلى التركيب الواقع بعد القول، وذلك باعتداده جملة إلى جانب اعتداد فريق من النحاة إياه كلامًا.

ز- موافقة أنصار التوسع في أشكال الجملة والذين قالوا بوجود ثلاثة أشكال لها، هي التركيب الإسنادي والتركيب الشرطي والتركيب الظرفي، في مذهبهم، ولكن من دون موافقتهم في صحة الأشكال التي افترضوها وفي أنهم قد بلغوا غاية الحصر في ذلك، بل نرى أنهم قد كانت عندهم مجانيبات للصواب في هذا وذاك، إذ نجدهم قد جعلوا التركيب الظرفي منها، ونحن لا نراه كذلك، بل نراه من قبيل التركيب الإسنادي، كما نجدهم لم يذكروا التركيب القسسي، والتركيب الندائي والتركيب الطلبي، والتركيب المؤلف من جملتين أو أكثر، وهي، في رأينا، تراكيب جديدة بأن تُدخل في هذا الباب وتُعدّ منه.

ح- اقتراح تبويب لتلك الأشكال يجعلها في ثلاثة أبواب: الأول يضم التركيب الإسنادي فقط، والثاني يضم التراكيب الشرطي والقسسي والندائي والطلبي، والثالث يضم التركيب الذي يتألف من جملتين أو أكثر من غير ما سبقت الإشارة إليه، ثم اقتراح تسميات مناسبة لتلك الأبواب، بحيث تتم تسمية الباب الأول باسم الجملة البسيطة، والثاني باسم الجملة المركبة، والثالث باسم الجملة الممتدة أو الحرة.

ط- مجازاة المبرد ومن تابعه في اعتداد مصطلح الجملة دالاً على الوحدة التركيبية الذي يقوم عليها درس النحو، ولكن بوصفه دالاً على الوحدة الثانوية إلى جانب المصطلح الذي يدل على الوحدة المركزية، وهو مصطلح الكلام.

مراجع البحث:

القرآن الكريم.

- 2- ابن أبي سلعى، زهير، ديوان زهير، شرح الأستاذ علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1408هـ - 1988م.
- 3- ابن الناظم، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1420هـ - 2000م.
- 4- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية - القسم الأدبي، ط2، 1371هـ - 1952م، ج1.
- 5- ابن عقيل، شرح ابن عقيل ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة - مصر، 1400هـ - 1980م، ط20، ج1.
- 6- ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت - لبنان، 1411هـ - 1991م، ج2.
- 7- ابن يعيش النحوي، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ج1.
- 8- أبو علي الفارسي، الإيضاح العضدي، تحقيق حسن شاذلي فرهود، ط1، 1389هـ - 1969م.
- 9- الأسدي، الدكتور حسن عبد الغني جواد، مفهوم الجملة عند سيوييه، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2007م.
- 10- الجرجاني، عبد القاهر، المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق الدكتور كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1982م، ج1.
- 11- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، المفصل في علم العربية، تحقيق الدكتور فخر صالح قدازة، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 1425هـ - 2004م.
- 12- سيوييه، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ط3، 1408هـ - 1988م، ج1 - ج2 - ج3.

- 13- السيوطي، الإمام جلال الدين ، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1418هـ - 1998م، ج1.
- 14- الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة - مصر، دت.
- 15- عبد اللطيف، الدكتور محمد حماسة ، بناء الجملة العربية، دار غريب، القاهرة - مصر، 2003م.
- 16- العكبري، أبو البقاء، مسائل خلافية في النحو، تحقيق محمد خير الحلواني، دار الشرق العربي، بيروت - لبنان. حلب- سورية، ط1، 1412هـ - 1992م.
- 17- الغلابيني، الشيخ مصطفى ، جامع الدروس العربية، مراجعة الدكتور محمد أسعد النادري، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت - لبنان، ط34، 1418هـ - 1997م، ج1.
- 18- قباوة، الدكتور فخر الدين ، إعراب الجمل وأشباه الجمل، دار القلم العربي، حلب - سورية، ط5، 1409هـ - 1989م.
- 19- المبرد، محمد بن يزيد ، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة - مصر، ط3، 1415هـ - 1994م، ج1 - ج4.

تمَّ بعونه تعالى وتوفيقه

البحث الرابع

البلاغة العربيّة بين البيان التداوليّ والبدعيّ الأسلوبيّ قراءة وتأصيل

د. عامر خليل الجراح

أستاذ مساعد في معهد اللُّغات الحيّة في جامعة ماردين أرتوقلو

البلاغة العربية بين البيان التداولي والبديع الأسلوبي

قراءة وتاصيل

د. عامر خليل الجراح *

ملخص

إنّ الحديث عن مفهوم البلاغة في التراث العربيّ، وعرض إشكالاته وحلّها، لا يمكن أن يثمر من دون ربطه بالحديث عن التطوّر التاريخي للبلاغة، ومن دون المرور بالمنعطفات الكبرى التي مرّت بها؛ إذ إنّ ذلك يكشف لنا عن نمطين من التفكير والعرض والتحليل في مراحل نشأة البلاغة: النمط الأوّل نمط عربي صرّف يمثّله أدبيّاً شعراء الفحول إلى منتصف القرن الثاني من الهجرة أو إلى نهايته، وقد يتناول أمدّه عند فئة معيّنة محدودة، كما تمثّله نقدياً وبلاغياً مدرسة الطبع وأنصار القديم، وهو يجسّد ما يمكن أن نسمّيه (بلاغة البيان التداولي). أمّا النمط الآخر فيتمثّل في ما يقابل الأوّل، ونعني به مدرسة البديع والشعراء المولّدين الذين تأثّروا بالثقافات الأجنبية، وهو يمثّل (بلاغة البديع الأسلوبي)، كما أن تلك القراءة لا يمكن أن تثمر من غير عرض أقوال البلاغيين القدماء ضمن معانٍ عامّة احتضنتها البلاغة، وهو ما سيسعى إليه بحثنا هذا.

الكلمات الدالّة: البلاغة، البيان، البديع، التداولية، والأسلوبية، المعنى.

مقدّمة

لم يخلُ مصطلح البلاغة قبل استقراره عند السكاكي (626هـ) من إشكالات عديدة بسبب تجاوره مع مصطلحات أخرى مثل الفصاحة والبراعة والبيان والبديع أحياناً، واستبدالها به أحياناً آخر عند المتقدّمين، أمّا المعاصرون فقد شكّك أغلبهم بشرعية مصطلح البلاغة وأهليّته، ودعوا إلى استبدال الأسلوبية به، بدعوى عدم فاعليّته وجدواه بما هو عليه في طرحه السكاكي، وهو ما قد نوافقهم فيه، غير أننا لا نوافقهم القول بعدم شرعية المصطلح الذي بات علماً على علم وثقافة امتدت لقرون وترسّخت في

* أستاذ مساعد في معهد اللّغات الحيّة في جامعة ماردين آرتوقلو، amer.j.80@gmail.com

ذهنية الأمة، بل نرى وجوب مراجعة المفهوم في حدوده وأدواته وإجراءاته، ونرى أن ذلك يكون بالرجوع إلى بلاغة الأوائل لمّا تبين لنا عجز بلاغة المتأخرين من لدن السكّاكي.

إن حلّ الإشكالات التي سنعرض لها في بحثنا يدفعنا إلى أن ندير البحث على ستّة مباحث: الأوّل: في بيان مفهوم البلاغة في التراث العربي من خلال بيان دلالاتها وآراء البلاغيين المتقدّمين فيها، والثاني: في بيان أشكال البلاغة استنادًا إلى القراءة التاريخية لمسيرة البلاغة، وفيه نمرّر إشكال المصطلح، والثالث: في بلاغة البيان عند الجاحظ بوصفه الممثل الأبرز لها، والرابع: في معنى البديع في التراث البلاغيّ والنقديّ عند العرب، والخامس: في نقد المعنى عند شعراء البديع؛ إذ إنّ توضيح الموقف من المعنى يسهم في جلاء الفروق بين بلاغتي البيان والبديع، والسادس: في بلاغة البديع عند عبد القاهر الجرجاني بوصفه يمثّل بلاغة البديع من جهة تأثيره الكبير في الدراسات الأسلوبية في من خلفه.

المبحث الأوّل: مفهوم البلاغة وتجلياتها في التراث العربيّ

تدلّ مادّة بلغ في اللغة على الوصول والانتهاء والإيصال والاجتهاد والمقاربة والجودة والتوكيد والإفصاح عن مكنونات النفس؛ قال ابن منظور: "بلغ الشيء يبلغُ بُلُوغًا وبِلاغًا: وصل وانتهى، وأبلغه هو إبلاغًا وبَلَّغَهُ تَبْلِيغًا... وبالعُ يُبَلِّغُ مبالغةً وبِلاغًا: إذا اجتهد في الأمر... وبلغتُ المكان بِلُوغًا: وصلتُ إليه، وكذلك إذا شارفتُ عليه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، أي قاربته... وشيءٌ بالعُ أي: جيّدٌ، وقد بلَغَ في الجودة مبلغًا... وقيل: يمينٌ بِالِغَةِ أي مؤكّدة... وَرَجُلٌ بَلِيغٌ وَبَلُغٌ وَبَلُغٌ: حسنُ الكلام فَصِيحُهُ يُبَلِّغُ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه"⁽¹⁾. والبلاغة لا تخرج في الحقيقة عن تلك المعاني المعجمية، وإن كانت الدلالة الاصطلاحية العلمية التي اشتهرت إلى يومنا تقول شيئًا جديدًا؛ إذ تعدّ بلاغة الكلام في "مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحتها"⁽²⁾. فلم تُبقِ من تلك المعاني المعجمية سوى الفصاحة، ووقفت على مطابقة حال السامع، وبدا أنّها احتضنت المعاني الأخرى على نحو غير صريح؛ نفهم ذلك بالرجوع إلى أقوال السابقين، فالفصاحة عند أبي هلال

(1) - ابن منظور: لسان العرب، ط3 دارصادر، بيروت 1414 هـ، مادة (بلغ).

(2) - القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم خفاجي، ط3 المكتبة الأزهرية للتراث، 1993م، 80/1. والشريف الجرجاني: معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة (د.ت)، 43.

العسكري(395هـ) مثلاً تدلّ على البيان والإظهار مع فخامةٍ وجزالةٍ في اللفظ⁽³⁾، وإليه ذهب ابن الأثير(637هـ) وغيره، غير أنّ ابن الأثير رأى أنّ البيان يتأتّى من الفهم والإفهام، وذلك من كون الكلام مألوفاً في الاستعمال عند العرب، وألفته في الاستعمال جائية من حسنه عندهم⁽⁴⁾، وهذا يلخّص ما أراه القزويني(739هـ) في سرده شروطاً فصاحة الكلام⁽⁵⁾، كما يلخّص المعاني المعجمية لكلمة بلاغة، خلا معنى الاجتهاد والمبالغة الذي نجده في تتبّعنا مفهوم البلاغة في تراث النشأة البلاغية قبل السكّاني أو القزويني، ولا سيما عند البلاغيين والنقاد الذين ناصرُوا مذهب البديع.

تبين لنا إذاً أنّ مفهوم الفصاحة حين تماهى مع مفهوم البيان انتهى إلى بلاغة بيانية تصل الحسن بالإظهار (التداول) وتوثقه به دون أن تتجاوزه إلى معنى الاجتهاد والمبالغة (التخييل)؛ إنّ هذه النتيجة المجملة العاجلة لها أجل من الحديث مفصّل في المباحث الآتية، ونرى أن نعرّج إلى استيفاء الطرح التراثي لمفهوم البلاغة في دائرة الدلالات التي تحملها في نظر المتقدمين؛ أي في تراث النشأة، ولعل ابن رشيقي (456هـ) في (عمدته) يعدّ نموذجاً مثاليّاً في استقصاء جلّ التعريفات التي تحدّ البلاغة؛ إذ تُنَيّفُ عنده على الأربعين⁽⁶⁾، نقلها عن غيره من المتقدمين، وكان أكثرها منقولاً عن الجاحظ (255هـ)، وظهر لنا من استقراء دلالاتها أنها تحمل معاني: الإيجاز الذي كان أكثر حضوراً، ثمّ تردّد بعده معنى الوضوح، ثمّ التحسين، ثمّ الحجاج الذي أُريد به القدرة على حجاج الخصم، والقدرة على التصرف بالكلام ونيل المرام على نحو أكبر، ثم معنى الإصابة⁽⁷⁾.

أمّا المتأخرون فكانوا يرون أن البلاغة تقوم على جملة من أساليب القول وأفانينه؛ جُمعت تحت اسم (البديع)، وكان ابن المعتزّ(296هـ) من الرواد المتحدّثين في هذا

(3) - أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تح: علي محمد الجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1 المكتبة العصرية، صيدا بيروت 2006م، 80.

(4) - ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت 1999م، 91/1.

(5) - القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، 72/1- وما بعدها.

(6) - ابن رشيقي القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، حقّقه وفصّله وعلّق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، ط5 دار الجيل، بيروت 1981م، 242/1- إلى 250.

(7) - عامر الجراح: التفكير البياني عند العرب؛ قراءة تداولية، ط1 دار سنابل، إسطنبول 2019م، 85.

الشأن في كتابه الذي يحمل عنوان (البديع) الذي أحصى فيه عددًا من تلك الأساليب⁽⁸⁾، ويرتبط البديع البلاغيّ بالنقد، وتحديدًا بالمذهب النقديّ المسَمّى البديع في مقابل مذهب الطبع، يوضّح ذلك ما أورده السيوطيّ (911هـ) في حاشيته على تفسير البيضاوي (685هـ)، يقول في ذكره علوم البلاغة وتوابعها: "إن ذلك كان يسمى قديمًا صنعة الشعر، ونقد الشعر، ونقد الكلام... وإنما التسمية بالمعاني والبيان والبديع حادثة من المتأخرين"⁽⁹⁾. فالنقد لم يكن مستقلًا عن البلاغة، فتتبع الآثار ذات الصلة تبرز ما ذكره السيوطي من أن النقد إنما هو علوم البلاغة، فكتاب (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر (337هـ) الذي يُعدّ أهمّ كتابٍ قديمٍ واضحٍ في النقد يتضمّن الكلام على اللفظ والمعنى إلى جانب الوزن والقافية، فيذكر فيه أبحاثًا من البلاغة مثل السجع والمقابلة والتشبيه والتمثيل والمساواة والإرداف وغيرها، ونشير إلى أن قدامة كان منظّمًا لعمله؛ إذ انطلق من المعنى اللغوي لكلمة (نقد)، وهو تمييز جيد الشعر من رديئه، وربط ذلك بالبديع الذي كان قديمًا شاملًا أغلب الفنون البلاغية المعلومة اليوم؛ ذلك أنّه سمّى كتابه (نقد الشعر في البديع) بحسب ما ذكر حاجي خليفة⁽¹⁰⁾، فبلاغة البيان تتأسّس على وضاحة المعاني، في حين أن بلاغة البديع تُعنى بالأشكال، ثم تطوّر الأمر مع تقدّم الزمان إلى أن صار البديع في درجة أسلوبية أعلى من خلال التركيز على التصوير والتأثير عبر زيادة الاهتمام بالتخييل، وجعل تطوير الأشكال والأساليب البديعية سبيلًا لذلك، ويُعدّ المبرّد من المتقدمين الذين جمعوا في حدّ البلاغة بين بلاغة البيان وبلاغة البديع في دلالتها الأولى قبل أن يصبح التخييل أداتها الأبرز؛ إذ قال: "حقّ البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدة شكلها، وأن يُقرّب بها البعيد، ويُحدّف منها

(8) – بلغ عدد أساليب البديع عند ابن المعتز ثمانية عشر أسلوبًا، وازداد عند اللاحقين حتى بلغ مئة واثنين وأربعين أسلوبًا عند ابن حجر الحموي في بديعته في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو أكبر عدد أدركته.

(9) – السيوطي، جلال الدين: نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي)، جامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين المملكة العربية السعودية 1424هـ = 2005م، 31/1.

(10) – حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تج: محمد شرف الدين يالتقيا، ورفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث، بيروت (د.ت)، 2/ 1973.

الفضول"⁽¹¹⁾. فالإحاطة بالمعنى، وتقريب البعيد، وحذف الفضول، وتقارب الكلمات وتعاضدها (تناسبها) دلالاتٌ تصبّ في معنى البيان الذي عمدته تأخي الكلمات وتأنسها وخدمتها المعاني، أمّا استهداف الاختيار والتحسين فذلك شأن البديع، والبديع بصيغته النظرية التخيلية المتقدّمة ألفينا صداه الكبير عند عبد القاهر الجرجاني(471هـ) في كتابه (أسرار البلاغة)، وهو ما سنفضّله لاحقاً.

نرى أن البلاغة في تراثنا العربيّ، بحسب ما تقدّم، كانت ذات تجلّيين أو توجّهين: أولهما كان يرى في البلاغة وسيلةً للتعبير والبيان (الثقيف والتواصل والتداول)، والتوجّه الآخر يذهب إلى عدّ البلاغة سبباً للتصوير والبديع (الثقاف والتأثير والتخييل)، على أنّ الخطّابي(388هـ) سمّى التجلّيين بياناً؛ قال: "البيان اثنان: أحدهما ما تقع به الإبانة عن المراد بأي وجه كان، والآخر ما دخلته الصنعة بحيث يروق للسامعين ويستميل قلوبهم، وهو الذي يُشبّه بالسحر إذا خلب القلب وغلب على النفس، حتى يحوّل الشيء عن حقيقته، ويصرفه عن جهته، فيلوح للناظر في معرض غيره، وهذا إذا صُرف إلى الحق يُمدح، وإذا صُرف إلى الباطل يُدّمّ. قال: فعلى هذا فالذي يُشبّه بالسحر منه هو المذموم"⁽¹²⁾، ونشير إلى أن دلالة الثقيف والتداول تستبطن معنى السير على الطبع وتغيّي البيان وتقديم ثقافة لغوية وموضوعية (أدبية) للمتلقّي الخاصّ بهيأته: الناقد، والأديب، عمدتها المعنى والمضمون في الغالب ممّا كان يُطلق عليه (أساليب العرب)؛ أي طرائق العرب ومجازاتهم في الكلام⁽¹³⁾، وخير من يمثّل ذلك مشروع ابن قتيبة(276هـ) في كتابه (أدب الكاتب) الذي أقامه على تقديم المعرفة (ثقيف معنوي موضوعي أو أدبي) وتقويم اللسان واليد (ثقيف لغوي)⁽¹⁴⁾، ويتضمّن كتابا: (معاني القرآن) للفرّاء(207هـ)، و(مجاز

(11) – المبرّد: البلاغة، تج: رمضان عبد التواب، ط2 مكتبة الخانجي، القاهرة 1985م، 85.

(12) – ابن حجر العسقلاني: فتح الباري؛ شرح صحيح البخاري، قام بإخراجه وصحّحه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت 1379هـ، 237/10.

(13) – تحدّث الدكتور أحمد قدّور عن الثقيف اللغوي؛ غير أنه عنى به ما ينشئ بضده وهو اللحن أي ثقيف اللسان. وكانت نظرتة إليه لغوية في سياق الحديث عن التطوّر الدلالي، ونشير إلى أنها جزء من مرادنا من كلمة ثقيف التي تتسلّط على اللغة والأدب. يُنظر: مصنّفات اللحن والثقيف اللغوي حتى القرن العاشر الهجريّ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1996م، 11.

(14) – ابن قتيبة: أدب الكاتب، تج: محمد الداليّ، ط2 مؤسسة الرسالة، بيروت 1996م، 12.

القرآن) لأبي عبيدة(210هـ) كلامًا على أساليب العرب استعاناً بها في بيان كثيرٍ من معاني القرآن وأساليبه، أمّا كلمة التثاقف فتستدعي معاني التكلّف والتصنّع والتخييل والابتداع وادّعاء ثقافة جديدة عند أدباء البديع بخاصّة، تخرج عن حدود الثقافة العربية الصّرف من جهة المضامين، ومن جهة الاستعمال اللغوي القائم على التصنّع و(الهيّام الأسلوبية)، والحقّ أنّ هذا ما أشار إليه الفراهي(1349هـ) إذ وصل الصدق بالبيان؛ يقول: "اعلم أنّ الأُمَّة التي همُّها الصّدقُ في الكلام تزيّدُ كلّ يومٍ من حقائق الأشياء ما يسهلُ به طريقُ البيان للمُتأخّر، فاللغة تكتسبُ بذلك وسائلَ وأدواتٍ بها تتكاملُ وتترقّى وضاحَةً وقوَّةً، والأُمَّة التي همُّها الإغراقُ، والولوعُ بالمبالغة، والغفلةُ عن حقائق الأشياء، تملأُ اللسانَ بأمرٍ مُبعدة عن البيان"⁽¹⁵⁾. فكيف تجلّى مفهوم بلاغة البيان أو التداول أو التثقيف وبلاغة البديع أو التخييل أو التثاقف عند البلاغيين الأوائل؟

المبحث الثاني: مفهوم البيان التداولي في التراث البلاغي العربيّ

يحمل البيان في اللغة معاني الوضوح والكشف والظهور والإفصاح، وهي معانٍ معجمية، وثمة معانٍ اصطلاحية أو قريبة إلى الاصطلاح مثل: الفصاحة واللسن والذكاء والسماحة والظرافة وعلوّ الكلام وقلة الإرتاج وإظهار المقصود وبلاغة اللفظ والسحر والججاج⁽¹⁶⁾. إن المعاني السابقة لا تخرج عن دلالة مصطلح البيان التداولية، وإن لمسنا في بعضها سمات أسلوبية مثل بلاغة اللفظ والسحر، كما نلمس في بعضها الآخر اتصالاً بالمتكلم، فالبيّن من الرجال السّمحُ اللسان، الفصيحُ، الظريفُ، العالي الكلام، القليلُ الرّج، أمّا المعاني التداولية فتتمثّل في الوضوح والكشف والظهور والإفصاح والججاج⁽¹⁷⁾. في ضوء الحديث عن المفهومات، ومنها مفهوم البيان نرى أنه من التعسّف الركون إلى بساطة ما تقوله الكلمة، ولا سيّما في ظلّ الانفتاح الذي أحدثته الدراسات اللسانية والتأمّلات الناتجة عنها، فكلمة (البيان) ذات أبعاد وجودية وتكوينية وفكرية نستقيها من القرآن الكريم؛ يقول تعالى: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن: 1-2-3-4]، فاقتزان ذكر البيان بذكر خلق الإنسان يشي بدلالته

(15) - الفراهي: جمهرة البلاغة، تج: محمد الرهاوي وعامر الجراح، ط1 دار سنابل، إسطنبول 2019م، 85.

(16) - يُنظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (بين).

(17) - يُنظر: عامر الجراح: التفكير البياني عند العرب؛ قراءة تداولية، 82.

الوجودية، كما يشي بأهميته وارتباطه بحقيقة الإنسان، فالإنسان هو المخلوق المبين المعبر عمّا في نفسه فكراً وشعوراً، وقد تختلف طرق التعبير غير أنّ التعبير باللفظ أشرفها وأدّلها، وطرق التعبير تحدّث عنها الجاحظ، وهو ما سنبيّنه في المبحث التالي، أمّا دلالة البيان التكوينية فتظهر بذكر تعلّم القرآن، فالوجود بالبيان العامّ، والتكوّن بالبيان الخاص العالي الذي يعلوه البيان القرآنيّ الذي يعلو ولا يُعلى عليه، فالبيان ذو أبعاد فكرية وثقافية ارتبط بوجدان الأمة، كما ارتبط بوجدانها. لقد بدأ الوعي المهجي بمكانة البيان في الثقافة العربية على نحو واضح في الأفكار التي طرحها الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين)، وليس بأدلّ على ذلك من اختياره إيّاه عنواناً لكتابه هذا. لقد كان البيان الأصل الذي يوطّر اشتغالات النقاد والبلاغيين الأوائل الذوقية والمعرفية في مقارباتهم النصوص المختلفة التي يتسنّمها النصّ القرآنيّ، وكان لقوانينهم النقدية التي تأثروا فيها بالدراسات اللغوية النصيب الأوفر في التعبير عن الثقافة البيانية⁽¹⁸⁾، ونشير هنا تحديداً إلى مدرسة الطبع وقانونها المتمثّل في عمود الشعر، كما نشير إلى ارتباط مفهوم البيان بشرف المعنى ونفعه الذي يعضده مصطلح الفحولة، ويقابله السخف المعضود بالتوليد⁽¹⁹⁾، أمّا تحسين الألفاظ فيأتي تبعاً للمعنى وخدمةً له. إن هذا النمط من التحسين الذي يتعلّق باللفظ مفردات وتراكيب على نحو غالب، والذي انفرد في خروجه عن دلالات البيان المتعلقة بالمعنى على نحو غالب= لم يكن خروجه مائلاً إلى نمط التثاقف البديعيّ في أدب الأوائل الفحول، كما هو شأن أساليب البديع البلاغية، ولم يباعد نمط التثقيف البيانيّ؛ إذ كان التحسين لخدمة المعنى، ولم تكن غايته التحسين في ذاته على طريقة أهل الفنّ للفنّ. أريد أن أقول: إن بلاغة البيان بلاغة ثقافية تهتمّ بالمعنى والمضامين، ولا تحفل باللفظ مفرداتٍ وتراكيبٍ إلّا بما يسهم في خدمة المعنى بياناً وتوكيداً، فالتعبير والتصوير في بلاغة البيان يفضيان إلى المعنى، ونبين أن بلاغة البيان كانت الطابع الذي اتسمت به الدراسات النقدية والبلاغية عند أنصار مدرسة الطبع، وأن قوانين تلك المدرسة التي تجسّدت في (عمود الشعر) هي قوانين بيانية ثقافية تقف على صحة المعنى وشرفه

(18) - يُنظر: عامر الجراح: أثر الفكرين النقديّ والإعجازيّ في نشأة البلاغة، بحث أُلقي في مؤتمر علوم

اللغة والفكر والدين: الإشكالات القديمة والمحاکمات الحديثة) بجامعة ماردين أرتوقلو، 2018، 617.

(19) - يُنظر: الجاحظ، أبو عثمان: البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ط7 مكتبة

الخانجي، القاهرة 1998، 1/136-85.

والإصابة في الوصف والمقاربة في التشبيه والمناسبة في الاستعارة، وهي أمور تتعلّق بالمعنى، وثمة أمور تتعلّق باللفظ من قبيل: جزالة اللفظ واستقامته، والتحام أجزاء النظم والتنامها على تخيّر من لذيذ الوزن⁽²⁰⁾؛ إن احتفاء العمود بالمعنى ظاهر، واحتفاءه باللفظ جاء بقياس لغة المولّدين على لغة شعراء الطبع، فقوانين الجزالة التي جعلت من أهم شروط الفصاحة كما رأينا أنفًا عند أبي هلال، والتحام أجزاء النظم، وتخيّر لذيذ الوزن هي قوانين خلا منها شعر المولّدين قهراً⁽²¹⁾ بسبب فساد الطبع بابتعادهم عن الأصل واختلاطهم بالعجم وثقافتهم، أمّا خروجهم على قوانين العمود المعنوية فقد كان طواعية لا قهراً؛ إذ صاروا مفتونين بالبديع الذي قوامه العناية باللفظ بقصد التحسين والتخييل والتأثير، وإن كان على حساب صحّة المعنى وشرفه؛ إنهم لا يريدون التعبير عن شيء ذي بال بقدر ما يريدون التعبير عن طريقتهم في التخييل في الأعمّ الأغلب.

إن شواهد الاهتمام بالمعنى في التراث البلاغيّ البياني كثيرة، والنظر فيها يفتح لنا آفاقاً في إدراك بيانية البلاغة، وفوق ذلك يوقفنا على تفسير كثير من الظواهر الثقافية والمواقف الأدبية في تراثنا النقدي والبلاغي. نستهلّ الحديث في هذا الباب عن قضية معنوية شغلت النقاد قديماً، وهي التقصير عن المعاني والغايات، وذلك بإيراد خبر يمثل أثراً نقدياً وبلاغياً بيانياً مهمّاً لتقدّمه، وذلك حكاية امرئ القيس مع زوجه إذ قالت له:

"علقمهُ أشعرُ منك، قال: وكيف ذاك؟ قالت: لأتّك قلتُ:

فَلِلِسَاقِ الْهُوبِ وَاللِسُوطِ دِرَّةٌ وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقَعٌ أَخْرَجَ مُهْذِبِ

فجهدتُ فرسكُ بسوطك، ومريته بساقك، وقال علقمة:

فَأدركهُنَّ ثانياً من عِناهِ يمرُّ كمرِّ الرائحِ المتحلِّبِ

فأدرك طريدته وهو ثانٍ من عِنان فرسه، لم يضره بسوط، ولا مراه بساق، ولا زجره⁽²²⁾، وغير ذلك كثير⁽²³⁾، فصحة المعنى وإصابة الوصف من القضايا المهمة التي كانت تثير اهتمام العرب، فكان جلّ نقدهم مصوّباً نحو المعنى، في حين أنّ الكلام على قضايا اللفظ

(20) - يُنظر: المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، تح: أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط1 دار الجيل، بيروت 1991م، 9/1.

(21) - يُنظر: ثعلب: قواعد الشعر، تح: رمضان عبد التواب، ط2 مكتبة الخانجي، القاهرة 1995م، 63.

(22) - ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تح وشرح: محمود شاكر، دار الحديث، القاهرة 1423هـ، 213-212/1.

(23) - يُنظر: عامر الجراح: التفكير البياني عند العرب: قراءة تداولية، 201- وما بعدها.

كانت غائبة؛ وأرى أن ذلك يرجع إلى كون العثرات التي تقع من الشعراء، وأعني هنا الفحول، تتعلق بالمعاني (التثقيف المعنوي أو الأدبي)؛ إذ كانت الإصابة في اللفظ فطريةً فيهم، وكذلك كانت الجزالة وكان النظم، وحديث الإقواء أمر آخر؛ جعل من خصائص لغة الشعر التي يرحبُ فيها مجال التسمّح، ويدلّل على اقتدار الشعراء⁽²⁴⁾، ولم ينتقل العرب إلى التثقيف اللغوي إلا حين شيوع اللحن بينهم إثر اختلاطهم بالأعاجم، وتبع ذلك تصنيفات الأدباء والنقاد في قضايا التثقيف المعنوي أو الأدبي حين لمسوا ابتعاد الشعراء عن سنن العرب وأساليبهم، فتزامن عند المتأخرين الاهتمام بالتثقيفين: اللغوي والمعنوي الأدبي؛ لما مسّت الحاجة إليهما. انتبه الإمام الفراهي إلى ذلك إذ قال: "إن كثيراً من العلوم المدوّنة ليست إلا كالدواء للمرضى"⁽²⁵⁾. ركّزت أغلب المؤلفات النقدية والبلاغية في التراث العربي على ضرورة التثقيف المعنوي الأدبي (البيان)، حتى لا يقع الشعراء والأدباء في خطأ التعبير عن المعاني وتصويرها، فكان النقاد سندا للغويين الذين وقفوا على قواعد اللفظ (اللغة والنحو أو التثقيف اللغوي)، فنرى إلى جانب ذكر قوانين عمود الشعر عند النقاد عنايتهم بإيراد أدوات الكاتب والشاعر كي يكونا بليغين بيانين⁽²⁶⁾، أو رسمهم الطريق أمام الأدباء ليبصروا مواطن الإخطاء في المعاني فيتجنّبوها أو مواطن الإصابة فيتبعوها، وكانت أساليب الأقدمين حادتهم في ذلك⁽²⁷⁾.

إن تتبع القضايا النقدية والبلاغية في التراث العربي، ولا سيما تراث أنصار مذهب الطبع والبيان، يُظهر أن أغلبها ذو طابع معنوي، ونذكر من تلك القضايا التقصير

(24) – يُنظر: عامر الجراح: مفهوم الضرورة الشعرية وصلتها بقضية الفحولة؛ الإقواء عند الفرزدق نموذجًا، مقالة منشورة في مجلة آرتوقلو أكدي، جامعة ماردين آرتوقلو، كلية العلوم الإسلامية، 2019، مج6، ع2. ويرى سيويوه "أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام"، فذكر ضروريًا: قال إن لها وجهًا، ولم يجزم بأنها كل الضروب الممكنة، ولم يذكر من بينها الإقواء. الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ط3 مكتبة الخانجي، القاهرة 1988، 26/1.

(25) – عبد الحميد الفراهي: التكميل في أصول التأويل، تح: محمد سميع مفتي، الدائرة الحميدية 1388هـ، 20.

(26) – يُنظر مثلًا: ابن طباطبا: عيار الشعر، تح: عبد العزيز المانع، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض 1985، 6.

(27) – يُنظر مثلًا: أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، 69.

عن المعاني والغايات، وهو باب واسع تحدّث عنه غير واحد من النقاد والبلاغيين⁽²⁸⁾، ومن تلك، أيضًا، قضايا تأسّست على نظرة مذهبية مفادها أن الأولين أي شعراء الطبع خاضوا في كل المعاني، وهي نظرة يجلبها قولهم: "ما ترك الأول للأخّر شيئاً"⁽²⁹⁾، وهو قول سار مثلاً بين الناس إذّاك، كما تجلّهما قضية (السبق إلى المعاني)⁽³⁰⁾، ونذكر من أهم القضايا التي انبثقت من ذلك قضية (السرققات الشعرية)، ولعل قضية (توليد المعاني) أشدّ صلة بالمعنى من السرققات التي تتصل باللفظ والمعنى، وإن كان القاضي الجرجاني (392هـ) الذي يعدّ من أهم المتحدّثين عن السرققات يرى أنّها في المعاني أظهر وأولى⁽³¹⁾، فاهتمام النقاد والبلاغيين بالمعنى لم يقف عند حدود الكلام على الصحّة والإصابة، بل تعدّاه في خطوة متقدّمة إلى الحديث عن أنّ المتقدّمين سبقوا إلى المعاني، وأن المتأخّرين كانوا عالّة عليهم يسرقون معانيهم أو يولّدون منها في أحسن أحوالهم، ونلاحظ أن النقاد والبلاغيين كانوا يسلمون بجزالة ألفاظ المتقدّمين من الشعراء، أي الفحول، وبمتانة تراكيبيهم، وكانوا في موقفهم من المعنى بين أن يتصيّدوا أخطاءهم كما بيّنا حين ذكرنا التقصير عن المعاني والغايات، وبين أن يُعلّوا من شأنهم حين يحاكمون معاني المولّدين بالنسبة إلى معانيهم كما بيّنا في ذكرنا قضيتي السرققات والتوليد، فهل نسلم أنهم اكتسبوا تلك المكانة الرفيعة بين نقاد مدرسة الطبع لما وجدوه من ذوبان أهمية المعنى في بوتقة الاحتفاء باللفظ عند المولّدين؟ إن ذلك جانب مهمّ في المسألة، ومن ثمّ نجد أن بلاغة البيان التي اصطبغ بها أدب الطبع بدأت تتنخّى مع ظهور موجة المولّدين ليخلو المجال لبلاغة البديع.

المبحث الثالث: مفهوم البيان عند الجاحظ

أقام الجاحظ صرح كتابه (البيان والتبيين) على الحديث عن لغة العرب وتمايزها من حيث هي كلام أو استعمال يتّسم بالبيان دقّةً وصحّةً وصدقاً وفصاحةً وشرفاً معني،

(28) – يُنظر: عامر الجراح: التفكير البياني عند العرب: قراءة تداولية، 201- وما بعدها.

(29) – ابن عبد ربّه الأندلسي: العقد الفريد، تج: عبد المجيد الترحيني، ط1 دار الكتب العلمية، بيروت 1983م، 6/186.

(30) – يُنظر مثلاً: الميزد: الكامل في اللغة والأدب، تج: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3 دار الفكر العربي، القاهرة 1997م، 1/146-147.

(31) – يُنظر: القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تج: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد الجبّاي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، (د.ت)، 183- وما بعدها.

والبيان عنده يحتوي على البلاغة والفصاحة معاً وفق المفهوم السائد لمعني الفصاحة والبلاغة عند المتأخرين؛ يقول الجاحظ: "والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ، فلم يعن أن كل من أفهمنا من معاصر المولدين والبلديين قصده ومعناه، بالكلام الملحون، والمعدول عن جهته، والمصروف عن حقه، إنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه... فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللُّكْنَة، والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون والمعرب، كلّه سواء، وكلّه بياناً. وكيف يكون ذلك كلّه بياناً، ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفساد من الكلام، لما عرفه. ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا. وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلّون على معاني هؤلاء بكلامهم كما لا يعرفون رطانة الروميّ والصقليّ، وإن كان هذا الاسم إنما يستحقّونه بأننا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم. فنحن قد نفهم بحممة الفرس كثيراً من حاجاته، ونفهم بضغاء السيّور كثيراً من إراداته، وكذلك الكلب، والحمار، والصبي الرضيع. وإنما عنى العتابي: إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء"⁽³²⁾. فالبيان تعبير عن الحاجة والقصد والمعنى (الإفصاح)، فهو بذلك ذو بعد تواصل، ثم يضاف إليه ما يكمل الصورة التي أراد أن يرسمها الجاحظ للبيان، وذلك في إيراد بعدها الفتيّ (الإبلاغ)، فالبيان عن الحاجات لا بد أن يقترن بالأسلوب البلاغيّ الذي يتجلّى في مجارة كلام العرب الأقحاح الذين لم تعتر أسنتهم وفصاحتهم وبلاغتهم العجمة أو اللحن، والحق أن تتبّع سمت كلام العرب الأقحاح بحسب وصف الجاحظ ومن تبعه يفضي بنا إلى ما يمكن أن نسميه المطابقة والمناسبة والصحة (المقاربة)، ويظهر ذلك في معايير عمود الشعر عند أصحاب الطبع، وفي المقابل نجد أن البديع يجرح تلك الدقة أو المقاربة في توّسّله بـ (المفارقة) للتعبير بقصد التحسين والتأثير.

إنّ البيان بمعنى الإفصاح والإصابة والدقة في التعبير عن الواقع (الصدق) مع صحة التأثير، وبمعنى الاهتمام بشرف المعنى والمضمون والمقصد = كان يمثل روح بلاغة الطبع أو بلاغة الفحول، في حين أنّ البيان بمعنى الإبلاغ وتكلف البديع والتأثير كان يمثل جسد بلاغة البديع أو التوليد، إنّ هذا التفريق وفق هذا الفهم هو ما توّصل إليه الفراهي

(32) – الجاحظ: البيان والتبيين، 1/161-162.

في (جمهرته)، فبنى مشروعه على بلاغة الطبع، غير أنه عزا سرّ ذلك التحوّل في مسيرة البلاغة إلى التآثر بالثقافات الأخرى، ولا سيّما محاكاة أرسطو⁽³³⁾. ونقولها بصيغة أخرى: لقد بدأت البلاغة بالعناية بالتعبير، ثم انتقلت إلى العناية بالتصوير، أو انتقلت من ساحة الاهتمام بالمضمون إلى الاهتمام بالشكل.

إنّ مشروع الفراهيّ يمثّل قراءة جديدة لبيان الجاحظ في تبنيّه فكرة فصاحة العرب وتمايههم وعلوّ شأنهم في البلاغة والبيان، وفي أنّ الاختلاط بالأعاجم سليمهم تلك المزايا وخرج بالبلاغة عن سيرتها الأولى، فهو يرى "أنّ المطبوعين كالمملك المختار تدور الصنّاعة معهم حيثما داروا، والمتصنّعون كالرعيّة يُطيعون قوانين الصنّاعة"⁽³⁴⁾.

لقد كان مشروع الجاحظ في البيان والتبيين مشروعاً قومياً مضاداً للحركة الشعوبية التي كانت تمجّد الفارسية وتُظهر استعلاءها على العرب، فكأنّ البيان والتبيين ردّاً على اعتراض الفرس امتلاك العرب ثقافة قبل الإسلام على أقلّ تقدير، والمثال الذي عرضناه من كلام الجاحظ قبل قليل خير شاهد على هذا، غير أنّ ردّ الفعل ذلك كان دقيقاً ومدروساً وواعياً لدى الجاحظ، ونمرّ سريعاً على مشروعه في تحديد مفهوم البيان.

يبين الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) مفهوم البيان في قوله: "الدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ هو البيان الذي سمعت الله - عزّ وجلّ - يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه؛ بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم. والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأنّه مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام"⁽³⁵⁾، فالبيان يرتبط بالمعنى اللغويّ الذي هو الإفهام، وبالمعنى التداوليّ الذي هو التواصل والتوصيل، وبالمعنى المقرّر في الذهنيّة العربيّة الصرف والذي يتمثّل في الوضوح والصدق والدقّة في التعبير، كما أنه حمل بعداً قدسيّاً حين بيّن الجاحظ أنّ الله مدحه ودعا إليه، وبه نطق القرآن. إن مشروع الجاحظ في البيان يعدّ من المشروعات ذات الطابع العربيّ الأصيل الذي تمثّله

(33) - يُنظر: عبد الحميد الفراهي: جمهرة البلاغة، 105.

(34) - المرجع نفسه، 127.

(35) - الجاحظ: البيان والتبيين، 75/1.

مدرسة الطبع، وهو يسهم في ترسيخ مفهوم الطبيعة العقلية العربية التي تميل إلى الوضوح والمقاربة والمناسبة والصدق.

انتقل الجاحظ من الحديث عن البيان ذي البعد السيميائي الدلالي الذي يتنوع بتنوع أدوات التعبير عنه بين البيان باللفظ والإشارة والعقد والخطّ والحال التي تسمى نصبة⁽³⁶⁾ = إلى الحديث عن البيان الخاصّ الذي يمثّل اللفظ أدواته الرئيسة، فيذكر متعلّقاته مثل الصوت ولوازمه من مقاطع وصفات وآلات (مخارج)، ويذكر علل البيان المتعلّقة بالمتلقّي والتي تتفرّع إلى ما يتعلّق بالحالة الفيزيولوجية (الحُبسة والثُّغّة)، وإلى ما ينتج عن أثر خارجي (اللُّكنة واللحن) فيستدعي التثقيف اللغوي، ثم ينتقل إلى فصاحة اللفظ المفرد ومكامن الفصاحة فيه من جهة حروفه، ثم يتكلم على صلته بالحديث عن لهجات العرب وقبائلهم، ليصل إلى أن مقياس الفصاحة هو القرآن الكريم وكلام الأعراب، ثم يتحدث عن بلاغة الكلام (البيانية) فيجعلها في صحّة الطبع والبعد عن التكلف؛ يقول: "إذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة"⁽³⁷⁾. كما يجعلها في التوسّط والاقتصاد؛ يقول: "القصديّ في ذلك تجتنب السوقي والوحشي، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ، وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني. وفي الاقتصاد بلاغ، وفي التوسط مجانية للوعورة، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه"⁽³⁸⁾. وثمّة إشارة مهمة في هذا الكلام إلى أن بلاغة البيان لا تقوم على تهذيب الألفاظ والانشغال بغرائب المعاني، وسيظهر أن تينك السمتين تُعدّان من أبرز سمات بلاغة البديع، وجعل الجاحظ بلاغة الكلام أيضاً في الججاج حين أورد نماذج من اللسن عند العرب وغير ذلك⁽³⁹⁾، وهنا ينتقل إلى الاهتمام بالألفاظ والمعاني فصاحةً وبلاغةً وتثقيفاً على مستوى النظرية، ثم

(36) – يُنظر: المصدر نفسه، 76/1. فالبيان يكون باللفظ أي الكلام المفهوم، والخط، وهو الكلام المكتوب، والإشارة وتكون بحركات الجسم كاليد والعين والحاجب وغيرها، وهو ما يُطلق عليه حديثاً اسم لغة الجسد، والعقد هو الحساب والعَدّ بعقد الأصابع، والحال أو النصبة تكون بدلالة الجمادات والسواكن والعجاواوت بما تترك من أثر في النفس والفكر. يُنظر: نفسه، 79/1- وما بعدها.

(37) - المصدر نفسه، 83/1.

(38) – المصدر نفسه، 255/1.

(39) – يُنظر: المصدر نفسه، 231-176-114/1.

يتجلى التثقيف المعنوي (الأدبيّ) واللغوي إجرائياً على مستوى الكتاب كاملاً بسرد جملة من خطب العرب الأقحاح وأشعارهم البليغة.

لقد ركّز الجاحظ على شرف المعنى وصحّته، وعلى الصدق والمناسبة، وسائر قوانين عمود الشعر، وإن لم يصحّح بذكره، ولا ندري هل كان معروفاً في زمانه، غير أنه في القرن اللاحق له أي القرن الرابع كان معروفاً كما يذكر الأمدّي (370هـ)⁽⁴⁰⁾، أو ربما أنه كان في القرن الثالث وما سبق مفهوماً متداولاً، وأنهم اصطالحوا له في القرن الرابع، ولا ندري هل أرادته ثعلب (370هـ) حين ذكر عمود البلاغة في كتابه (قواعد الشعر)⁽⁴¹⁾، وهو من رجالات القرن الثالث؟ ربما هذا يثبت ما ابتدأناه من أنهم أدركوا المفهوم، واصلحوا له في القرن الرابع كما ظهر عند الأمدّي، غير أن تفصيل قوانينه بطريقة منهجية كان في القرن الخامس عند المرزوقي (421هـ) الذي أفاد من سابقه في ذلك في كتابه (شرح ديوان الحماسة)، فقد مهّد لشرحه بمقدمة نقدية عالج فيها عدداً من القضايا النقدية المهمة، أتى في جانب منها على ذكر عمود الشعر⁽⁴²⁾.

إن قوانين العمود عند الجاحظ بادية في حديثه عن سجايا العرب في بعدهم عن التكلّف وسيرهم على الطبع والسجّية؛ إذ قال: "كلّ شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجمالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام... فتأتيه المعاني أرسالاً، وتنثال الألفاظ انثيالاً... والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفّظ، ويحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفّظ ولا طلب"⁽⁴³⁾. كما هي بادية في كلامه على أساليبهم، وعلى كلامهم بعامة، ما يعكس الجانب البياني التداولي في بلاغة المتقدمين، وظهر لنا كيف أن الطرح الجاحظي جسّدها أحسن تجسيد، ثم تتعرّز عند تابعيه مثل الأمدّي وأبي هلال العسكري وغيرهما.

(40) - يُنظر: الأمدّي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحرتي، تح: السيد أحمد صقر، ط4 دار المعارف، القاهرة (د.ت)، 4/1.

(41) - يُنظر: ثعلب: قواعد الشعر، 84.

(42) - يُنظر: المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد: شرح ديوان الحماسة، 9/1.

(43) - الجاحظ، البيان والتبيين، 29-28/3.

نختم هذا المبحث بالحديث عن دلالات البيان في التراث البلاغيّ عند العرب، فهو يحمل، برأينا، ثلاثة معانٍ رئيسة هي: الإفصاح والإبلاغ والتصوير. فأما أولها أي الإفصاح فيرتبط بإظهار المعنى، وبالإفهام، وهو بهذا المعنى أكثر ما يتجلى عند الجاحظ كما بيّنا آنفًا، وذلك في أبرز معانيه⁽⁴⁴⁾، ويمثّل معنى الإفصاح اتجاهات مدرسة الطبع وقوانينها، وأما ثانيها أي الإبلاغ فهو يتجاوز الإفهام إلى التحسين والتأثير، وهو بهذا المعنى يرتبط بالبلاغة (الشعرية)، وهذا المعنى أكثر ما نراه عند عبد القاهر الجرجاني⁽⁴⁵⁾ على وجه الخصوص، وأنصار مدرسة البديع عمومًا، وهو ما نميل إلى أن نصطّح له بالبديع. ومن اللافت أن الحدود بين المعنيين السابقين لا تبدو جليّة نظرًا لتداخلهما؛ بيد أن الفصل بين معاني البيان تلك يغدو واضحًا إذا ما نُظر إلى أن دراسة البيان في معناه الأول لا تعدّ غايةً، بل هي وسيلة لغيره، وفي المعنى الثاني يمثّل البيان غايةً، أو بمعنى آخر: إن البيان بمعناه الأول "يهتمّ بالغايات لا بالوسائل، ويتحدّد بالوظيفة لا بالبنية أو الشكل، ممّا جعله خلوًّا من كلّ أبعاد فنية وبلاغية"⁽⁴⁶⁾، والمعنى الثاني خلافه. وأمر آخر أنّ البيان بمعنى الإفصاح كان يمثّل الطابع الحقيقي للثقافة العربية الصّرف، في حين أن المعنى الآخر؛ أي الإبلاغ مثّل الثقافة العربية المتأثرة بالثقافات الوافدة؛ إنه الفرق ذاته بين مدرسة الطبع والبديع، والثقافة العربية الصّرف والثقافة الهجينة⁽⁴⁷⁾. ونشير إلى أن دلالة البيان الإبلاغية ذات بعدين: أولهما الإخلاص لبلاغة البيان التي قدّمنا أنها تهتمّ بالمعنى، ولا تحفل باللفظ إلا بما هو في خدمة المعنى، والآخر هو الإخلاص لبلاغة البديع التي تركّز على التصوير والتخييل والتأثير، وحينئذٍ لنا أن نفصل بين الإبلاغ الإفصاحي (البياني) والإبلاغ التخيلي (البديعي).

(44) - يُنظر: حمّادي صمّود: التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوّره إلى القرن السادس، (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، 1982، ص 194، ويُنظر تحديدًا: الجاحظ، أبو عثمان: البيان والتبيين، 1/75-76.

(45) - يُنظر: الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، ط3 مطبعة المدني، القاهرة- دارالمدني، جدة 1992م، 5- وما بعدها.

(46) - يُنظر: صمّود، حمّادي: التفكير البلاغي عند العرب، 162.

(47) - للاستزادة يُنظر: دراستنا كتاب (جمهرة البلاغة) للفراهي، 14.

وأما ثالث المعاني وأخرها فما استقرّ في كتب البلاغة التي تلت كتابي عبد القاهر من تقسيم البلاغة إلى ثلاثة علوم: المعاني، والبيان، والبديع، فعَدَّت البيان علمًا يُعرَف بأنه "معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة"⁽⁴⁸⁾. أي هو علم الصورة أو التصوير، وهذا ما نلمسه في الكتابات التي وُسمت بميسم الفلسفة كما هو الحال عند السكّائي وتابعيه، فأصبح المعنى الأخير موسّعًا؛ إذ ضمَّ المعنيين السابقين، فضلًا على معانٍ أخرى كالتوكيد والتقوية والمبالغة، وبالجملة الإقناع (الحجاج). كما أنه يمثّل حصيلة تطوّرهما، إنه معنى ذو طابع معرفيٍّ مقنّن يقارب في نقلته تلك النقلة العكسية التي كانت للبلاغة الغربية من البلاغة الكلاسيكية التي تُعنى بالتأثير إلى بلاغة الحجاج أو ما عُرف بالبلاغة الجديدة، ونبين أن المعنيين الأخيرين للبيان متداخِلان كذلك؛ إلا أننا فصلنا بينهما فصلًا مردّه إلى عوامل منهجية تتعلّق باستقرار علم البيان واتّضح مباحثه، هذا فضلًا على العوامل التاريخية.

المبحث الرابع: مفهوم البديع في تراث العرب البلاغيّ والنقديّ

تتعلق بلاغة البديع بوسائل التصوير والتخييل وتهدف إلى التحسين والتأثير، وترتبط بالتكلف والتصنّع غالبًا كما وضّحها الجاحظ والخطّابي وغيرهما، وهو ما نعتناه بالتثاقف بمعنى ادّعاء الثقافة؛ إذ إن الثقافة اللغوية والأدبية (اللفظية والمعنوية) لا تواتهم طوعًا، أو أن ثقافتهم بطبيعة أدب العرب وأساليهم ومضامينهم آيلة إلى الضعف والانعدام مع تقدّم الزمان، كما آل ميلهم إلى البديع والزخرف حتى غدا الشعر ضربًا من حشد الفنون البديعية ورفضها؛ يهدفون من ذلك إلى التنافس في البراعة والابتداع الشكليّ، ورأينا أن نقد أنصار البديع وبلاغتهم ترصد أدب المولّدين الذين سُغفوا بالصنعة التي يكون مجالها اللفظ. قد يبدو هذا التفسير بسيطًا وساذجًا للوهلة الأولى، غير أننا نوضحه ونكشف أبعاده بالحديث عن أوصاف شعر المولّدين وغاياته؛ يقول الجاحظ: "لم أجد في خطب السلف الطيّب والأعراب الأقحاح ألفاظًا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعًا رديًا، ولا قولًا مستكرها. وأكثر ما تجد ذلك في خطب المولّدين، وفي خطب البلديين المتكلفين، ومن أهل الصنعة المتأدبين، وسواء كان ذلك منهم على جهة

(48) - السكّائي، أبويعقوب: مفتاح العلوم، ضبطه وكتبه هوامشه وعلّق عليه: نعيم زرزور، ط2 دار الكتب العلمية، بيروت 1987م، 249.

الارتجال والاقتضاب، أم كان من نتاج التعبير والتفكّر⁽⁴⁹⁾. كان الجاحظ واعياً بثناقف الشعراء المولّدين فذكر أنهم في ذلك على ضربين متكلّف صاحب تحبير وتفكّر، ومرتجل، فالمولّدون بعيدون عن فصاحة العرب الأقحاح وبيانهم سواء في تكلفهم أم في ارتجالهم. إنّ غاية المولّدين في أشعارهم التحسين الذي يفضي إلى التأثير، وذلك من خلال التخيل والتصوير والغوص في المعاني والإغراب فيها تارة، ومن خلال تنميق الكلام وزخرفته تارة أخرى، وذلك مجاله اللفظ والصياغة بلا أدنى شك؛ لذلك كانت بلاغة البديع بلاغة أشكال فنية وبلاغة تشكيل، وشأن بلاغة الأشكال ما نفهمه رأساً من قصد ابن المعتز بالبديع حين نقرأ كتابه الذي يحمل الاسم نفسه أي (البديع)، كما نجد عند كل الذين استخدموا مصطلح البديع من نقاد الشعر القدماء، ولم يقتصر أمر ثناقف شعراء البديع على اتباع الأساليب الفنية التي عرفها الشعراء الفحول أو الإكثار من استعمالها، إنما كان للثقافات الوافدة إليهم أثر كبير في ذلك، ولا سيما الفارسية واليونانية، ومن الأخيرة تسرّب إلى الفكر العربي وأدبه الغلوّ والإغراق في المعاني، وسارت بينهم عبارة: "أعذب الشعر أكذبه"⁽⁵⁰⁾، وفي ذلك إشارة إلى الأساطير التي اشتهرت بين اليونانيين ممّا لم يعهده العرب في جزيرتهم قبل اطلاعهم على ثقافة اليونان، ونشير إلى أنّ مؤلفات بلاغة البديع التي انتدب أصحابها لاستقصاء الأشكال أو الفنون البلاغية لم تكن وحيدة في ذلك؛ إذ نجد أنّ المؤلفات التي رأينا أنها تهدف إلى تعزيز بلاغة البيان لم تتحرّر من ذكر الأشكال، وذلك من جهة إرادة التثقيف الأدبيّ كما في (كتاب الصناعتين) لأبي هلال، أو من جهة بيان حال المتثاقفين البديعيين كما في كتاب (الموازنة) للآمدي، وقد يكون من باب السعي لبناء بلاغة كاشفة لوجوه إعجاز القرآن كما في كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني(403هـ)، أمّا العناية ببلاغة التشكيل فنجد صداها في المؤلفات التي أسست بناءها على أعمدة اللفظ والمعنى، وعلى النظم والتأليف، كما هو الحال عند قدامة وعبد القاهر الجرجاني وغيرهما.

(49) – الجاحظ: البيان والتبيين، 9-8/2.

(50) – ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، صحّحه وعلّق عليه: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، 1952 م، 319.

تجلى انسلاخ العرب عن ثقافتهم اللغوية والأدبية؛ الانسلاخ الذي بدأ مع بروز مذهب المولّدين إثر اتساع رقعة الدولة العربية الإسلامية والاختلاط بالأعاجم= في صورتين: أولاهما ذات طابع لغوي يتمثل في شيوع اللحن والتوليد، والأخرى ذات بعد أدبي يتمثل في الخروج عن أساليب العرب في أدبهم، الأساليب التي كانت تحدّها وتؤطرّها معايير (عمود الشعر) من جهة التشكيل والتركيب، فتضبط صدقها بيانياً وتأثيرياً، والحق أن هذا ما حدا باللغويين والنقاد والبلاغيين والأدباء والمؤدّبين والكتاب إلى إنتاج مؤلفات تُعنى بالتحقيق اللغوي والأدبي، وكل المؤلفات التي نعرفها في القرون الأولى إلى نهاية الحكم العباسي أي القرن السابع تدخل في ذلك، ثم كان التأليف بعد ذلك انشغالاً واشتغالاً بما سبق شرحاً وتلخيصاً وتعقيباً وحواشي وتعليقاتٍ في الأعمّ الأغلب، ولم يكن شأن الأدب أحسن حالاً؛ إذ توجّه هو الآخر نحو العناية بتلقّط فنون البديع والاهتمام بالزخرف والتصنّع، وكان منها ما سعى إلى المحاكاة والتقليد، وإلى ذلك أشار الأمدى في وصفه حال أبي تمام مع الشعر؛ قال: "رأى أبو تمام أشياء يسيرةً من بعيد الاستعارات متفرقةً في أشعار القدماء... فاحتذاها، وأحب الإبداع، وأغرق في إيراد أمثالها، واحتطب، واستكثر منها"⁽⁵¹⁾، كما أشار إلى ذلك البحري حين سئل "عن نفسه وعن أبي تمام، فقال: كان أغوص على المعاني مني، وأنا أقوم بعمود الشعر منه"⁽⁵²⁾. فمذهب البديع يقوم على الغوص في المعاني، في حين أنّ أساس البيان هو عمود الشعر.

المبحث الخامس: نقد المعنى عند شعراء البديع

تقرّر عندنا أن عناية الشعراء المولّدين كانت باللفظ إفراداً وتركيباً، وأن الاهتمام بالمعنى صدقاً وتناسباً ووضاحةً لم يكن في أدبياتهم، والنقاد إنما درسوا المعنى عندهم من جهة تحسين اللفظ تخيلاً وتصويراً وتفرداً، غير أن كلام النقاد على معاني المولّدين ورد في باب آخر؛ وذلك في سياق الحديث عن معانيهم بالنسبة إلى معاني الفحول، وفي هذا الصدد انقسم النقاد إزاء الموقف من معاني المولّدين البديعيين إلى قسمين: أولهما يرى أنّ المولّدين كانوا في معانيهم عاليةً على من سبقهم من الشعراء الفحول، فاتهموهم بالسرق، وأن أحسن ما يستطيعون أن يفعلوه هو التوليد من معاني الأسبقين، أمّا القسم الآخر

(51) – الأمدى: الموازنة بين شعرا أبي تمام والبحري، 272/1.

(52) – المصدر نفسه، 12/1.

من النقد فكان يرى أن المولدين كانوا يخترعون معاني جديدة، فظهرت بذلك قضايا من مثل: السرقات والتوليد والاختراع والإبداع.

يُعدّ الكتبان الشهيران في النقد التطبيقي: كتاب (الموازنة) للأمدي، و(الوساطة) للقاضي الجرجاني أبرز الكتب النقدية التي تكلمت على قضية السرقات وأصلت لها، وكان القاضي الجرجاني أشدّ تفصيلاً؛ إذ نفى السَّرَقَ عن ضربين من المعاني هما: المشتركة لعمومها، والمختصة لشيوعها؛ يقول: "فإذا اعتبرتْها تصنّفت لك صنفين: إما مشترك عامّ الشَّرْكة، لا ينفرد أحد منه بسهم لا يُساهم عليه، ولا يختص بقسم لا يُنازع فيه؛ فإن حُسن الشمس والقمر، ومضاء السيف، وبلادة الحمار، وجوّد الغيث، وحيرة المخبول، ونحو ذلك مقرّر في البداية، وهو مركّب في النَّفس تركيبَ الخَلْقة. وصنّف [مختصّ] سبق المتقدّم إليه ففاز به، ثم تدوول بعده فكثُر واستعمل؛ فصار كالأول في الجلاء والاستشهاد، والاستفاضة على ألسن الشعراء، فحى نفسه عن السَّرَق، وأزال عن صاحبه مذمة الأخذ، كما يُشاهد ذلك في تمثّل الطلّل بالكتاب والبُرد، والفتاة بالغزال في جيدها وعينها، والمهابة في حُسنها وصفائها"⁽⁵³⁾، فالمعاني المشتركة العامة تراث لغوي، والخاصة الشائعة تراث أدبي، وكلاهما خارج تهمة السرقة؛ إنّ هذا يعني وفق قانون المخالفة أنّ المعاني الفريدة النادرة (معيّار قلة الاستعمال) هي التي تحدّد الحكم بالسَّرَق، غير أنّ القاضي يصرّح بمعيّار آخر يتمثّل في كمون الأخذ، أمّا الأخذ الظاهر المشاهد فلا سرقة فيه؛ إنه يشير إلى أثر المقصدية في الحكم، فمن الشعراء من يقصد إلى السرقة، فيأخذ الكلام، ويحرّف فيه ليُلبس على المتلقّين مصدر أخذه ويُنسبه لنفسه؛ يقول: "لا تكن كمن يرى السَّرَق لا يتمّ إلا باجتماع اللفظ والمعنى، ونقل البيت جملة، والمصراع تاماً... وأول ما يلزمك في هذا الباب ألا تُقصِر السرقة على ما ظهر ودعا إلى نفسه دون ما كمن، ونضح عن صاحبه؛ وألا يكون همك في تتبّع الأبيات المتشابهة، والمعاني المتناسخة طلب الألفاظ والظواهر دون الأغراض والمقاصد"⁽⁵⁴⁾. إنه يقف عند السرقات الخفية التي يتفنّن الشعراء في إخفائها بالعدول في المعنى السابق عن نوعه وصنفه وعن وزنه ونظمه، وعن رويّه وقافيته، فكان أحدَ نظرًا من عبد القاهر الجرجاني الذي قصر خفاء الأخذ على

(53) – القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، 185.

(54) – المصدر نفسه، 192-201.

النظم⁽⁵⁵⁾، وعن ذلك النوع من الأخذ تحدّث ابن طباطبا في قوله: "ستعثر في أشعار المؤلّدين بعجائب استفادوها ممّن تقدّمهم، ولطفوا في تناول أصولها منهم، ولبسوها على من بعدهم، وتكثّروا بإبداعها فسلمت لهم عند ادّعاءها لطيف سحرهم فيها، وزخرفتهم لمعانها، والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشدّ منها على من كان قبلهم؛ لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة، وخلاّبة ساحرة. فإن أتوا بما يقصر عن معاني أولئك ولا يربي عليها لم يُتلقَ بالقبول، وكان كالمُطرح المملول"⁽⁵⁶⁾.

تكلّم الخطيب القزويني على السرقات؛ فنظّر للأمر أدقّ تنظير، وأورد الشواهد المناسبة، وعقد للسرقات فصلاً كاملاً في كتابه (الإيضاح) يزيد على الثلاثين صفحة، وضمّها إلى أبواب البديع بوصفها ملحقات، وكان عبد القاهر في (أسرار البلاغة) قد فعل ذلك، فتأثّر هو به، وسنحاول أن نجمل كلامه ههنا. يبدأ القزويني بالحديث عن المشترك والمختصّ على طريقة الأمدّي أو القاضي الجرجاني، ويرى أن الأول ما تشترك في معرفته العامة، والآخر المختصّ ما لا يُنال إلا بالفكر، وهو ميدان التفاضل والتسابق، وهو غير المختصّ الشائع الذي ذكرناه عن القاضي الجرجاني آنفاً، ثم انتقل إلى تصنيف آخر التقفه من عبد القاهر الجرجاني، غير أنه فصل فيه أكثر على طريقة ابن الأثير⁽⁵⁷⁾، وذلك هو الأخذ الجليّ والخفيّ، فجعل من الأول ما أخذ بلفظه ومعناه ونظمه، فسماه السرقة المحضة أو النسخ أو الانتحال، وما أخذ بعض لفظه وتغيّر نظمه سمّاه المسخ أو الإغارة، وجعل كل ذلك مذموماً قبيحاً إلا أن يتفوّق الأخذ على المأخوذ بتحسين لفظ أو زيادة معنى فهو مقبول ممدوح، ويرى القزويني أن ممّا يزيد قبح الأخذ والسرقة أن يكون الوزن نفسه والقافية نفسها، أمّا ما أخذ معناه وحده فسماه السلخ أو الإمام. أمّا الضرب الثاني من الأخذ، وهو الخفيّ غير الظاهر، فجعل منه ما تشابه فيه المعنى على اختلاف الغرض، وهنا ينعت القزويني الشاعر الأخذ بالحدق في الإخفاء، ولم نر هذا الحكم عند القاضي الجرجاني، كما جعل من هذا الضرب النقل أي أن تنقل معنى الأول إلى غير محلّه كنقل الصفة من الإنسان إلى السيف، ومنه أن يكون معنى الثاني أشمل من الأول، ومنه

(55) – عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، 468-469-470-471.

(56) – ابن طباطبا: عيار الشعر، 12-13.

(57) – يُنظر: ابن الأثير، ضياء الدين: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تج: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، العراق 1375هـ، 242-243. والمثل السائر، 2/345.

القلب بأن يكون معنى الثاني نقيضاً للأول، ومنه أن يؤخذ بعض المعنى وتُضاف إليه زيادة تحسنه، وقال: إنها كلها مقبولة، وجعل منه ما أخرجه حسن التصرف من قبيل الأخذ والاتباع إلى حيز الاختراع. إنه يسير في تقسيماته هذه على خطى الأمدي والقاضي الجرجاني وعبد القاهر وابن الأثير، ثم نراه بعد ذكر تلك التقسيمات والتمثيل لها يلجأ بفصل السرقات فنون: الاقتباس، والتضمين، والعقد، والحل، والتلميح⁽⁵⁸⁾.

إن ذلك الاستعراض الذي قدّمناه للآراء النقدية في مسألة السرقات إنما يصب في شطّ التثقيف الأدبي؛ تثقيف الشعراء المولّدين وتابعهم، وهو مع ذلك وصف لحال معاني المولّدين انطلاقاً من رسوخ فكرة أن الأوائل خاضوا في كل المعاني، وأن الأول ما ترك للأخر شيئاً.

أما عن توليد المعاني فقد وضّح ابن رشيق معنى التوليد في أنه ينبني على إنتاج معنى جديد من معنى سابق، وميّزه من السرقة ومن الاختراع فجعله بينهما؛ يقول: "التوليد: أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدّمه، أو يزيد فيه زيادة؛ فلذلك يسمى التوليد، وليس باختراع؛ لما فيه من الاقتداء بغيره، ولا يقال له أيضاً سرقة إذا كان ليس آخذاً على وجهه"⁽⁵⁹⁾. فيبدو أن التوليد، إذ يكون في زيادة المعنى، هو درجة من درجات السرقة متقدّمة، وقد يظهر ازدياد تقدّمه عليها حين نقف على شرح الدلالة الأخرى للتوليد، وهي استخراج معنى من معنى، فهذا الاستخراج هو المعنى الموافق للفظ التوليد والمراد منه؛ إنه يدلّ على إعادة إنتاج المعنى بناء على معنى سابق.

هل نسلّم بأن الشاعر اللاحق علمَ بمعاني السابق، فولّد منها كما يذهب إلى ذلك النقاد الذين تحدّثوا عن التوليد، أو نسلّم بأن المعاني التي وقع منها التوليد كانت شهيرة بين الشعراء، أو ذلك كلّ من باب تنقيب الشعراء عن المعاني وبراعتهم في البحث عن الوشائج التي تربط بينها؟ قد نميل إلى الرأي الأخير مع اعتبار الآراء الأخرى، فالنقاد في ظلّ بحثهم في المعاني وتقعيدها، وفي ظلّ موقفهم من القديم والجديد أي الطبع والبديع= راحوا يوازنون بين المعاني، وينظرون إلى بعضها على ضوء بعض، ويكشفون عن العلاقات

(58) – يُنظر: الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، 557/2- وما بعدها.

(59) – ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، 263/1.

بينها، مبرزين قدرتهم على المقارنة. إننا أمام توجّه معرفيّ نحو البحث عن معايير التصرف في المعاني؛ لمسنا ذلك في أثناء الحديث عن التوليد الذي يتفَعّد بالزيادة، والاستخراج. كان توليد المعاني في العصر العباسيّ ظاهرة بارزة بدأت وبدأ التفات النقاد إليها تحت تأثير الموقف من الشعر القديم والجديد والموازنة بينهما. إنّ الانتقال من الدراسات اللغوية النحوية المهتمّة بجانب الصوابيّة والصحّة بما يتعلّق بالألفاظ وتركيبها إلى الدراسات النقدية التي سارت على الخطى نفسها في تحريّ الصحّة لكن بما يخصّ المعاني في ذاتها أو بائتلافها مع الألفاظ = فتح المجال فسيحًا أمام النقاد لبناء مشاريعهم المعرفيّة أو طرح آرائهم الذوقية، كما كان لبروز ظاهرة الشعراء المؤلّدين الأثر الأكبر في ذلك. لقد كان الاشتغال بالمعاني يدين الشعراء كذلك في تلك الحقبة؛ فلم يجد النقاد بدءًا من مقايسة معاني المؤلّدين بمعاني الفحول، غير أنّ فئة من النقاد كانت تتجنّب المقايسة، وذلك في التفاتها إلى اختراعات المؤلّدين وإبداعاتهم.

وقف ابن رشيق على تعريف (المعنى المخترع أو البديع) بقوله: "المخترع من الشعر هو ما لم يُسبق إليه قائله، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه"⁽⁶⁰⁾. ونشير إلى أن مفهوم الاختراع ارتبط في ذهنية النقاد القدماء بمصطلح آخر لا يخرج عنه في الدلالة هو (البديع)، ولعلّ من أطلق مصطلح البديع من النقاد يُعدّ في أنصار مدرسة البديع، والذين أخذوا بمصطلح البديع من أنصار مدرسة الطبع كابن المعتزّ خرجوا عن المعنى العامّ للبديع المتمثّل بالاختراع إلى معنى خاصّ عُرف عند ابن المعتزّ بمجموع الفنون أو الأشكال التي دخلت فيما بعد في أبواب البلاغة، وصار القسم الأكبر منها تحت علم يراد منه تحسين الألفاظ والمعاني، وهو علم البديع، فهل كان هذا الفهم الخاصّ للبديع ينسحب على الاختراع والإبداع؟ سنقصّد إلى إيضاح هذا الأمر بالاستعانة بطرح ابن رشيق وعبد القاهر الجرجانيّ.

يرى ابن رشيق أنّ الاختراع صفة للمعنى الذي لم يُسبق إليه، فيظهر كالشامة الفريدة في الوجه، في حين أنّ الإبداع صفة للأشكال (الألفاظ) الفريدة المتكرّرة التي تحكي المعاني المستظرفة، وذهب إلى أنّ الشاعر إذا تمّ له أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد

(60) - المصدر نفسه، 262/1.

استولى على الأمد، وحاز قصب السبق⁽⁶¹⁾، فالإبداع بهذا التصوّر هو البديع نفسه في أشكاله وفنونه التحسينية المعهودة. إنّ مصطلح البديع ظل وفق هذا التصوّر أسير النزعة الخلافية بين أرباب مدرستي الطبع والبديع، وظل، وفق هذا الفهم الخاصّ الذي فرضه ابن المعتزّ، طريق آخر لا يختلف عن طريق التوليد في إخضاع شعراء البديع أو المولّدين لسلطان الشعر الفحوليّ، ويبقى، على ذلك، مصطلحُ الاختراع المصطلحُ المثير لتساؤلات مهمة كونه يرتبط بالمعنى بحسب ابن رشيق، فأيّ معنى قصد؟!

ركّز النقاد والبلّاغيون على الجانب التّأثيريّ للمعنى المخترع؛ من ذلك أنه قد شاعت عند المتأخّرين تسميته بالمرقص كما نرى عند ابن سعيد المغربيّ (685هـ)⁽⁶²⁾، وسنلاحظ في النصّ الآتي تنويه عبد القاهر الجرجانيّ بذلك الجانب التّأثيريّ؛ يقول: "مبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشيء إذا ظهر من مكانٍ لم يُعهد ظهوره منه، وخرج من موضعٍ ليس بمعدنٍ له، كانت صباغة النفوس به أكثر، وكان بالشغف منها أجدر، فسواءً في إثارة التعجب، وإخراجك إلى روعة المستغرب، وجودك الشيء من مكانٍ ليس من أمكنته، ووجود شيءٍ لم يوجد، ولم يُعرف من أصله في ذاته وصفته"⁽⁶³⁾. يتحدّث عبد القاهر عن أمرين أحدثا السمة التّأثيرية للكلام من صباغة النفوس، والشغف، وإثارة التعجب، والاستغراب أو الغرابة؛ الأمر الأول وجود شيءٍ لم يوجد، ولم يُعرف من أصله في ذاته وصفته، وهو نفسه المعنى المخترع وفق اصطلاح ابن رشيق، أمّا الأمر الثاني، وهو وجود الشيء من مكانٍ ليس من أمكنته، فهو المعنى البديع بحسب ابن رشيق، ويتمثّل هنا بالتشبيه (الغريب)، وتحديدًا في قول الشاعر:

ولأزورديّة تزهُو بزُرقتها بين الرّياض على حُمُرِ اليواقيتِ
كأنتها فوق قاماتٍ ضَعُفنَ بها أوائلُ النارِ في أطرافِ كهريتِ

(61) – يُنظر: المصدر نفسه، 265/1.

(62) – يُنظر: ابن سعيد المغربيّ: المرقصات والمطربات، اعتنى به مصطفى النجّاريّ، جمعية المعارف، مصر 1286هـ، 4.

(63) – عبد القاهر الجرجانيّ: أسرار البلاغة، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة- دارالمدني، جدة (د.ت)، 131.

فيرى "أنَّ تصويرَ الشَّبه بين المختلفين في الجنس، مما يحركُ قُوى الاستحسان، ويُثير الكامن من الاستظراف"⁽⁶⁴⁾، وهذا الاستظراف ذكره ابن رشيق بوصفه صفةً للمعنى البديع، وذكره عبد القاهر مرتين في حديثه عن التشبيه بوصفه ضرباً من البديع، وألحق بالاستظراف صفة أخرى هي الحسن، وذكرها مرتين كذلك، في النصِّ نفسه؛ إذ قال في التشبيه: "إذا قصدت ذكر ظرائفه، وعدَّ محاسنه في هذا المعنى، والبِدَع التي يخترعها بجِدِّهِ، والتأليفات التي يصل إليها برفقه، ازدحمت عليك، وغمرت جانبك، فلم تدرِ أيُّها تذكر، ولا عن أيُّها تُعبر"⁽⁶⁵⁾. وثمة نصوص أخرى ذكر فيها الجرجاني تينك الصفتين مجتمعتين، فهل نسلم بأنَّ البديع هو ما أثار في النفوس حالة الاستظراف والاستحسان، وأنَّ جماع ذلك في الغرابة التي يحدثها؟ يبدو ذلك، غير أن الأمر الأهم في نصَّ عبد القاهر الأول أنَّه ساوى بين الاختراع والإبداع في إثارة الاستغراب، إي في إحداث التأثير، ونعود فنؤكِّد أن عبد القاهر لم يصرِّح في نصِّه بلفظي الاختراع والبديع اصطلاحاً، سوى أننا استشفنا ذلك من المزاجية بين نصِّه ونصِّ ابن رشيق، ومن قوله: (البديع التي يخترعها)، فالمعنى المخترع هو المستظرف الغريب؛ أي المؤثر، والتأثير من أبرز سمات بلاغة البديع كما بيَّنا، فالمعنى في بلاغة البديع في عُرف النقاد لا يغادر أن يكون تبعاً لمعاني بلاغة البيان، أو هو ناتج عن الاهتمام بالتشكيل الذي يفضي إلى التأثير والإغراب.

المبحث السادس: مفهوم البديع عند عبد القاهر الجرجاني

تناول عبد القاهر الحديث عن البديع صراحة في كتابه (أسرار البلاغة)⁽⁶⁶⁾، وكان في حديثه سائراً على خطى ابن المعتزِّ في عدِّ البديع جملة من الأساليب الفنيَّة التي تنحصر عنده في التجنيس والسجع والحشو بوصفها لفظية ترتبط بالمعنى، والتطبيق والاستعارة والتشبيه والتمثيل والمجاز بوصفها معنوية، واستفاض في الحديث عن التشبيه والتمثيل والاستعارة التي رأى أنها "أصول كبيرة؛ كأنَّ جُلَّ محاسن الكلام- إن لم نقل: كُلِّها- متفرعة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في مُتصرِّقاتها، وأقطار تُحيط بها من جهاتها"⁽⁶⁷⁾. إن وقوف عبد القاهر على تلك الأشكال والأساليب وحده كفيلاً بإيضاح نظرته

(64) - المصدر نفسه، 131.

(65) - المصدر نفسه، 131.

(66) - يُنظر: المصدر نفسه، 20-8.

(67) - المصدر نفسه، 27.

البلاغية ذات الطابع الأسلوبى البديعي، وذلك أول الأمر، ثم إذا تابعتة وجدته في احتفائه بالمعنى يقف على الجانب التصويرى التشكيلى، فالكلام عنده؛ "منه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة، فلها، ما دامت الصورة محفوظةً عليها لم تنتقض، وأثر الصنعة باقياً معها لم يبطل = قيمة تغلو، ومنزلة تعلقو، وللرغبة إليها أنصبابٌ، وللنفوس بها إعجاب، حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها، وضامت الحادثات أربابها، وفجعتهم فيها بما يسلب حُسْنها المكتسب بالصنعة، وجمالها المستفاد من طريق العرض، فلم يبق إلا المادة العارية من التصوير، والطينة الخالية من التشكيل سقطت قيمتها، وانحطت رتبته، وعادت الرغبات التي كانت فيها زهداً، وأوسعتهما عيونٌ كانت تطمح إليها إعراضاً دونها، وصدأ"⁽⁶⁸⁾، ومن الكلام ما لو أنه وقف عليه لكان قد خرج من دائرة البديع إلى البيان، غير أنه طوى عنه كشحاً، وهو الكلام "الشريف في جوهره كالذهب الإبريز الذي تختلف عليه الصُور وتتعاقد عليه الصناعات، وجُلَّ المعوّل في شرفه على ذاته، وإن كان التصويرُ قد يزيد في قيمته ويرفع من قدره"⁽⁶⁹⁾، فجعل وكده الكلام على الأصول الكبرى لمحاسن الكلام (البديع)، فبدا كأنه يستدرك على ابن المعتز ما بدأه، وثمة خصلتان ترفعان تلك الأصول إلى أعلى درجات الحسن؛ تكشفان عن التوجّه البديعيّ لعبد القاهر على نحو أوضح، وهما: الندرة⁽⁷⁰⁾، واستدعاء التأوّل⁽⁷¹⁾، وكلاهما يفضي إلى معنى التخييل الذي تهدف إلى إثارته كبريات المحاسن البديعية. إن عبد القاهر، من خلال ما تقدّم، يدعو إلى كسر قانون المناسبة الذي يُعدّ أهمّ قوانين بلاغة البيان، ونضيف حديثاً آخر له صلة وثقى بالمعنى ذيل به عبد القاهر كتابه أسرار البلاغة، هو الحديث عن الأخذ والسرقات الشعرية، وقضية السرقات ذات بعد نقدي وبلاغيّ بديعيّ صرف؛ إذ إن السَّرْق سبّة التصقت بشعراء البديع المولّدين كما أسلفنا في كلام سابق، ثم ننتقل لبيان ملامح الاحتفاء بالبديع في كتابه الآخر (دلائل الإعجاز).

حافظ عبد القاهر في (دلائله) على فكرتين تحدّث عنهما في (أسراره)، وهما: المعنى، ومحاسن الكلام الكبرى التي أضاف إليها الكناية، غير أنه قدّم عليهما مشروعاً ذا

(68) – المصدر نفسه، 26-27.

(69) – المصدر نفسه، 26.

(70) – يُنظر: المصدر نفسه، 165-172.

(71) – يُنظر: المصدر نفسه، 93.

الطابع النحوي البنيوي الأسلوبي، وهو نظرية النظم، ومع أنه تكلم في بداية مشروعه على ما يوحي ببلاغة بيانية من خلال تأكيده أن النظم يخضع للمقاصد والأغراض (الكلام النفسي)، وهو توخّي معاني النحو التي تخضع لمعان يريدتها المتكلم/المبدع= مع كل ذلك انصرف عن همّه الأول إلى الكلام على بلاغة بديعية حين جعل محاسن الكلام الكبرى من مقتضيات النظم⁽⁷²⁾، بمعنى أنه بعد أن تحدّث عن ضربين من البلاغة: بلاغة لفظ أو أشكال (محاسن الكلام الكبرى: الاستعارة، والكناية، والتمثيل...) وهي أبواب علم البيان عند السكاكي وتابعيه، وبلاغة نظم أو تشكيل (التقديم والتأخير، والفصل والوصل...) وهي أبواب المعاني= بعد ذلك جاء بضرب ثالث يقوم على الدمج بين سابقه، فعلى حين يكون الضرب الأول ذا بعد بديعي نجد أن الثاني ذو بعد بيانيّ أو تداوليّ وبديعيّ أو أسلوبيّ، أمّا الضرب الثالث فستحدّث عنه بعد أن ننتهي من تفكيك قضية تركناها عالقة تتعلّق بإيضاح معنى اللفظ (في الدلائل) والمعنى في (الأسرار) وصلة ذلك بمحاسن الكلام الكبرى؛ ذلك من جهة، وتسهم من جهة أخرى في بيان موقع الضرب الثالث المذكور أنفًا من بلاغة البديع عند عبد القاهر.

قلنا إن بلاغة البيان تحثفي بالمعنى الشريف العامّ الذي لا نجد حرجًا من تسميته (المعنى الخطابيّ التداوليّ)، واحتفاؤها باللفظ إفرادًا وتركيبًا يصبّ في ذلك ويخدمه، أمّا بلاغة البديع فتتوجّه نحو اللفظ وأبعاده الأسلوبية، وتهتمّ بالمعنى الخاصّ الذي نستطيع أن نسّميه (المعنى البنيويّ الأسلوبيّ)، وفي بيانه يقول عبد القاهر: إنه "يراد به الغرض، والذي أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه، نحو إن تقصد تشبيه الرجل بالأسد، فتقول: زيد كالأسد، ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول: كأن زيدًا الأسد، فتفيد تشبيهه أيضًا بالأسد، إلا أنك تزيد في معنى تشبيهه به زيادة لم تكن في الأول، وهي أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه، وأنه لا يروعه شيء، بحيث لا يتميز عن الأسد، ولا يقصر عنه، حتى يُتوهم أنه أسد في صورة آدمي"⁽⁷³⁾. إنّ المعنى الخاصّ هذا هو ما يفسّر ذلك الاختلاف في الطرح الجرجانيّ إزاء تفسير محاسن الكلام الكبرى في علاقتها باللفظ حينًا، وبالمعنى حينًا آخر، كما أنّه يفسّر دخول الضرب الثالث لبلاغة الجرجاني القائم على الدمج بين النظم

(72) – يُنظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، 393.

(73) – المصدر نفسه، 258.

وضروب المجاز أو محاسن الكلام أو ما أسماه في كتابه (الدلائل) المعاني الثواني أو معنى المعنى = يفسر دخوله في بلاغة البديع الأسلوبية لا بلاغة البيان أو المناسبة التداولية كما يرى محمد العمري⁽⁷⁴⁾، أمّا الضرب الأول أي بلاغة اللفظ أو محاسن الكلام الكبرى أو المعاني الثواني فدخولها في البديع لا يحتاج إلى تفسير كما أسلفنا، وأمّا الضرب الثاني أي بلاغة النظم فهي تجاذب بين بلاغة البيان من جهة تعلّقها بالمقاصد، وبين بلاغة البديع من جهة بعدها البنيويّ الأسلوبيّ. إنّ الاضطراب الذي يستشعره القارئ في انتقاله من (الأسرار) إلى (الدلائل)، هو اضطراب حقيقيّ وقع فيه عبد القاهر بين النظرية والتطبيق من جهة، وبين التطبيق على الشعر والقرآن من جهة أخرى، والثاني تسبّب في الأول؛ إذ إنّه لمّا أراد أن يجري نظريته في الغرابة البديعية التي ابتدأها في الأسرار على القرآن الكريم، لاحظ أن الاستعارة التي تقف على رأس المحاسن البديعية لا توجد إلّا في أي معدودة وفي مواضع من السور الطوال مخصوصة، فلا يمكن أن تُجعل بذلك الأصل في الإعجاز وأن يُقصر عليها، فانتهى إلى أنّ مكنم الإعجاز هو في النظم الذي يتحقّق في القرآن الكريم كاملاً⁽⁷⁵⁾، فكان بذلك مفتاح حديثه في (الدلائل) وعمدته، لذلك خفّ حديثه عن جوانب الغرابة والتخييل والندرة والتأوّل في (الدلائل)، تلك الجوانب التي تتملّ أمارات على بلاغة البديع من جهة النظر إلى (دلالة المعنى الخاصّ)، وظهرت بالمقابل عبارات من قبيل التلطف والاستعانة بالروية والفكرة وحده الذهن وقوة الخاطر⁽⁷⁶⁾، وهي أمارات على بلاغة البديع من جهة الوقوف على (تركيب المعنى الخاصّ)؛ إن في ذلك انتقالاً من بلاغة البديع الشعرية الأسلوبية الدلالية إلى بلاغة البديع القرآنية الأسلوبية البنيوية إن صحّ التعبير.

إن النحو الذي يطالب عبد القاهر بأن نتوخّى معانيه ليس هو النحو التعبيري (نحو اللغة) الذي يتأسّس على القياس والخروج المألوف أو السماع، بل هو النحو الأسلوبية البديعيّ (نحو الكلام) الذي يتأسّس على الخروج غير المألوف عن القياس، أو بمعنى آخر: ليس هو نحو الكلام الصحيح بقدر ما هو نحو الكلام الجيد، يعزّز ذلك ما تقدّم، وأنّ عبد القاهر قال فيه: ليس هو علمًا بالإعراب، ولكن بالوصف الموجب

(74) – يُنظر: محمد العمري: البلاغة العربية؛ أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، بيروت- لبنان، المغرب-

الدار البيضاء 1999م، 352.

(75) – يُنظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، 391. ويُنظر أيضًا: المصدر نفسه، 257.

(76) – يُنظر: المصدر نفسه، 395-396.

للإعراب⁽⁷⁷⁾، وحديثه المطوّل عن النحو التعبيري (نحو الكلام الصحيح) كان مفتاحًا للولوج إلى بسط الحديث عن نظرية النظم الأسلوبية (نحو الكلام الجيد)، وقد لا نجانب الصواب إن أدخلنا ذلك في دائرة الإشكال أو الاضطراب الذي وقع فيه عبد القاهر بين الإبداع أو التقنين، والتلقي أو الوصف والتحليل، فكان نحو اللغة التعبيري مدخلًا إلى الإبداع أو القول أو الكتابة (أقرب إلى التثقيف اللغوي)، وكان نحو الكلام الأسلوبية مدخلًا إلى التلقي والوصف والتحليل (أقرب إلى التثقيف الأدبي).

ونختّم ببيان موقف الفراهي من بلاغة البديع الجرجانية في مقابل بلاغة البيان الجاحظية: يقول: "كما أنّ علماء الإسلام أقبلوا على هذا الفن [يقصد البلاغة]، لأجل الكشف عن إعجاز القرآن، فلو أنهم استقصوا كلام العرب واقتفوا آثار المحاسن فيه، وقيدوها بالحدود، ونظموها في ترتيب حتى يصير لهم ميزان ومحكّ لمعرفة محاسن الكلام، ثم نظروا في براعة القرآن ونظمه المعجز = لكانوا أقرب إلى معرفته [يعني إعجاز القرآن]، ولكنهم لم يأخذوا من العرب ولا من كلامهم؛ فإنّهم أثّرت فيهم علوم العجم، كما خالطهم سجاياهم إلا الأوّلين منهم كالجاحظ؛ فإنّه لا يبعد عن سُنن العرب كبعد صاحب دلائل الإعجاز، ولم يبعد هذا إلا لقلّة ممارسته بكلام العرب الخلّص. فلو تيسر له ذلك عرف منزلتهم في هذه الصناعة، واعترف بفضلهم على المولّدين، وقال بقول الجاحظ... فلمّا تركوا منهج كلام العرب صار أهم شيء عندهم البديع، ومطمح نظرهم التشبيه، وعند الأوّل [يعني الجاحظ] أولهما [البديع] منكر، والثاني [التشبيه] غير مهم لذاته"⁽⁷⁸⁾. فبلاغة الجاحظ التي بنى عليها الفراهي جمهرته هي بلاغة العرب الخلّص الأقحاح؛ بلاغة البيان، والبلاغة المقابلة هي بلاغة المولّدين والبلديين المتكلّفين ومن أهل الصنعة المتأدّبين، وهي التي يمثّلها مشروع الجرجاني، وهي بلاغة البديع، ويقول الفراهي أيضًا: "ثم علمت أنّ سبيلهم في نقل الكلام لم يكن كسبيل صاحب أسرار البلاغة، وهو القدوة للذين جاؤوا من بعده، فاتّبَعوا خُطواته، فكان سبيلُهُ سدًّا بيّنهم وبين العرب. فلو التزموا كلام العرب، ولم يلتفتوا إلى أصول مهّدها المبعدون، لكان خيرًا لهم، وكانوا أقرب إلى معرفة إعجاز

(77) - يُنظر: المصدر نفسه، 396.

(78) - جمهرة البلاغة، 101-102.

القرآن من طريق الدُّوق، وإن لم يكونوا من طريق الصِّناعة⁽⁷⁹⁾. وفي تأثر البلاغيين بالأعاجم في بلاغة البديع نورد كلام الفراهي الآتي: "لَمَّا رَأَوْا أَنَّ أَرَسْطُو أَسَسَ الأَمْرَ عَلَى مَهَارَةِ الأَخْتِلاقِ، سَبَقَ إِلَى ظَنِّ بَعْضِهِم أَنَّ أَحْسَنَ الشَّعْرِ أَكْذَبُهُ؛ وإذ لَيْسَ فِي أشعارِ العَرَبِ مِنْ أَمْرِ القِصَّةِ وَالجِكايةِ إِلاَّ التَّشْبِيهَ، ظَنُّوا أَنَّ العُلُوَّ فِي التَّشْبِيهِ مِنَ المَحاسِنِ، وَكَمَا أَنَّ المِحاكاةَ صارتَ عَمودَ الرَّجَاحَةِ عِنْدَ أَرَسْطُو، فَكَذَلِكَ صارَ التَّمثِيلُ وَالتَّشْبِيهُ الَّذِي يُشابِهُ القِصَّةَ عِنْدَهُم قُطْبَ البِلاغةِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ وافقوه فِي عَيْنِ هَذَا الرَّأْيِ، فَإِنَّهُ قالَ فِي عَدِّ مَحاسِنِ الكِلامِ: (إِنَّ أَعلى كِمالِ البِليغِ أَنْ يَكُونَ حاذِقًا فِي اسْتِعمالِ التَّشْبِيهِ). وقالَ صاحِبُ أسرارِ البِلاغةِ: (كَأَنَّ جَلَّ مَحاسِنِ الكِلامِ -إِنْ لَمْ نَقُلْ كَلِمًا- مَتَفَرِّعَةٌ عَنها (أنواعِ التَّشْبِيهِ) وَراجِعَةٌ إِلِها)"⁽⁸⁰⁾. نَعَم كانَ عَبدُ القاهِر كَذلكَ فِي (أسرارِ البِلاغةِ) بِدرجَةِ عالِيَةٍ، غَيرَ أَنَّهُ فِي (الدلائل) كانَ بِدرجَةِ أَقلِّ، عَلى أَنَّ الطابِعِ الأَسلوبِي طغى عَلى أَطروحاتِهِ بِعامَّةٍ، أو لِنَقْلِ: فَتَحَ البابَ عَلى مِصراعِيهِ أَمامَ بِلاغَةِ الأَساليبِ البِديعيَةِ نَظييرًا، فَتَحًا يَكاذِ يَضاها يَ صَنيعِ الشَّعراءِ المولَّدِينَ فِي مِجالِ التَّطَبُّقِ فِي تَصيِّدِ البِديعيَّاتِ أو القِصِدِ إِلِها وَالاِنشِغالِ بِها.

الخاتمة

إن المنعطف الكبير الذي مرّت به البلاغة العربية إبان توسّع الدولة العربية الإسلامية شطرها إلى بلاغتين متعاقبتين: أولاهما بلاغة عربية صرف تستقي ماءها وغذاءها من تربة أدب عربيّ صرف لم تعتره لوثة العجمة، وهل النبت إلا بتربته، والأخرى بلاغة هجينة أثّرت فيها العجمة من جهتين: من جهة الموضوع؛ إذ إن شعر المولّدين البديعيين الذي يمثّل مادّة نظر نقاد البديع وبلاغيينه، تأثر بثقافة العجم، فحاد عن سنن الأوائل الفحول أسلوبًا وموضوعاتٍ، ومن جهة المنهج؛ إذ دخل المنطق اليوناني وغيره في أدبيات التفكير البلاغي والنقدي عند أنصار البديع، فالانشطار التعاقبي الذي تعرّضت له البلاغة العربية من بلاغة البيان إلى بلاغة البديع هو ذو أبعاد تاريخية ومنهجية ومعرفية وفكرية وثقافية؛ انتقلت فيه البلاغة من طور الثقافة والبيان والحجاج والقوّة (الطور التداوليّ)، وهي أمور يجمعها الطبع أدبًا، والذوق نقدًا وبلاغةً، إلى طور البديع والتخييل والضعف (الطور الأسلوبيّ)، ولنا أن نمثّل لذلك في الجدول الآتي:

(79) – المرجع نفسه، 103-104.

(80) – المرجع نفسه، 107-108.

المضمون	الجماعة	التداول	شرف المعنى	الجزالة	المناسبة	الطبع	البيان
الشكل	الفرد	التخييل	سُخف المعنى	الرقّة	الإغراب	التكلّف	البديع

إنّ انشغال الأدباء والنقاد واللغويين والبلاغيين بوضع مصنّفات التثقيف اللغويّ والأدبيّ عبر مساحة واسعة من تراثنا العربيّ يمكن أن نلمس فيه دلالةً على الضعف الذي هيمن على أدباء عصر البديع، وسعيًا لإعادتهم إلى بيت الطاعة؛ أي إلى أدب الفحول، وذلك تحت غايات أخرى تظهر وتخفى من قبيل مكافحة اللحن، وفهم القرآن وإعجازه.

إن القول بوجود بلاغتين لا بلاغة واحدة قد يبدو أمرًا بسيطًا إذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك؛ إذ نقف مطمئنين ننظر من شرفة عليّة نتأمّل ذلك الانشطار الفكري والثقافي، فلم يعدّ الأدب معبّرًا عن ثقافة المجتمع، وغاب عنه الحسّ الجمعي، فصار يعبّر في عصر التسابق على البديع والهيّام الأسلوبيّ عن الشاعر المبدع المتميّز، بل إنه تجاوز ذات الشاعر إلى التعبير عن ثقافة الإبداع اللغوي، فانتقل بنا من مجال الرؤية والفكرة والموضوع والوظيفة إلى دائرة التشكيل واللّذة والأسلوب والبنية. لقد كان الحديث عن المعنى بما هو ثقافة، فأصبح الحديث عنه بما هو مقابل للفظ في ظلّ ثقافة البديع والتشكيل، فتحول المعنى من الثقافة العامة إلى الخاصة، من قراءة المعنى من جهة الصحّة والمناسبة إلى قراءته من جهة السرّق والتوليد أو الإبداع والابتداع.

نستطيع أن نصعد بالقول: إن التراث العربيّ الإنسانيّ بعامّة بدأ يعيش، مع ذلك الانشطار، غربةً تعاضمت مع الزمن، فقد كانت ثقافة المجتمع، بما هو كائن، تداولية تقوم على البيان، وكانت ثقافته، بما يجب أن يكون عليه، بلاغية إفصاحية تقوم على الصدق والمناسبة، ثم تجاوزت في ظل بلاغة البديع ذينك الإطارين من جهة تعمّد الشعراء انتهاج خطوط خاصة تخرج عن ثقافة الأمة بحثًا عن التفرد الذي لا يكون مع البيان والصدق والمناسبة التي تمثّل روح الثقافة الجمعية. وكان في الإغراب والغوص في المعاني.

حاول أنصار الطبع والبيان وضع معايير للحفاظ على ثقافة المجتمع والأمة تمثّلت في التثقيف اللغوي (القياس النحوي)، والأدبي الفني (عمود الشعر)، والأدبي الاستعمالي (نظام القصيد)، وبينهما العرف اللغوي الاستعمالي، غير أن أثر الثقافات الوافدة كان أشد من أثر ثقافة الأمة على المستوى الأدبي على نحو كبير، وعلى مستوى اللغة على نحو أقل، ثم إنّ المنطق على مستوى التفكير النقدي النظري، والتخييل على مستوى التفكير

الأدبي الإجرائي كانا جديدين على ثقافة الأمة العربية الإسلامية في عصورها الأولى، فانتهى ذلك الخروج عن بيت الطاعة إلى تشتت الروح الجماعية، ولعلّهُ سبب في تشتت الأمة. إن ذلك الانشطار لم يكن على المستوى النظري (اللغة والنقد والبلاغة)، والإجرائي (الأدب) فحسب، كما لم يكن على مستوى الفكر والثقافة وما أشبه ذلك، بل إننا لنقف على كثير من التفاصيل التي أصابها ذلك الانشطار، فحدث أن انتقلنا من أفق التلقي العامّ إلى دائرة الإبداع الخاصّ، ومن التخيّل إلى التخيل، ومن الحقيقة إلى التزييف، ومن الكلام الذي يكشف نفسه بنفسه، إلى الذي يحتاج إلى تأوّل، ومن الاستدلال اللغوي إلى الاستدلال العقلي، ومن الطبع إلى التصنّع على مستوى الإبداع، ومن الذوق إلى المعرفة على مستوى التلقي، ومن حيوية الطلل إلى جمود البلاطات، ومن خشونة البداوة وبساطتها ووضوحها وانفتاحها وصدقها وأفقيتها، إلى رقة المدنية وميوعتها وتعقيدها وزيفها؛ لقد أصبح الكمال في جمال المعنى، وقد كان الجمال في كمال المعنى.

المصادر والمراجع

1. الأمديّ: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحرّي، تح: السيد أحمد صقر، ط4 دار المعارف، القاهرة (د.ت).
2. ابن الأثير، ضياء الدين: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تح: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، العراق 1375هـ.
3.المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت 1999م.
4. ثعلب: قواعد الشعر، تح: رمضان عبد التواب، ط2 مكتبة الخانجي، القاهرة 1995م.
5. الجاحظ، أبو عثمان: البيان والتبيين، تح وشرح: عبد السلام هارون، ط7 مكتبة الخانجي، القاهرة 1998.
6. الجراح، عامر: أثر الفكرين النقديّ والإعجازيّ في نشأة البلاغة، بحث أُلقي في مؤتمر علوم اللغة والفكر والدين؛ الإشكالات القديمة والمحاکمات الحديثة) بجامعة ماردين آرتوقلو، 2018.
7.التفكير البيانيّ عند العرب؛ قراءة تداولية، ط1 دار سنابل، إسطنبول 2019م.

8. مفهوم الضرورة الشعرية وصلتها بقضية الفحولة: الإقواء عند الفرزدق نموذجًا، مقالة منشورة في مجلة آرتوقلو أكدمي، جامعة ماردين آرتوقلو، كلية العلوم الإسلامية، 2019، مج 6، ع 2.
9. الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة- دار المدني، جدة (د.ت).
10. دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، ط 3 مطبعة المدني، القاهرة- دار المدني، جدة 1992م.
11. حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تح: محمد شرف الدين بالتقيا، ورفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث، بيروت (د.ت).
12. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري؛ شرح صحيح البخاري، قام بإخراجه وصحّحه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت 1379هـ.
13. الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم خفاجي، ط 3 المكتبة الأزهرية للتراث، 1993م.
14. ابن رشيقي القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حقّقه وفصّله وعلّق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 5 دار الجيل، بيروت 1981م.
15. ابن سعيد المغربي: المرقصات والمطربات، اعتنى به مصطفى النجاري، جمعية المعارف، مصر 1286هـ.
16. السكاكي: مفتاح العلوم، ضبطه وكتبه هوامشه وعلّق عليه: نعيم زرزور، ط 2 دار الكتب العلمية، بيروت 1987م.
17. ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، صحّحه وعلّق عليه: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، 1952م.
18. سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ط 3 مكتبة الخانجي، القاهرة 1988.
19. السيوطي، جلال الدين: نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي)، جامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين المملكة العربية السعودية 1424هـ= 2005م.
20. الشريف الجرجاني: معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة (د.ت).

21. صمّود، حمّادي: التفكير البلاغي عند العرب؛ أسسه وتطوّره إلى القرن السادس، (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، 1982. ابن طباطبا: عيار الشعر، تح: عبد العزيز المانع، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض 1985.
22. ابن عبد ربّه الأندلسي: العقد الفريد، تح: عبد المجيد الترحيني، ط1 دار الكتب العلمية، بيروت 1983 م.
23. العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1 المكتبة العصرية، صيدا بيروت 2006 م.
24. العمري، محمد: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، بيروت- لبنان، المغرب- الدار البيضاء 1999 م.
25. الفراهي، عبد الحميد: التكميل في أصول التأويل، تح: محمد سميع مفتي، الدائرة الحميدية 1388 هـ.
26.جمهرة البلاغة، تح: محمد الرهاوي وعامر الجراح، ط1 دار سنابل، إسطنبول 2019 م.
27. القاضي الجرجاني، علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، (د.ت).
28. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تح وشرح: محمود شاكر، دار الحديث، القاهرة 1423 هـ.
29. أدب الكاتب، تح: محمد الدالي، ط2 مؤسسة الرسالة، بيروت 1996 م.
30. قدّور، أحمد: مصنّفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر الهجري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1996 م.
31. المبرّد، أبو العباس: البلاغة، تح: رمضان عبد التواب، ط2 مكتبة الخانجي، القاهرة 1985 م.
32.الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3 دار الفكر العربي، القاهرة 1997 م.
33. المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد: شرح ديوان الحماسة، تح: أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط1 دار الجيل، بيروت 1991 م.
34. ابن منظور: لسان العرب، ط3 دار صادر، بيروت 1414 هـ.

البحث الخامس

اللُّغَةُ وَاللِّسَانُ
رَأْيٌ فِي بَعْضِ إِشْكَالَاتِهِمَا

د. محمد خالد الرهاوي

قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم - جامعة قطر

اللغة واللسان

رأي في بعض إشكالاتهما

د. محمد خالد الرهاوي*

مقدّمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد؛ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه الأطهار أصحاب الفصاحة والبيان. وبعد:

فمع أن البحث في اللغة قديم قدم الحياة الإنسانية، ونظرياته كثيرة جدا، ودوافعه كثيرة ومتعددة، منها الدينية والسياسية والعرقية والاقتصادية وغير ذلك، إلا أن الاختلاف في جملة أمور متعلقة باللغة ما زال مستمرا إلى يوم الناس هذا. من ذلك الخلاف في تعريف اللغة نفسها، والخلاف في أصلها، وهل هي وقف وإلهام أو تواضع واصطلاح؟ هل اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم فحسب؟ أين يصنف كلام المرء بينه وبين نفسه؟ وهل اللغة هي نفسها اللسان؟ وهل الكلام هو نفسه اللسان أو اللغة؟

في أصل كلمة لغة:

اختلف الباحثون في أصل كلمة لغة، فمنهم من ذهب إلى أنها معرّبة عن كلمة (Lagos) اليونانية، ومن هؤلاء د. حسن ظاظا، ود. أحمد مختار عمر وغيرهما، يقول د. حسن ظاظا: "والغريب أن لفظة لغة لم ترد مستعملة في كلام عربي يُعتدُّ به، وإنما كانت العرب تسمي مجرد الضوضاء التي لا طائل من ورائها لغواً، وجاء من ذلك الفعل ألغى يُلغى؛ بمعنى أبطل؛ أي اعتبر ذلك لغواً؛ ولذلك اختلف في اشتقاقها، وحرار بعض الأعراب في جمعها، وإنما -ونحن لا نجد شاهدا واحدا على استعمال العرب لكلمة اللغة بهذا المعنى العلمي الذي نعنيه، ونظراً لما بدا من اضطراب اللغويين في اشتقاقها، وتردّد الأعرابي في ضبط جمعها- لنميل إلى القول بأنها من أصل يوناني، هو كلمة (لوغوس) التي بمعناها الأصلي كلمة أو كلام"¹. والرد على أصحاب هذا المذهب من وجوه:

* قسم اللغة العربية- كلية الآداب والعلوم- جامعة قطر. rhawi082@gmail.com

¹ اللسان والإنسان ص 120

1. قوله: "أن لفظة لغة لم ترد مستعملة في كلام عربي يعتدُّ به" غير صحيح، فقد استعملها الشعراء في الجاهلية والإسلام والعصور التالية لهما، وعدم وقوفه عليها في أشعارهم لا ينفي معرفتهم لها واستعمالهم إياها، وممن استعملها أمية بن أبي الصلت بقوله:

والوحشُ والأنعامُ كيف لغاتها
وذو الرمة بقوله²:

مِنَ الطَّنَابِيرِ يَزْهَى صَوْتُهُ تَمِلُّ
وأبو دهب الجمحي بقوله³:

قلتُ: هذي لغةٌ أنكرها
وعمارة بن عقيل بقوله⁴:

تَشَبَّهتْ بِالْأَعْرَابِ أَهْلِ التَّعْجُرْفِ
لِسانِ نِباطِيّ البِيانِ صرْفته
فدلَّ على فحواك قُبْحُ التَّكَلُّفِ
إلى لغةِ الأعرابِ لم يتصرَّفِ

2. قوله: "إنما كانت العرب تسي الضوضاء التي لا طائل منها لغوا" لا ينافي عدم معرفتهم الكلمة أو استعمالهم إياها، ثم إن ثمة بوناً واسعاً بين لغةٍ ولغوٍ، وإن كانا من أصل لغوي واحد.

3. استدلاله على أعجمية كلمة لغة باختلاف العلماء في اشتقاقها مردود بأن كثيراً من الكلمات العربية الأصيلة قد اختلفوا في اشتقاقها، وذلك لا ينفي عربيته، فالاختلاف في تفسير الكلمة وبيان جذرها كالاختلاف في تفسير النص الشعري، فهو لا ينفي شعريته وأدبيته، بل يؤكدها.

4. قوله: "ونحن لا نجد شاهداً واحداً على استعمال العرب لكلمة اللغة بهذا المعنى العلمي الذي نعنيه" لا ينهض دليلاً على أعجميتها؛ لأننا لو جعلنا كل كلمة لم نقف على شواهدا أعجمية لكان لزاماً علينا أن نخرج كلمات عربية أصيلة كثيرة من عربيته، ثم إن الشعراء العرب في عصور الاحتجاج استعملوها بالمعنى العلمي الذي نقصده

² ديوان ذي الرمة ص 250

³ ديوان أبي دهب الجمحي ص 64

⁴ ديوان عمارة بن عقيل ص 100

اليوم، كما مرَّ آنفأً، ولو لم يستعملوها بهذا المعنى فلا يخرجها ذلك من العربية، فالمصطلحات العلمية الحديثة التي اصطلح عليها بين أهل الاختصاص في زماننا هذا لا يمكن أن نحكم عليها بالعجمة إن لم يستعملوها بالمعنى الذي نستعمله اليوم، ولو سلكنا هذا المنهج لأخرجنا كثيرا من الكلمات من نحو الهاتف والسيارة والجوال وغيرها من العربية.

5. أن العرب استعملت الكلمتين (اللغة واللسان)، لكن استعمالها للسان أكثر للدلالة على ما نطلق عليه اللغة اليوم، وكذلك القرآن الكريم استعمل كلمة لسان، وهذا التمييز بين اللغة واللسان غاية في الدقة، وقد فرقت بينهما الدراسات اللسانية الحديثة بدءا من سوسير وانتهاء بتشومسكي وتلامذته. وإن كانت الكلمتان تستعملان بمعنى واحد أحيانا، لكن التفريق بينهما يحل كثيرا من الإشكالات التي أثرت حول اللغة والكلام منذ القديم.

6. أن الاختلاف حول مصطلح "اللغة" كبير وكثير، والمفاهيم له مضطربة متعددة، فليس هناك إجماع تام بين العلماء القدامى أو المحدثين على دلالة اللغة.

7. أن العرب استعملت "اللغة" للدلالة على لهجات القبائل كثيرا، وهذا يوافق تماما المصطلح العلمي الذي نقصده اليوم، ذلك أن العربية كانت لغات عدة حتى جاء الإسلام وجعلها لغة موحدةً موحدةً، فضعفت بذلك لغات القبائل لصالح اللغة الموحدة.

8. أن كلمة (لوغوس) حسب د. حسن ظاظا نفسه تعني في اليونانية الكلمة أو الكلام، وشتان ما بين اللغة والكلام في الاستعمال العربي، وفي الاصطلاح العلمي، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

9. أن اللسان اليوناني وغيره من الألسن الأخرى قد تأثرت باللسان العربي، وأخذت منه ألفاظا كثيرة جدا، بل تذهب د. تحية عبد العزيز إلى أن اللسان العربي أصل لكل الألسن⁵، والفرع يأخذ من الأصل لا العكس.

⁵عالم الأسرار ص3 وما بعدها. ودراسة د. تحية عبد العزيز بعنوان:

ومن ثَمَّ فالكلمة عربية أصيلة، وقد اختلف في اشتقاقها، أهي من (لغو) أم من (لغي)، يقول ابن جني: "فُعْلَةٌ مِنْ لُغُوتٍ؛ أي: تكلمت. وأصلها: لُغَةٌ كَكُرَّةٍ، وَقُلَّةٍ، وَثُبَّةٍ، كُلُّهَا لَامَاتُهَا وَأَوَاتٍ؛ لقولهم: كروْتُ بالكُرَّةِ، وَقَلَوْتُ بِالْقُلَّةِ... وقالوا فيها: لُغَاتٌ وَلُغُونٌ، كَكُرَاتٍ وَكُرُونٍ. وقيل: منها لَغِيٌّ يَلْغَى إِذَا هَدَى، ومصدرُهُ: اللَّغَا...".⁶

لقد استعملت كلمة "اللغة" في الجاهلية للدلالة على ما نقصده اليوم من مصطلح علمي قليلا، وعلى لهجات القبائل كثيرا، كما استعملت بالمعنى الثاني في العهد النبوي والراشدي، فقد جاء في مسند الإمام أحمد: "أخبرني ما نَهَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَوْعِيَةِ، وَفَسَّرَهُ لَنَا بَلُغْتَنَا...".⁷ كما استعملت اللسان بمعنى اللهجة، يقول المرقش الأكبر:⁸

أَتَتْنِي لِسَانُ بَنِي عَامِرٍ فَجَلَّتْ أَحَادِيثُهَا عَنْ بَصَرِ

استعملت كلمة "اللغة" مصطلحاً نحوياً في الرَّبْعِ الْأَوَّلِ من القرن الأول الهجري، في المدينة المنورة، وذلك في عهد عمر بن الخطاب في قصة الأعرابي الذي سمع قارئاً يقرأ: {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ } [التوبة: 3] بجِزِّ كلمة "رسوله"، فأمر عمر ألا يُقْرَأَ النَّاسَ الْقُرْآنَ إِلَّا عَالِمٌ بِاللُّغَةِ. 9

وواضحٌ من النص السابق أنَّ المرادَ باللُّغَةِ هو النحْوُ، بدليل جِزِّ المرفوعِ، ثُمَّ إِنَّ عِبَارَةَ "عَالِمٌ بِاللُّغَةِ" تدل على علمٍ، وأن هذا العلم قد شاع وعرف بينهم، وأنه بناء على ما سبق هذه العبارة هو ما يعنى بحركات أواخر الكلم، ولا شك أنه النحو ليس غير، بل هو ما استقرَّ عليه عند المتأخرين. فاللغة في قول عمر بن الخطاب توازي مصطلح النحو تماماً. فإن قيل: إن "اللغة" مصطلح معروف آنذاك، وليس بجديدٍ. قلت: نعم، والجواب عن ذلك من وجوه:

أ- مصطلح "اللغة" معروف بدلالته اللغوية المعجمية، وليست الدلالة الاصطلاحية بمنأى عنها أو مناقضة لها، بل ترتبط بها، وهذا شأن المصطلحات الأخرى في

⁶ الخصائص 34/1

⁷ مسند الإمام أحمد 168/9 برقم (5191).

⁸ ديوان المرقشين ص 53

⁹ إيضاح الوقف والابتداء 39/1

النحو وفي غيره من العلوم، تحمل الكلمات دلالات اصطلاحية يتفق عليها جماعة من الناس للتعبير عن ظاهرة أو فكرة أو معنى ما.

ب- أنّ ظهور اللحن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم واتساعه بلا شك لجملته أسباب عقلية = يقتضي وضع ما يصلح به اللحن، كيف لا، وهم يعدون اللحن من الافتراء؟¹⁰ والافتراء صفة ينبذها الإسلام ويشنع على من يتصف بها، فكيف يمكن ألا تتخذ وسائل إصلاحيّة لما وقع، ووقائية منعاً لما سيقع منه؟

ت- أنّ مصطلح "لغة" صار عند نحاة القرن الثاني الهجري يطلق على اللهجة، وكان سيبويه كثيراً ما يقول: وهذه لغة قريش، وهذه لغة تميم¹¹. ثم صار في القرن الرابع الهجري عندهم أصواتا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، حسب ابن جني¹². واستعملت الكلمة في عصرنا الحديث بمعنى اللسان، وغلبت عليه، فصرنا نسمع: اللغة العربية، اللغة التركية، اللغة الإنكليزية ... بدلا من اللسان العربي، واللسان التركي، واللسان الإنكليزي ...، وهذا من باب الترادف كما كان في استعمال العرب في الجاهلية والإسلام لهما.

في أصل نشأة اللغة وإشكالاته:

والخلاف في اللغة ليس حول أصل الكلمة فحسب، بل امتد أيضا إلى أصل نشأة اللغة نفسها؛ متى بدأت؟ وكيف بدأت؟ وذهب العلماء والباحثون في ذلك أربعة مذاهب¹³:

1. فمنهم من ذهب إلى أنها إلهام إلهي، ومن هؤلاء في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراكليت، وفي العصور الوسطى أحمد بن فارس، وفي العصور الحديثة عدد من العلماء منهم الأب لامي في كتابه فن الكلام، والفيلسوف دوبونالد في كتابه التشريع القديم.

2. ومنهم من ذهب إلى أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال أفاضها ارتجالا، ومن هؤلاء قديما الفيلسوف اليوناني ديموكريت، وفي العصور

¹⁰ الإيضاح في علل النحو 96

¹¹ الكتاب 601/3 و107/4 و417 و440

¹² الخصائص 34/1

¹³ انظر المذاهب الأربعة في: نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ص 30-41

الوسطى كثير من الباحثين في فقه اللغة العربية، وفي العصور الحديثة الفلاسفة الإنكليز آدم سميث، وريد، ودجلد ستيوارت.

3. ومنهم من زعم أنها ترجع إلى غريزة خاصة زوّد بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني، وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي... ثم أهملت هذه الغريزة وتلاشت قليلا قليلا مع ظهور اللغة الإنسانية الأولى، كما انقضت غرائز أخرى، ومن هؤلاء العلامة الألماني مكس مولر، والعلامة الفرنسي رينان.

4. ومنهم من ذهب إلى أنها نشأت أول الأمر تقليدا لأصوات الطبيعة مثل أصوات الحيوانات وأصوات مظاهر الطبيعة مثل دوي الريح وقصف الرعد...، وسارت في سبيل الرقي شيئا فشيئا تبعا لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة...، ومن هؤلاء معظم المحدثين من علماء اللغة، مثل وتني Whiteny، ومن العصور الوسطى ابن جني¹⁴.

والحق أن هذا الخلاف منشؤه الخلط بين اللغة واللسان والكلام، والتفريق بين هذه المصطلحات الثلاثة – كما ذهب إليه سوسير وغيره- ينسف الافتراضات السابقة نسفا ويوقفنا على أصل اللغة ومصدرها، ومتى استعملت؟ وكيف استعملت؟ لكن قبل ذلك لا بد من التفريق بين المصطلحات الثلاثة حتى نستطيع الحكم وإيراد الأدلة المثبتة له. فاللغة هي الملكة المتمثلة في القدرة على الإفصاح والإبانة والتعبير عما في النفس، وهي التي تميز الإنسان من سواه.

واللسان هو نسق تواصلية بين قوم من الأقوام يشتركون في جملة من المقومات الثقافية والاجتماعية والحضارية، كالعرب والترک والفرس...، فيقال: اللسان العربي، واللسان التركي، واللسان الفارسي...، كما سنرى لاحقا على نحو مفصّل.

أما الكلام فهو الأداء العملي للسان، ويتمثل بثلاثة أشكال كما سنرى لاحقا على نحو مفصّل¹⁵.

¹⁴ الخصائص 41/1 وما بعدها.

¹⁵ انظر: مباحث في اللسانيات ص33

إنَّ هذا التفريق بين المصطلحات الثلاثة يوصلنا إلى أن اللغة من الله سبحانه وتعالى من دون أدنى ريب، وذلك لأدلة عدة:

1. دليل قطعي من كلام الله {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}

[الرحمن: 1-4]، والمراد بالبيان- والله أعلم- هو القدرة على الإبانة والإفصاح.

2. أن آدم عليه السلام قبل هبوطه على الأرض كان يتكلم، وقد قال له الله تعالى، وقول

الله تعالى كلام، {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا

تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 35]، وعلى افتراض أنه لم يكن

يتكلم، فإنه لا شك كان يفهم الكلام تماما، وإلا فكيف يخاطبه الله بما لا يفهم،

وفهمه لقول الله تعالى يدل على أنه يعرف اللغة واللسان والكلام بمعانها التي

نقصدتها اليوم. ثم طلبه تعالى من آدم أن ينبي الملائكة بالأسماء بالقول أيضا {قَالَ يَا

آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: 33]، وإنباؤه لهم بذلك

لا يمكن أن يكون وحيا أو إشارات، بل بكلام منتظم، أيا كانت تلك الأسماء، فهو إما

أن يكون قد تلقى تلك الأسماء من الله تعالى، وأنباؤهم بها أو تلقاها وحياً ثم أنباؤهم بها،

وفي الحالين لا يمكن أن يكون الإنباء من دون اللغة واللسان والكلام. ثم أمر الله تعالى

لآدم بالهبوط على الأرض بقولٍ صريحٍ أيضاً {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا

فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ}

[البقرة: 30-33]، {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 38]، ثم بعد هبوطه على الأرض خاطبه أيضاً

{فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} [البقرة: 37]، وهذه الآيات الكريمة تدل دلالة

قطعية على أن آدم – والبشرية من نسله- كان يتكلم ويقول، ولديه قدرة على الإبانة

والتعبير عن الأفكار (لغة)، ونسق تواصلي (لسان)، وأداء كلامي (كلام)، وإلا فكيف

يتلقى من ربه تلك الكلمات؟ وكيف يأتيه الهدى من ربه من دونها؟ ليس بعيدا أن

يكون اللسان الأول الذي تحدث به آدم مع ربه، وأنباؤه الملائكة بالأسماء، والكلمات

التي تلقاها من ربه بالتوبة= من عند الله أيضا، ثم تأثر نطق أبنائه بالمناطق التي

سكنوها، وازداد التباين والاختلاف، وازدادت معطيات الحياة عند كل منهم

واختلفت، فراح كل منهم يتواضع ويصطلح على مسميات ما يستجد عندهم،
فاختلفت المسميات وازدادت، فصارت ألسنا متعددة لأقوام متعددين.

3. أن ثمة آيات كريمة جاءت بلفظ تعليم الله للإنسان، ومنها قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ
الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} [البقرة: 31]، وقوله {خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن: 3-4]،
وقوله {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 3-5].
والتعليم لا يمكن أن يكون من دون لغة ولسان وكلام. كيف يكون التعليم من دونها؟
أليس تعليم الله البشر له طريقان فحسب؛ هما إما التكليم المباشر كما {وَكَلَّمَ اللَّهُ
مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164]، وإما الإلهام، وكلاهما يوصلان إلى أن اللغة من الله
تعالى. وكلاهما يستدعي اللغة واللسان (النسق التواصلية)، فالتكلم لا يكون من
دونهما، والإلهام لا يمكن إيصاله والتعبير عنه من دونهما أيضاً. زد على ذلك أن أحد
وسائل التعليم هو القلم، والقلم يتمثل دوره الأسى في الكتابة والتدوين، ففي هذا
تصريح بأن الكتابة أيضاً من الله تعالى، والله أعلم. وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن
رسم القرآن الكريم كان توقيفاً من الله تعالى¹⁶.

4. ثمة دليلٌ ظنيٌّ من كلام الله تعالى أيضاً، يحتمل أن يكون المراد به اللغة، وهو قوله تعالى
{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} [البقرة: 31]، لكن على افتراض أن المقصود بالأسماء ليس
اللغات فإن تعلم الأسماء يتطلب لغةً ولساناً، ثم إن ثمة مرتكزا جوهريا في الآية هو
التعليم، كما أسلفنا.

5. أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان، وأكرمه بالعقل، وميزه به من سواه، ومن
المعلوم أن عمل العقل في التفكير أدائه اللغة، ولا يمكن أن يعمل أو يفكر من دون
لغة، فهل يمكن أن يكون الله سبحانه وتعالى قد منحنا العقل وقدرته على التفكير
وحرماننا أدواته؟ ما قيمة العقل بلا أداة يعمل بها؟ ثم إن الله تعالى قد أمر الإنسان
بالتأمل والتدبر، لكن هل يمكن أن يتأمل من دون اللغة؟ هل يأمره الله تعالى بشيء لا
يملك أهم أداة له؟ ألم يقل الله تعالى {أَتُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: 233].

6. أن الله تعالى قد خلق الجن والإنس ليعبدوه، فهل يمكن أن يكلفهم بالعبادة من دون
أن يكرمهم بما يستطيعون به أداء تلك العبادة، ولا شك أن اللغة واللسان أهم

¹⁶ انظر: إجاز الرسم القرآني بين المثبتين والنافين ص404

وسيلتين لذلك الأداء. هل يعقل أن الإنسان كان يعبد الله بتقليد أصوات الطبيعة والحيوانات وغيرها؟ أليس في افتراض أن الإنسان كان يقلد تلك الأصوات حتى تواضع على الألفاظ والأنظمة اللغوية حطاً من قدرة الإنسان وكرامته، بل أليس في ذلك اهتمام خفي بإهمال الله – حاشاه سبحانه وتعالى- لمخلوق خلقه في أحسن تقويم وكرمه كل التكريم وكلفه بعبادته، ثم حرمة وسيلة المعرفة والعبادة الأهم؟

7. أن آدم عليه السلام كان في الجنة يتكلم وخاطب الله والملائكة وإبليس، فهل فقد القدرة على الكلام عندما هبط على الأرض؟ هل كان هناك مجتمع إنساني آخر لكي يتواضع أهله على اللغة أو على اللسان بعد هبوط آدم على الأرض؟

ولعل الأدلة السابقة قد تهم بأنها قد اعتمدت على القرآن الكريم وحده، وليس ثمة أدلة علمية تعززها أو تؤكدتها، والجواب عن ذلك أن القرآن الكريم كلام الله الذي {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42]، وأن الأدلة السابقة التي أفصح عنها القرآن الكريم، وأما بصحتها ودقتها = قد توصلت إليها الدراسات اللغوية الغربية الجادة التي اعتمدت المخابر والأجهزة العلمية، وأجرت التجارب والبحوث الكثيرة لتصل إلى هذه الحقيقة، ومنها:

1. أن سوسير – وهو أبو اللسانيات كما يسميه الغرب والعرب- قد ذهب إلى هذا المذهب، ورأى أن اللغة هي الملكة الإنسانية المتمثلة في تلك القدرات التي يمتلكها الإنسان والتي تجعله يتميز عما سواه من الكائنات الأخرى¹⁷.

2. ذهب تشومسكي – وهو من هو في الحقل اللساني اليوم- إلى أن اللغة ملكة بشرية نوعية خاصة ... ليس لها شبيه ذو أهمية في أمكنة أخرى¹⁸. "وتقوم اللغة البشرية على خاصية أولية تبدو أيضا معزولة بيولوجيا، إنها خاصة اللامحدودية (اللانهائية)... إن الأطفال لا يتعلمون هذه الخاصية، فما لم يمتلك العقل المبادئ الأساسية قبلاً، لا يمكن لأية كمية من الأدلة أن توفرها... وهذه المعرفة تأتينا من "اليد الأصلية للطبيعة" على حدٍ ديفيد هيوم بوصفها جزءاً من موهبتنا الطبيعية البيولوجية"¹⁹؛ أي أن الإنسان خلق

¹⁷ مباحث في اللسانيات ص33

¹⁸ آفاق جديدة في اللغة والعقل ص33 وانظر: ص40

¹⁹ آفاق جديدة في اللغة والعقل ص40

مزودا بهذه المبادئ الأساسية للغة، وهي جزء من تجهيزه العقلي، فالطفل يولد ومعه قدرة أو مبادئ ثابتة في العقل محددة بيولوجيا ومختصة في تعلم اللغة، لكنهم لم ينسبوا إلى الله سبحانه الذي خلقنا وزودنا بها، بل إلى الطبيعة، لكونهم لا يؤمنون به أصلا. يقول تشومسكي: "إن ملكة اللغة محتواة ضمن العمارة الأوسع للعقل/الدماغ. إنها تتفاعل مع أجهزة أخرى تفرض شروطا يجب على اللغة أن تستوفيها..."²⁰.

3. ثمة دراسات كثيرة تذهب إلى أن اللغة فطرية؛ أي غريزة أساسية في البشر، والطفل يولد ومعه فهم أساسي لمبادئ اللغة، وهذه المبادئ اللغوية المجردة مهمة وتخضع لها جميع اللغات الطبيعية، وتشمل القدرة الرئيسة الأساسية للغة، والتي يتمتع بها كل فرد، ووهبت لهم بشكل موحد وبالتساوي؛ بمعنى أن هذه العموميات المشتركة موجودة لدى كل إنسان بوصفها جزءاً من تجهيزه العقلي والفطري²¹. ثم اختلف في عاقبة هذه الفطرة، فقد ذهب العلامة الألماني مكس مولر والعلامة الفرنسي رينان إلى أنها بعد ظهور اللغة الإنسانية الأولى قد تلاشت قليلا قليلا حتى اختفت²²، وذهب تشومسكي أنها ستكون اللغة إذا ما قدمت لها المادة الأولية، يقول: "فالملكة اللغوية مكوّن من مكونات العقل/الدماغ؛ أي أنها جزء من الإعداد الحيائي للإنسان، فإذا قدّم للطفل، أو على الأذق قدّم لملكته اللغوية المادة الأولية فسيكوّن لغة ما؛ أي أنه سيكوّن نظاما حوسبيا من نوع معين يعطي تمثيلات بنوية للتعبيرات اللغوية، تحدّد أشكال هذه التعبيرات ومعانيها"²³.

3. أن الدراسات العلمية الحديثة لدماغ الإنسان قد توصلت إلى أن فيه ثلاثة مراكز تشرف على مختلف مظاهر اللغة، وهي مركز الكلام، ومركز حفظ الأصوات، ومركز الكلمات المرئية²⁴.

4. أن الدراسات الطبية العصبية قد توصلت من قبل إلى أن الدماغ مكون من ثلاث مناطق²⁵:

²⁰ أفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل ص 43

²¹ انظر:

<http://www.uobabylon.edu.iq/uobColeges/lecture.aspx?fid=11&depid=4&lcid=12625>

²² نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ص 34

²³ اللغة ومشكلات المعرفة ص 92

²⁴ نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ص 45

- منطقة فيرنيك في القسم الخلفي الأيسر من التلفيف الصدغي العلوي، وهي المسؤولة عن تلقي الأصوات وفهم الكلمات والمقاطع.

- ومنطقة بروكا في مقدمة الفص الأيسر من الدماغ، وهي مسؤولة عن تنفيذ عملية الكلام حركياً؛ أي عن تحديد الشكل الحركي للكلام، فهي المسؤولة عن تشكيل الكلمات والجمل وبنائها وعن استخدام صيغ الجمع ووصف الأفعال واختيار الكلمات الوظيفية والسياق اللغوي...، وتشارك مع المناطق المسؤولة عن التحكم بحركة الجسم، وكذلك عن التحكم بعضلات الوجه والفك واللسان والحنجرة والانفعال، وتؤدي المشكلات في هذه المنطقة إلى اضطراب في اللغة التعبيرية، فيكون الشخص قادراً على فهم المسموع والمقروء، ولكنه غير قادر على إنتاج الكلام (التحدث).

- والمنطقة الحركية المسؤولة عن استقبال الكلام من منقطة بروكا؛ ليتم التنسيق والتحكم بشكل أعضاء النطق والجهاز الصوتي لإنتاج الكلام.

ولا شك أن هذه المناطق الثلاث وعملها المنظم لا يمكن أن يكونا من التوافق والاصطلاح أو التقليد أو ما إلى ذلك من افتراضات، فهي من الخالق عز وجل، ولا يمكن للبشر مهما ارتقت معارفهم خلق مثل هذه الأمور الغاية في الدقة.

5. ثمة تجارب أجراها باحثون باستخدام تقنية التخطيط المغناطيسي للدماغ (MEG) magnetoencephalography التي تسمح بقياس الحقل المغناطيسي الدماغي مهما كان صغيراً، وتقنية تخطيط كهرباء قشرة الدماغ (ECoG) electrocorticography، وهي تقنية سريرية تستخدم عادة في مراقبة النشاط الدماغي لدى المرضى لجراحة في الجهاز العصبي. وقد أظهرت النتائج تغير نشاط الدماغ لدى المشاركين وفقاً لنوع العبارة المسموعة جملة أو عبارة أو قائمة كلمات، ودلّ ذلك على قدرة المشاركين على معالجة القواعد دون الدلالات الواضحة التي تعلموها سابقاً، وقد وضح ديفيد بوبيل بعض نتائج تلك التجارب بقوله: "تظهر نتائجنا أنه لا بد من وجود قواعد في رؤوسنا نستخدمها في

²⁵ <http://www.alkhaleej.ae/supplements/page/559b123e-487d-4821-b1c4-7e10e40bcba>

معالجة اللغة". ويقول أيضاً: "تظهر الديناميكية أننا نخضع لبني ذات أساس نحوي عند معالجتنا للغة"²⁶.

اللسان وأداؤه:

إن اعتماد التفريق السابق بين اللغة واللسان والكلام سيوصل لا محالة إلى حسم هذا الخلاف، وبيان صحته وأثره، فاللسان نسقٌ تواصلِيٌّ بين مجموعةٍ بشريةٍ معينةٍ، لها خصوصياتها الثقافية والاجتماعية والحضارية، وهو ما يسمى اليوم لغةً، والأولى أن يسمى لساناً؛ وذلك لأدلة عدة:

1. أن القرآن الكريم قد استعمله بهذا المدلول، وهو مصدر العربية الأول. وذلك في مواضع عدة، منها قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [إبراهيم: 4]، وقوله: {لِلسَانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ} [النحل: 103]، وقوله: {وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل: 103]، وقوله: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [مريم: 97]، وقوله: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: 195] وقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَأْنِكُمْ} [الروم: 22]، وقوله: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [الدخان: 58]، وقوله: {وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ} [الأحقاف: 12]، وقوله {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا} [القصص: 34].

2. ثَمَّةُ إشاراتٍ في القرآن الكريم يُفهم منها أن اللسان الأول للبشرية قد كان من الله تعالى، كما ذكرنا في الحديث عن اللغة أنفأً. ومنها قوله تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 38]، وقوله تعالى: {فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} [البقرة: 37]، ثم تفرَّع هذا اللسان بعد تكاثر أعداد البشر واختلاف أماكن سكناهم وتباعدها وتزايد معطيات الحياة والتقدم الحضاري عند كل قوم منهم، وهذا ما أحوجهم إلى وضع أسماء وأفعال للتعبير عما يستجد عندهم، ونتيجة التباعد بين تلك الأقسام اختلفت الألسن وتعددت حتى صارت مستقلة متغايرة تماماً، ولنا في تفرع اللسان السامي إلى ألسن عدة، وتفرَّع اللسان اللاتيني إلى الألسن الأوربية الحديثة خير دليل على ذلك، ولعل

ذلك هو المراد باختلاف الألسن في الآية الكريمة {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوَانِكُمْ} [الروم: 22].

بل إن ثمة إشارة في القرآن يمكن أن يفهم منها أن اللسان الأول هو اللسان العربي
{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ
لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا
وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: 81]، فإذا كان الله تعالى قد أخذ على الأنبياء أن
يؤمنوا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ويتبعوه إذا بعث، وقد بعث بالقرآن، والقرآن
جاء بلسان عربيٍّ مبينٍ، ولعل من تمام الإيمان والاتباع له إتقان اللسان الذي أنزل به؛
لأنه السبيل إلى تلاوته وفهمه وتدبره. ثم إن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم كانت بيانيةً
بالدرجة الأولى، تحدى الإنسان والجن أن يأتوا بمثله أو بمثل سورة أو آية منه، ومن غير
المنطقي أن يتحداهم بشيء لم يفهموا إياه. وثمة دراسة أكاديمية جادة للدكتور تحية عبد
العزیز إسماعيل تؤكد هذه الإشارة، وتذهب إلى أن اللسان العربي هو الأصل لكل الألسن،
وذلك من خلال إجراء دراسات مقارنة بين ألفاظ اللسان العربي واللاتيني، وبينه وبين
الهيروغليفي، وبينه وبين اللسان الألماني، وبينه وبين اللسان الإنكليزي، وبينه وبين اللسان
الفرنسي، وبينه وبين اللسان الإيطالي، وبينه وبين اللسان السنسكريتي، وبينه وبين اللسان
اليوناني ...²⁷

1. أن العرب في عصور الاحتجاج قد استعملوا اللسان أيضا بهذا المدلول بكثرة، وهذا
المدلول استعمله القرآن الكريم، كما مرّ آنفاً.
2. أن هذا اللسان يختلف من مجموعة بشرية إلى أخرى، وهذا يدل على أنه تواضع
واصطلاح فيما بينهم، فالشجرة مثلا واحدة عند البشر جميعهم، لكن كل قوم منهم
يسمونها باسم مختلف يدل عليها، وهذا الاسم ليس الشجرة بعينها، وإنما يدل عليها
دلالةً تلازميةً؛ بمعنى أن كثرة استعمال القوم هذا الاسم للدلالة عليها جعل الاسم
ملازماً لها، وبمجرد ذكره يتبادر المدلول إلى الذهن؛ ولهذا يُسمى باللسان العربي،
واللسان التركي، واللسان الإنكليزي...

²⁷ عالم الأسرار ص3 وما بعدها. ويمكن الرجوع إلى دراسة د. تحية عبد العزيز بعنوان: Classic Arabic as

أما الأداء اللساني -وهو الأداء العملي للسانِ قومٍ من الأقوامِ- فيكون في ثلاث طرق:

1. الكلام النفسي: نسبة إلى النفس، وهو ما يدور بين المرء ونفسه من أحاديث وأفكار، وهو ما يسمى الموجود بالقوة. يقول الأخطل²⁸:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفَوَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللَّسَانُ عَلَى الْفَوَادِ دَلِيلًا

2. الكلام اللفظي: وهو أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم²⁹، وهو ما يسمى الموجود بالفعل. "فَاللِّسَانُ وَسِيلَةُ الْفِكْرِ لَيْسَ إِلَّا، وليس له وجودٌ في حدِّ ذاته أو وحده بعيدٌ عن الفكر"، كما يقول سوسير³⁰.

3. الكتابة: وهي رسوم وإشارات تعبر عن الأداء، وهو ما يسمى الموجود بالفعل أيضا. وقد ربط المعتزلة والأشاعرة الكلام اللفظي بالكلام النفسي -ويحسب لهم دقة تسميتهم له بالكلام- وذهبوا إلى أن المعاني تترتب في الفكر ثم تترجم في الذكر³¹. لكن هذه الترجمة لن تكون تامة؛ بمعنى أن الكلام اللفظي لن يكون هو الكلام النفسي عينه، فإن كان إياه كان الغاية في الكمال والمطابقة، وهذا غير ممكن لبشر، ذلك أن الكلام النفسي سابق للكلام اللفظي وأصل له؛ ولذلك ثمة مسافة بينهما تؤثر سلبا في التأثير في المتلقي، ذلك أن الكلام النفسي تنتجه اللغة التي منحها الله للبشر، وهذه المنحة يتساوى الناس جميعا فيها، والجميل في العقل البشري إما أن تبدأ باسم أو فعل، وكلتا البدائيتين في اللغات العالمية كلها أو معظمها، لكن الناس يختلفون في القدرة على ترجمتها في الأداء الكلامي أو الكتابي، ويتفاوتون بمقدار التعبير عنها وتصويرها واقتراب هذا التعبير والتصوير منها.

أما القرآن الكريم فكلام الله، وقد وصفه بذلك {وَقَدْ كَانَ قَرِيْبًا مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ} [البقرة: 75]، فهو كلامٌ أنزل بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} [الشعراء: 195]، وكلام الله موجودٌ بالقوة وبالفعل في آنٍ واحدٍ، أو أنجزا في وقتٍ واحدٍ؛ ولهذا كان الكلامُ اللفظيُّ هو الكلامُ النفسيُّ نفسه، وليس ثمة مسافة بينهما؛ ولهذا كان الغاية في الكمال والبلاغة والإعجاز والتأثير؛ ولهذا لا يمكن أن يتقن القرآنُ

²⁸ شعر الأخطل ص 560

²⁹ الخصائص 34/1

³⁰ علم اللغة العام ص 26

³¹ دلائل الإعجاز ص 51 و53-54

بالقراءة وحدها، بل لا بد من التلقي مشافهة؛ لأنه هكذا أنزل؛ ولهذا أيضا تجد أثره في النفوس عظيما وإن كانت تسمعه للمرة الأولى، وبهذا أيضا يمكن أن يردُّ على من ذهب إلى افتراض الكلام النفسي لله تعالى، ويخلص من إشكاله بهذا. جديرٌ بالذكر أنَّ أمية بن أبي الصلت (626م) سمَّاه لسانَ الله بقوله³²:

فاسمع لسانَ الله كيف شكولُهُ
عجيبٌ ويُنبيك الذي تستشهدُ
وما وصفَ الله به كلامه أولى ممَّا وصفه به الشعراءُ، فالمتكلمُ أدري بكلامه وأولى بتسميته،
فكيف إذا كان الكلامُ لله، وتبني على وصفه وتسميته أمورٌ عقديَّة كثيرةٌ.
خاتمة:

لعلَّ أهم ما توصل إليه البحث هو نقض النظريات والافتراضات الأولى لنشأة اللغة، وإثبات صحة التصور الإسلامي لها، وحل إشكالية كون اللغة وقفاً وإلهاماً أو تواضعاً واصطلاحاً، وذلك من خلال التفريق بين اللغة واللسان، وبهذا التفريق أيضا وبيان طرق الأداء اللساني يمكن حل إشكالية الكلام النفسي التي أثارها عبد الله بن كلاب، وأخذ بها المعتزلة والأشاعرة لاحقا، كما توصل البحث إلى أن اللغة هي القدرة على التعبير، وأنها من عند الله بلا شك، وأن اللسان الأول للبشر من عند الله أيضا، ثم تفرَّع إلى ألسن عدة، وأن مصطلح "اللغة" عربي أصيل، وأنه استعمل مرادفا لمصطلح "اللسان" قديماً وحديثاً، وغلب عليه في العصر الحديث، كما بيَّن البحثُ الإشاراتِ القرآنيَّة للسانِ الأوَّل للبشريَّة.

³² ديوان أمية بن أبي الصلت ص 32

المصادر والمراجع:

1. إعجاز الرسم القرآني بين المثبتين والنافين: د. نمشة بنت عبد الله الطواله، مجلة الدراسات القرآنية، العدد (10)، الرياض، 1433 هـ.
2. الإيضاح في علل النحو: أبو القاسم الزجاجي (377 هـ)، تحقيق د. مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة، 1986 م.
3. إيضاح الوقف والابتداء: أبو بكر الأنباري (327 هـ)، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الأولى، 1971 م.
4. آفاق جديدة في اللغة والعقل: نعوم تشومسكي، ترجمة عدنان حسن، دار الحوار، اللاذقية، سورية، الطبعة الأولى، 2009 م.
5. الخصائص: عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الرابعة، دون تاريخ.
6. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، 1992 م.
7. ديوان أمية بن أبي الصلت
8. ديوان أبي دهب الجمعي، رواية أبي عمرو الشيباني، تحقيق عبد العظيم المحسن، مطبعة دار القضاء، النجف، الطبعة الأولى، 1972 م.
9. ديوان ذي الرمة: ذو الرمة، اعتنى به وشرح غريبه عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 2006 م.
10. ديوان عمارة بن عقيل: عمارة بن عقيل (239 هـ)، تحقيق شاكر العاشور، ساعدت وزارة الإعلام على نشره، بغداد، الطبعة الأولى، 1973 م.
11. ديوان المرقشين الأكبر والأصغر، تحقيق كارين صادر، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1998 م.
12. شرح ديوان أمية بن أبي الصلت، تحقيق سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.

13. شعر الأخطل: صنعة السكري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1971م.

14. علم اللغة العام: فرديناند دي سوسير، ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز، مراجعة د. مالك يوسف المطليبي، دار آفاق عربية، بغداد، الطبعة الأولى، 1985م.

15. الكتاب: سيويه، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، دون تاريخ.

16. اللسان والإنسان؛ مدخل إلى معرفة اللغة: د. حسن ظاظا، دار القلم بدمشق، الدار الشامية ببيروت، الطبعة الثانية، 1990م.

17. اللغة ومشكلات المعرفة: نعوم تشومسكي، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1990م.

18. مباحث في اللسانيات: د. أحمد حساني، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمشق، الطبعة الثانية، 2013م.

19. مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995م.

20. نشأة اللغة عند الإنسان والطفل: د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003م.

21. Classic Arabic as Ahe Ancestor do-European Languages and Origin of Speech: T.A. Ismail, Alahram Press, corneesh Alnil, Egypt.

22. مواقع إلكترونية:

<https://www.syr-res.com/article/9755.html>

<http://www.uobabylon.edu.iq/uobColeges/lecture.aspx?fid=11&depid=4&licid=12625>

<http://www.alkhaleej.ae/supplements/page/559b123e-487d-4821-b1c4-7e10e40bcba>

البحث السادس

علم الدلالة القديم

مفهومه، نشأته، مصادره، مجالاته وتطبيقاته

د. مهنا بلال الرشيد

أستاذ مساعد في جامعة ماردين آرتوقلو، كلية الآداب، قسم التاريخ

علم الدلالة القديم

مفهومه، نشأته، مصادره، مجالاته وتطبيقاته

د. مهنا بلال الرشيدي*

1- ملخص:

يقدم هذا البحث تعريفاً موجزاً بمصطلح علم الدلالة؛ ليناقدش بعد ذلك، وبإيجاز، مجموعة من أهم مصادره علم الدلالة القديم، بقسميها: ١- مرويات شفوية و٢- لقي ومدونات أثرية، ويفيد آراء القائلين: بحدائثة علم الدلالة، ويثبت بالأدلة العلمية القاطعة عراقة هذا العلم وأصالته وإنسانيته وعلمانيته وإسهام شعوب الحضارات القديمة كلها في تطوره وازدهاره؛ ليبيّن في نهاية المطاف أنّ هذا العلم قديم قدم الإنسان ذاته، مادام علماً لا ينفصل عن دراسة المعنى والاصطلاح على الرموز والعلامات اللسانية؛ دوالها ومدلولاتها؛ لتتناسب مع معانها، بالإضافة إلى اشتغال علم الدلالة القديم على تدوين النصوص بلغة جمالية أو دبلوماسية وترجمتها بطريقة تُسهّل تلقّيها أو تأويلها في سياقاتها الجديدة؛ ويستعرض هذا البحث مجموعة من أهم المصادر والوثائق الدلالية القديمة للتدليل على صحّة مذهبه وطرحه الفكري الجديد.

الكلمات المفتاحية: علم الدلالة، الدالّ، المدلول، العلامة اللسانية.

* (دكتوراه في علم الدلالة والنقد السيميائي) (أستاذ مساعد في جامعة ماردين أرتوقلو

تركيا). Mahanna2012@yahoo.com

Summary:

This research presents a brief definition of the term semantics, to discuss then - briefly - a group of the most important sources of ancient semantics, with its two sections: 1- oral narrations and 2-finds and archaeological codes, and refutes the opinions of those who say: the modernity of semantics, and the proven scientific evidence proves the legacy of this science Its originality, humanity, secularism, and the contribution of the people of all ancient civilizations to its development and prosperity, to show in the end that this science is as old as the human person himself, as long as it is inseparable from studying the meaning and term on symbols and signs of their functions and their meanings to match their meanings, in addition to working The ancient semantics of codifying texts in aesthetic or diplomatic language and translating them in a way that facilitates their receipt or interpretation in their contexts; this paper reviews a wide range of ancient semantic sources and documents to demonstrate the validity of its doctrine and its new intellectual discourse.

Key words: semantics, function, signified, linguistic sign.

2- مقدّمة:

علم الدلالة واحد من أكثر العلوم الإنسانيّة حيويّة وتجددًا لارتباطه_ في جزء كبير منه_ بلغة الإنسان المتطوّرة والمتجدّدة يوميًا بعد يوم، ومعلوم أنّ التّطوّر والتّجدّد يُسفران عن موت ألفاظ ورموز، وبلى عبارات وجمل وأساليب، ويقودان إلى ولادة أُخر، ويُنتجان تراكمات لغويّة ومعرفيّة؛ تؤدّي مع مرور الأيام إلى تضخّم علم ما وانقسامه إلى علوم متعدّدة؛ كانت في أصلها علمًا واحدًا. إنّ انقسام العلوم واستقلال بعضها الثّاني عن بعضها الأوّل بعد تشعب الأصل وتفرّعه واتّساعه سُنّة كونيّة لا يجيد عنها مجمل العلوم الإنسانيّة، ولا سيّما تلك العلوم المُعرّفة في القِدَم؛ كعلم الدلالة القديم قِدَم الإنسان ذاته، ولعلّ هذا العلم لم يكن علمًا واحدًا إلّا في مرحلة نشأته المبكّرة الأولى، وهي مرحلة قديمة جدًّا ترتبط ببداية وجود الإنسان على سطح المعمورة كما أسلفنا.

ولن يتأثر الرّأي القائل بنشأة علم الدلالة القديمة إن رجحت التّظريّة الدّينيّة أو الأسطوريّة (الميثولوجيّة) حول بداية وجود الإنسان ونشأة لغته، والتي تقول: إنّها توقيفيّة ألهم الله آدم-عليه السّلام-مفرداتها، وعلمه أسماءها، أو إن مال بعضنا إلى نظريّة الطّفرة

الجينية أو الوراثة¹، أو إن اقتنع آخرون بالنظرية التطورية الحيوية (البيولوجية)، التي تقول: إن لغة الإنسان تطوّرت عبر مراحل زمنية من محاكاة أصوات الطبيعة البسيطة إلى النظام اللغوي الاعتيادي. إلا أنه يجب التركيز وقبل كل شيء على علمانية هذا البحث، التي نعني بها نوعاً من الحيادية بعيداً عن تجيير علم الدلالة للقدماء أو المُحدثين من هذا العرق أو تلك الملة أو نسبته لحضارة دون أخرى؛ بقدر ما نسعى إلى الإضاءة حول هذا المصدر القديم أو ذلك من مصادر علم الدلالة القديم؛ تلك التي لم يكن لها أن تُكتب أو تُدبج دون معرفة مبدعها وكتّابها بدلالة الألفاظ مفردة ومركبة، ولعلمهم قلبوا كلّ جملة من جمل مؤلفاتهم القديمة على وجوهها الدلالية الممكنة أو المحتملة قبل توثيقها في مؤلفاتهم الأدبية والسياسية والقانونية والوعظية أو قبل تثبيتها في كتبهم ونقوشهم ومعاهداتهم السياسية ومراسلاتهم الدبلوماسية.

والحقّ أنّه يضيق المجال في هذا البحث عن استعراض مصادر علم الدلالة القديم أو جذوره ووثائقه القديمة كلّها؛ فقد زوّدتنا التنقيبات الأثرية في القرنين: التاسع عشر والعشرين بألاف الوثائق الدلالية المكتشفة في مصر وسوريا والعراق والهند وغيرها؛ لذا سنميّز القول بالنشأة الحديثة لعلم الدلالة من إحياء علم الدلالة القديم وازدهاره في العصر الحديث، ولا سيّما بعد زيادة الاهتمام به في القرنين: الثامن عشر والتاسع عشر بتأثير مباشر من ازدهار فقه اللغة المقارن وازدياد الوثائق الأثرية المكتشفة في بلاد الحضارات القديمة؛ تلك التي لا يمكن دراستها أو ترجمتها وتأويلها بعيداً عن فقه اللغة المقارن وإحياء علم الدلالة القديم بدراسات دلالية حديثة أو معاصرة؛ ولهذا كلّنا اكتفينا بالتأكيد على وجود (الدالّ والمدلول والمرجع) والاهتمام بها وبدراسة معانيها منذ آلاف السنين بوصفها أركان علم الدلالة العامّ بفرعيه: القديم والحديث؛ ولعلّ هذه المنهجية ستدفعنا إلى سرد كثير من الأسماء والأحداث والمؤلفات والوقائع التاريخية القديمة، ولا أجد في ذلك ضيراً؛ لأنّ طبيعة هذا البحث تقتضي سرد تلك الأسماء وعرض تلك الأحداث والمؤلفات، ناهيك عن تعاون العلوم الإنسانية وتجاوزها في كثير من البحوث والدراسات.

¹ - يُنظر: هراي، يوفال نوح، العاقل (تاريخ مختصر للنوع البشري)، ترجمة: حسين العبري، صالح بن علي الفلاحي، دارمنجول للنشر، ط1، نيودلهي، الهند 2018م، ص 34-36.

تجاوز كثير من العلماء والمراكز البحثية فكرة البحث في نشأة اللغة أو أصلها، وأخرجوها من دائرة اهتمامهم؛ لأنها قادت إلى نوع من السفسطة حيناً، وتحولت إلى دعوات ونزعات عنصريّة حيناً آخر، ولم تحقّق الغاية العلميّة المنشودة منها في أغلب الأحيان. والحقّ إنّ هذا التّجاوز وإن كان لا يلبي الشّغف العلميّ فإنّه قد أفاد من ناحية تأجيل النقاش حول هذه المسألة الحسّاسة ريثما تتوفّر أدلّة علميّة رصينة، يمكن الاستئناس بها حول تلك النّشأة بعيداً عن السفسطة والعنصريّة، ولكنّ هذا التّأجيل قد يكون سبباً من الأسباب التي جعلت كثيراً من الباحثين اللّغويّين يكرّرون آراء سابقهم في قضايا ومسائل ترتبط بنشأة اللغة من حيث الأصل؛ لكنّها تحتلّ النقاش وطرح الأفكار المتعدّدة؛ كالبحث في أصل علم الدّلالة ونشأته القديمة؛ حيث ما زال التّكرار سمةً غالبية على كثير من البحوث الدّلاليّة الحديثة والمعاصرة، وإن اختلف بعضها الأوّل عن بعضها الآخر في بعض الجزئيّات التّطبيقيّة أو في كثير منها من حيث اختيار النّصوص المدروسة، أو اجتراح بعض التّطبيقات النّقديّة حولها.

3- مصطلح علم الدّلالة بين فلسفة اللغة وفلسفة الكتابة:

أكدت التّقنيّات الأثريّة أنّ اختراع الكتابة كان بين 3400-3000 قبل الميلاد، وعُثر في جنوب العراق أو بلاد سومر على أقدم الرّقم الطّينيّة التي تحمل علامات كتابيّة؛ كتلك العلامات التي "أكتشفت في معبد أي آنا Eanna في الطبقة الرابعة من موقع الوركاء. لقد كانت تلك العلامات هي بداية الطّريق نحو التّدوين، الذي غدا يميّز العصور [الجديدة من سابقاتها]. وقد مرّت العلامات الكتابيّة بمراحل ثلاث متداخلة، اكتمل في أثنائها نظام التّدوين... في حدود 3000 قبل الميلاد"². ويسمّي بعض الدّارسين المرحلة التّاريخيّة بين 3100-3750 قبل الميلاد عصر ما قبل الكتابة أو قبيل اختراع الكتابة Protoliterate Period، وتشيع هذه التّسمية في الدّراسات العراقيّة، ويقسم الباحثون تلك المرحلة التّاريخيّة إلى قسمين؛ "أولهما: بين 3500-3750 ق.م، وهي [المرحلة] المبكّرة Early Protoliterate Period و[المرحلة] المتأخّرة Late Protoliterate Period بين 3100-3500، ثمّ يلي ذلك؛ أي ابتداء من 3100 ق.م تقريباً، في جنوبيّ العراق العصر المسّمّى عصر

² - الجميليّ، عامر عبد الله، الكاتب في بلاد الرّافدين القديمة، منشورات اتّحاد الكّتاب العرب، ط1، دمشق 2005م، ص 17.

الأسرات المبكر، وهو يقابل في مصر الوقت الذي [وُجِدَت] فيه البلاد كلها تحت حكم ملك واحد والنّصف الأوّل من الأسرة الأولى. وليس معنى ذلك أنّ حضارتي مصر والعراق بدأتا فقط في الألف الرابع قبل الميلاد، فإنّ الحضارة في [كلا] البلدين نشأت قبل ذلك بأكثر من ألف سنة"³.

ومن الرّاجح جدًّا أن يكون نظام الكتابة قد بدأ نظامًا جزئيًّا، ولربّما ارتبط بالعدّ والإحصاء وتدوين المكاييل والمقادير والفواتير والحساب والمحاسبة لعدم قدرة الإنسان المشرف على هذه العمليّات على تذكّر الأشياء كلها؛ فقد يكون الجابي أو موظّف الإحصاء استعان بإشارات ورموز تدلّه على تلك المقادير والأرقام، وتساعده على تذكّرها؛ كأن يضع حصاة جانبه، أو يرسم خطأً على لوح طينيّ يحمله عن كلّ مكيال يستلمه، أو كلّ فرد أو رأس أو شيء يحصيه؛ وبهذا يكون نظام الكتابة البدائيّ نظامًا جزئيًّا لا يحلّ كليًّا مكان نظام التوثيق أو التذكّر الحفظيّ أو الرواية الشفويّة، وإنّما يكمله؛ ولهذا يصعب تأويل أقدم الألواح الطينيّة أو الجرم بدلالاتها القطعيّة إلّا من باب التخمين؛ كلوح كوشيم السومريّ الذي يرجع إلى ما بين 3400-3000 قبل الميلاد، والذي يؤكّد أنّ نظام الكتابة البدائيّ كان نظامًا جزئيًّا، وكان اللّوح أو الجداريّة لا يحتوي على كثير من المعلومات؛ لأنّ الحفظ والتذكّر يكملانه. ولما احتاجت الممالك إلى مزيد من التوثيق؛ ولأنّ الحاجة أمّ الاختراع، طوّر الكُتّاب نظام كتابتهم؛ حتّى استوعب نظام الكتابة المنطوق كلّها؛ ومن هنا يمكننا أن نفهّر بساطة الألواح والجداريّات القديمة، وعدم احتواء كثير منها إلّا على كمّيّات قليلة من المعلومات المكتوبة كصكوك الاستلام والتّسليم والبيع والشّراء والعمليّات الحسابيّة؛ ولذلك أيضًا حُفّظ كثير من الأناشيد والأغاني والنصوص الفنيّة الطويلة شفويًّا في بداية أمرها؛ ونُمّقت بالجرّس والإيقاع ليسهل حفظها مقارنة بصعوبة تدوينها، ولم يُكتب كثير من تلك النصوص إلّا بعد تطوير أنظمة الكتابة ووصولها إلى نظام رمزيّ ذي كثافة دلاليّة عالية واستقلال تامّ عن الحفظ والرواية الشفويّة⁴.

³ - فخري، أحمد، دراسات في تاريخ الشرق القديم: (مصر والعراق-سوريا-اليمن-إيران-مختارات من الوثائق التاريخيّة)، مكتبة الأنجلوالمصريّة، ط2، القاهرة 2001م، ص 26.

⁴ - يُنظر: العاقل (تاريخ مختصر للنوع البشريّ)، ص 151-155.

تؤكد التّجمات الحديثة لرُقْم الحضارات القديمة وألواحها الطّينية وجداريّاتها أنّ قدماء الكُتّاب والمبدعين والشّعراء والمترجمين عرفوا أقسام العلامة اللّسانيّة وثالوث الدّراسات السّيميائيّة المعاصرة وأركان علم الدّلالة الأساسيّة؛ وهي: الدّالّ والمدلول والمرجع؛ وكيف لا يعرف مؤلّف كتابٍ قديم مثل كتاب كليلة ودمنة على سبيل المثال معاني العلامات اللّسانيّة ودوالّ كتابه ومدلولاتها ومراجعها قبل أن ينسج بها كتابه الشّهير؟ بل كيف لنا أن نصل إلى تأويل المراسلات الدّبلوماسيّة في ذلك اللّوح الطّينيّ، أو نعرف تفسير الاجتهالات الدّينيّة في تلك الجداريّة دون أن يتقاطع تأويلنا الحديث مع مقاصد مؤلّفي تلك الألواح والنّقوش والجداريّات حين جعلوا رموزها أو علاماتها اللّسانيّة دوالّ على مدلولات أرادوها؛ واستعانوا بمراجعها السّياقيّة والثّقافيّة لتوصيل ما أرادوا توصيله من دلالات؟

من المؤكّد أنّ تدوين تلك المؤلّفات القديمة ما كان ليحدث قبل دراسة معانيها وتقليب وجوه دلالاتها لوضع العلامات اللّسانيّة المناسبة لنقل المعنى وضبط الوعظ السّياسيّ وصياغة المراسلات الدّبلوماسيّة وتدوين قوانين الشّريعة أو ترجمة النّصوص الأجنبيّة والاهتمام بروح المعنى الأصليّ فيها، وإن كانت هذه الأنواع من دراسة المعاني وتقليب وجوه الكلام لا تعني معرفة القدماء بعلم الدّلالة إن لم يستخدموا هذا المصطلح تحديداً لتوصيف جهودهم الدّلاليّة فإنّه من الحرّيّ لهذا الحُكم أن ينسحب على الدّراسات الدّلاليّة المعاصرة؛ ولو حدث ذلك لن يزيد علم الدّلالة الحديث على الدّراسات الدّلالة القديمة إلّا بالجمع بين لفظي (علم) و(دلالة) في تركيبٍ إضافيّ واحد؛ ليغدو المصطلح الجديد: (علم الدّلالة) مع أنّ هذا المصطلح ذاته يعني في اللّغة الإنكليزيّة، الّتي أسهمت بإحياء هذا العلم: (semantics)، هذا المصطلح (سيمانتيك) ليس مصطلحاً جديداً في اللّغة الإنكليزيّة، وإنّما أخذته عن الكلمة اليونانيّة القديمة المؤنثة Semantik ومذكرها Semantikos، الّذي "يعني: يدلّ"، ومصدره Sema أي: إشارة"⁵، وقد استخدم قدماء اليونانيّين كلمة (semion) للدّلالة على علامات المرض، في حين توسّع أفلاطون وأرسطو في دلالة هذه الكلمة، واستخدموها للدّلالة على العلامة اللّسانيّة أو الإشارة

⁵ - الدّاية، فايز، علم الدّلالة العربيّ (النّظرية والتّطبيق، دراسة تاريخيّة، تأصيليّة، نقدية)، منشورات دار الفكر، ط2، دمشق 1996م، ص 6.

اللُّغويَّة⁶؛ ومن هنا فقد استخدم علماء الحضارات القديمة في مؤلفاتهم الدَّلاليَّة مصطلحات علم الدَّلالة الحديث من دالٍّ ومدلول وعلامة وإشارة ودلالة، ولا تتميز الدَّراسات الدَّلاليَّة الحديثة والمعاصرة من الدَّراسات الدَّلاليَّة القديمة إلا بوضعها لفظة (علم) قبل لفظة (الدَّلالة)، وجمعهما لغويًّا في تركيب أو مصطلح واحد من خلال جعل العِلْم مضافًا والدَّلالة مضافًا إليه.

ما تزال أحدث نظريَّات علم الدَّلالة المعاصر تتراوح بين الدَّعوة إلى التَّوسُّع في شرح أركان علم الدَّلالة القديم الثلاثة: (الدَّالِّ والمدلول والمرجع)، أو تبسيطها واختزالها إلى نموذج ثنائيٍّ للعلامة اللِّسانيَّة؛ يقوم على الدَّالِّ والمدلول كما فعل فرديناند دو سوسير (F. de Saussure) (1857-1913م)؛ وذلك لأنَّ العلامات اللِّسانيَّة لبيَّنت النَّصوص كلَّها، وتأويل النَّصوص يتوقَّف على تأويل العلامات اللِّسانيَّة في ضوء سياقاتها ومراجعتها. في حين يكثر من درسوا العلامات اللِّسانيَّة وأسس علم الدَّلالة ومبادئ السِّيميَّا من منظور التَّقسيم الثَّلَاثيِّ؛ ولعلَّ أفلاطون وأرسطو والقديس أوغسطين وديكارْت وأوجدن وريتشاردز من أشهر من استخدموا التَّقسيم الثَّلَاثيِّ. ومع ذلك لا نعدم من أراد توسيع هذا التَّقسيم الثَّلَاثيِّ إلى تقسيم رباعيٍّ أو خماسيٍّ أو سداسيٍّ كما فعل الفيلسوف الأميركيُّ تشارل بيرس (1839-1914 Ch.S.Peirce) حين طوَّر النَّمُوذَج الثَّلَاثيِّ الشَّهير، وأضاف لأركان العلامات اللِّسانيَّة وعلم الدَّلالة الثَّلَاثة عنصرًا رابعًا وهو الإشارة ذاتها؛ حيث "تمتلك الإشارة بحدِّ ذاتها ثلاثة مراجع: أوَّلًا، إنَّها إشارة (بالنسبة) لأيِّ فكرة من الممكن أن تفسَّرها. وثانيًا، إنَّها إشارة لموضوع ما يكون معادلًا لها ضمن هذه الفكرة. وثالثًا، إنَّها إشارة في هيئة ما أو صفة ما، تُكوِّنان صِلَة الوصل بين الإشارة وموضوعها. [وقد أخذ تشارل موريس (1903-1979 Ch.W.Morris) تقسيم بيرس (Ch.S.Peirce) الموسَّع أو المُعدَّل عن التَّقسيمات الثَّلَاثيَّة]، وأضاف إليه عنصرين اثنين هما المتكلِّم [...] والسِّياق؛ [حيث تشكِّل الدَّلالة السِّيميائيَّة من] علاقة بين خمسة عناصر: (v,w,x,y,z) نجد داخل هذه العلاقة أنَّ (v) تولَّد في (w) الاستعداد لردَّة فعل بطريقة معيَّنة هي (x)، تجاه موضوع معيَّن هو (y) (وهو لا يكون حافزًا في هذه المرحلة)، وذلك في شروط معيَّنة

⁶ - يُنظر: مجموعة من المؤلِّفين: (سيلفان أورو، جاك ديشان، جمال كولوغلي)، فلسفة اللُّغة، ترجمة وتقديم: بسام بركة، مراجعة: ميشال زكريا، المنظَّمة العربيَّة للترجمة، ط1، بيروت 2012م، ص 143.

هي (z). في الأمثلة على هذه الورقة، تمثل (v) الإشارات، وتمثل (w) المؤولون، و (x) المؤولات، و (y) الدلالات، و (z) السياقات التي تعمل فيها الإشارات⁷.

لعلّ القول بحدائثة علم الدلالة من أكثر الأخطاء المكررة شيوعاً؛ حيث يرى كثير من الباحثين أنّ علم الدلالة علم حديث نسبياً، ويربط معظمهم نشأة هذا العلم بشيوعه واشتهاره لدى الفرنسيين والإنكليز، ولا سيّما بعد البحوث الدلالية التي قدّمها العالم الفرنسي ميشيل بريال Michel Breal بين عامي 1883م-1897م⁸، ويرى بعضهم الآخر أنّ مصطلح علم الدلالة لم يتبلور لدى الإنكليز إلاّ مع جهود اللغوي الإنكليزي Read 1943م⁹، مع أنّ كلاً من تعريف علم الدلالة وأساسه وموضوعاته من حيث اشتغالها على الرموز وآليات وضع الدوالّ على المدلولات وقوانين الوضع ذاتها وفلسفة تأويل النصوص تُثبت وجوده منذ عصور تاريخية سحيقة؛ ترتبط بكلمات الإنسان المنطوقة الأولى، تلك التي ذهبت أدراج الرياح، مثلما ترتبط بنقوشه وجداريّاته القديمة، التي تجزم بأنّه وضعها؛ ليقول شيئاً ما، "فمن المؤكّد تقريباً أنّ فنّاني كهوف شوفيه ولازقوه وألتاميرا أرادوا لرسوماتهم أن تبقى لأجيال"¹⁰ قادمة، تحكي لهم قصص الأجداد، أو تروي لهم تطوّر فنونهم، وتُخرّجهم عن معارفهم العلميّة وتجاربهم في الحياة، وتعريفات علم الدلالة تؤكّد وجود هذا العلم منذ عصور سحيقة أيضاً؛ حيث يُعرّف بأنّه: "دراسة المعنى" أو "العلم الذي يدرس المعنى" أو "ذلك الفرع الذي يدرس الشّروط الواجب توافرها في الرّمز حتّى يكون قادراً على حمل المعنى"¹¹.

يمكننا أن نعتد على تعريف علم الدلالة وأساسه وموضوعاته لنسأل عن الرّبط بين الدوالّ والمدلولات في أقدم العلامات اللّسانية العمليّة (ملفوظة ومكتوبة) أكان ربطاً

⁷ - فلسفة اللّغة، ص 196-197.

⁸ - يُنظر: الداية، فايز، علم الدلالة العربيّ (النّظرية والتّطبيق، دراسة تاريخية، تأصيلية، نقدية)، منشورات دار الفكر، ط2، دمشق 1996م، ص 6. ويُنظر: عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، منشورات عالم الكتب، ط7، القاهرة 2009م، ص 22.

⁹ - يُنظر: بالمر، فرانك، مدخل إلى علم الدلالة، ترجمة: خالد محمود جمعة، مكتبة دار العروبة للنشر والتّوزيع، ط1، الكويت 1997م، ص 31.

¹⁰ - العاقل (تاريخ مختصر للنّوع البشريّ)، ص 125.

¹¹ - عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، ص 11.

عفويًا عشوائيًا أم كان ربطًا مدروسًا مقصودًا؟ وإن كان واضعو العلامات اللسانية الأولى أو رابطو دوالها بمدلولاتها قد قلّدوا أصوات الطبيعة أو حاكوها في بداية أمرهم، فهل استمر الأمر كذلك أو انتقل إلى مرحلة الاصطلاح الاعتباطي لربط الرموز وأصوات الدوال بمعاني الأشياء خلال وضع العلامات اللسانية والاصطلاح على معاني الرموز والأشياء؟ وإن كانت بعض الرموز والعلامات البشرية قد وُضعت لأغراض تواصلية بسيطة جدًا إلى حدّ ينفي عنها صفة العلم فلا شكّ أنّ النصوص الفنّية العالمية القديمة تكشف عن وجود علم الدلالة الذي نظر في علامات تلك النصوص، ونظر لها أيضًا، ونقدّها بمعنى النّقد العلميّ من خلال تهذيبها وتقليب وجوه معانيها؛ ليسهل تلقّيها وتأويل دلالاتها ضمن سياقاتها التي وردت فيها، ولا سيّما أنّ معظم العلوم إن لم تكن كلّها تبدأ بسيطة، ثمّ تتّسع وتتشعب إلى فروع متعدّدة.

يؤمن النّقد الدلاليّ بأنّه لا وجود لفنّ عشوائيّ أوّلًا، ولا وجود للنّصّ دون وجود المتلقّي ثانيًا، وأنّ مرسل النّصّ أو كاتبه هو ذاته متلقّيه الأوّل، وفيلسوفه الأدرى بمعانيه، والحقّ أنّ مُبدعي النّصوص الأولى لم يُنشدها أو يكتبوها سُدىّ دون أهداف دلالية واضحة لديهم، أو دون تصوّر سابق عن المتلقّي أو المتلقّين، ولعلّهم تخيلوا ردود أفعال المتلقّين، أو تصوّروها ثالثًا؛ ولهذا كلّه يمكننا القول: إنّ معظم ما وصلنا من مدوّنات ونقوش وجداريات قديمة نصوص دلالية بامتياز، إن لم تكن كلّها؛ ولهذا أيضًا لا يمكننا الحديث عن معاني النّصوص القديمة (ملفوظة ومكتوبة) دون الإقرار بوجود علم الدلالة الذي وُضعت بهديّه أقدم الرموز والدوالّ على المدلولات، وتُبيّنت العلامات على الأشياء بجهود دلالية تدخل في قلب علم الدلالة وفلسفة اللّغة، أداها علماء الدلالة الأوائل من (مبدعين ومُنشدين ورواة وكُتّاب ونقّاد وفلاسفة تأويل)، وإن كان إطلاق الدوالّ الأولى قد حاكى أصوات الطبيعة أو كان على قدر من الاعتباطية قبل اختراع الكتابة، فلا شكّ أنّ ما وصلنا من نصوص مكتوبة باللّغات القديمة؛ كالأكدية والهيروغليفية والسّنسكريتيّة والأراميّة والعربيّة لا يكشف عن وجود علم الدلالة فحسب، وإنّما يؤكّد ازدهاره بين طائفة المبدعين والنقّاد والكتّاب على أقلّ تقدير، ولولا علم الدلالة القديم ما كشفت الجداريات والنّصوص والرقم والألواح القديمة عن معاني مهذّبة، وفنون جميلة، وصلت إلى حدّ الأزدهار، ويرجع بعض تلك النّصوص إلى ثلاثة آلاف

سنة قبل الميلاد أو أكثر من ذلك، ويعود كثير منها إلى ما قبل ميلاد السيّد المسيح عليه السلام بمئات السنين أو بالآلاف؛ كالألواح المسماريّة والنصوص الهيروغليفية وأناشيد الفيدا وملاحم هوميروس وتراجيديات سيفوكليس وكتاب كليلة ودمنة وترجمته إلى الهلويّة الفارسيّة والترجمة السبعينيّة للتّوراة وكتابات أفلاطون وأرسطو في مجال النّقد والتّنظير وتأويل النّصوص ودراسة دلالاتها ومعانيها.

في إطار مناقشة علم الدّلالة القديم بين فلسفة اللّغة وفلسفة الكتابة يمكننا الحديث عن مصادر قديمة متعدّدة شكّلت مادّة علم الدّلالة القديم؛ كالأدب الشّفويّ أو المرويّات الشّفويّة من قصص وحكايات شعبيّة وأشعار وقصائد وأغانٍ وأناشيد وملاحم وأساطير وأمثال شعبيّة وأدعية وابتهالات دينيّة قديمة ظلّت تنتقل من جيل إلى جيل حتّى أتت لحظة تدوينها مع الإشارة إلى تحوّر تلك النّصوص المستمرّ عن النّصّ الأصليّ وضياع بعضها؛ لعدم تقييدها بالكتابة لحظة إبداعها؛ فلم يحظ كثير من نصوص المرويّات الشّفويّة بشرف الكتابة؛ نظرًا لصعوبة توافر أدوات الكتابة القديمة في كلّ زمان ومكان؛ كأدوات النّقش أو النّحت على الصّخور أو ألواح الطّين ومسامير الكتابة، ناهيك عن صعوبة نظام الكتابة القديم ذاته؛ لأنّه مثل أيّ نظام تشفيريّ احتاج في بداية نشأته إلى عدد كبير من الرّموز؛ لحفظ قليل من المعلومات أو البيانات، وراح يتطوّر تدريجيًّا؛ ليتّجه نحو التّكثيف الدّلاليّ والتّجريد المطلق، ومن الرّاجح أنّ كثيرًا من أوائل النّصوص المكتوبة قديمًا لم تكن مستقلّة تمامًا عن نصوص شفويّة تشرحها، وتوضّح معانيها، وحُفِظت تلك النّصوص الشّارحة في ذاكرة كاتب النّصّ، الذي استحضرها بالنّطق عندما احتاج أن يشرح نصوصه المدوّنة، أو يوضّح معانيها، ويفسّر دلالاتها وقت الجرد السنويّ، أو عندما تدعو الحاجة إلى الشّرح أو التّفسير؛ لكنّ تلك النّصوص الشّارحة المحفوظة في ذواكر المدوّنين فُقدت بموت أصحابها، وبقيت النّقوش المدوّنة، التي تحتاج إلى غير قليل من الجهد؛ لتأويلها أو فهم دلالاتها، التي أرادها كاتبها.

من هنا لا نستغرب أن تكون وثائق المحاسبة وصكوك استلام بعض البضائع أو تسليمها محفوظة مع أقدم نصوص المراسلات الملكيّة والمعاهدات السياسيّة والمعاجم اللّغويّة في مكتبات سومر وأكاد وبابل وأشور وماري وإيبلا وأوغاريت وطيبة وتلّ العمارنة؛ ونعثر في تلك الوثائق على حديث عن كمّيّات من القمح أو الشعير أو الرّزّ أو غيرها من

البضائع، ولا نعلم بعض الأحيان من سلّم تلك البضائع ومن استلمها، أو من باعها ومن اشتراها؛ وهذا يُرَجَّح أنّ رجال المحاسبة أو كَتَبَةَ الدّواوين القديمة سجّلوها، بعد جمّع الضّرّاب أو الأتاوات من الفلّاحين أو مستأجري الأراضى بوصفها حصصًا للملوك أو الآلهة؛ ولأنّ أولئك الكُتّاب لم يكن بوسعهم الاعتماد على ذكراهم لحفظ عمليّات الاستلام والتّسليم كلّها دفعتهم الحاجة إلى توثيق بعض العمليّات وتقييدها بالكتابة، ومن ثمّ حفظها بين وثائق الصّادر أو وثائق الوارد، وقد تكون عمليّات العدّ والإحصاء والاستلام والتّسليم قد أُوحت بأقدم رموز الكتابة في العالم؛ كأن يضع الجابي خطأً واحدًا على لوح الطّين عند استلامه كيسًا من القمح، وخطّين للكيسين، وعندما تبلغ خمسة أكياس؛ يرمز لها بدائرة اختصارًا بدلًا من أن يرمز لها بخمسة خطوط؛ نظرًا لضيق مساحة اللّوح الطّينيّ وكثرة عمليّات الاستلام والتّسليم، وسنورد بعض الأمثلة أثناء الحديث عن مصادر علم الدّلالة القديم المرويّة شفويًّا والموثّقة أو المقيّدة كتابيًّا.

4- مصادر علم الدّلالة (المرويّات واللّقى الأثريّة):

ربّما يصبح في المستقبل كثير من المرويّات الشّفويّة مع اللّقى الأثريّة ولوحات الكهوف القديمة ورسومها وجداريّاتها من أهمّ مصادر علم الدّلالة القديم؛ لكننا لا يمكننا أن نعتمد كثيرًا منها بين مصادر هذا العلم في وقتنا الرّاهن؛ لأننا لا نستطيع الجزم بكثير من دلالاتها أو بعضها على أقلّ تقدير، وإن كانت بعض القراءات الدّلاليّة تلقى قبولًا حسنًا لدى كثير من الدّارسين. وما دامت تلك المرويّات واللّقى الأثريّة ورسوم الجداريّات ورموزها دوالًا لا تجزم لنا بدلالاتها ومعانيها، الّتي أرادها مبدعوها على التّحو الّذي جزم فيه أوجدن ورتشاردز بستّة عشر معنى لكلمة دلالة¹² فإننا سنشير إلى بعض من تلك الوثائق الدّلاليّة مع أنّنا سنستثنيها في الوقت الرّاهن من اعتمادها مصادر موثوقة بين مصادر علم الدّلالة القديم؛ لنعتمد النّصوص الّتي تدلّ دلالة قاطعة على معانيها، وقد أثبتنا كلّ من الكشوفات الأثريّة وفقه اللّغة المقارن والدّراسات الدّلاليّة في أكثر من نصّ مدوّن أو موقع أثريّ قديم.

تنقسم المرويّات والمدوّنات الدّلاليّة القديمة الّتي تُوجِبُ الحصفاء العلميّة عدم اعتمادها بين مصادر علم الدّلالة القديم في وقتنا الرّاهن إلى قسمين، وقد تظهر في

¹² - يُنظر: مدخل إلى علم الدّلالة، ص 33.

المستقبل بعض الكشوفات الأثرية، أو تُنجزُ بعض البحوث العلمية الرصينة في علم الدلالة وفقه اللغة المقارن؛ لنعودنا إلى اعتماد تلك الوثائق والمدونات الدلالية بين مصادر علم الدلالة القديم، وقسمًا تلك المرويّات والمدونات القديمة هما: أ-مرويّات شفوية قديمة، ب-اللُّقى الأثرية من نقوش ومدونات ورسوم وجراريات ومنحوتات قديمة، ويحتمل هذان القسمان غير المعتمدين بين مصادر علم الدلالة في وقتنا الزاهن كثيرًا من الدلالات والتأويلات؛ لذلك استبعدناهما، وما دما أمام المرويّ والمدون سنذكر بإيجاز ببعض الفروق التي لا تخفى على المتابع، والتي يختلف فيها النصّ الشفويّ الملفوظ عن النصّ المكتوب؛ فالنصّ الشفويّ لا يخلد عبر الزمن إلا إذا توافرت له سلسلة من الرواة يتناقلونه على الدوام، وما دام نصًّا غير مقيّد بالكتابة فإنه سيبقى عرضة للتحويلات والتحويلات، ومن الطبيعيّ أن يضيع جزء لا يُستهان به من الثقافة الشفهية بمرور الزمن؛ "نتيجة الإهمال والنسيان، فقد اعتمد في حفظه على الذاكرة الشعبية الجمعية فقط، وتناقلته الأجيال المتلاحقة شفهيًّا، ولم يجد له من يقوم بتدوينه، لكنّ الكثير من الكنوز الأدبية والمعرفية للأدب الشفهيّ قد حُفظت في ذاكرة الشعوب، ويُعدُّ هذا المحفوظ خُلاصة التراث الشعبيّ لكلّ حضارة"¹³؛ ولذلك صار كلّ من الأغاني والأناشيد والأشعار والآداب والفنون والأساطير والنصوص الشفوية القديمة ملكًا جمعيًّا أو تراثًا شعبيًّا مرويًّا من جيل قديم سابق إلى جيل جديد لاحق به، وظلّ مؤلفو تلك النصوص الشفوية مجهولين، واختلفت روايتها في بعض التفاصيل أو كثير منها من مكان إلى آخر، ومن زمن إلى زمن آخر أيضًا، وأشتهرت رواية الشعر العربيّ الشفوية لأسباب متعدّدة إلى حدّ دفع كثيرًا من الباحثين إلى القول: إنّ العرب أمة شفوية، وقد كان لكثير من شعراء العرب رواةً يحفظون أشعارهم، ويروونها ويُشدونها بين الناس، في حين حافظت النصوص المكتوبة على خلودها وثباتها عبر الزمن، وإن تكفّلت مدّة التباعد الزمنيّ الطويلة بين تأليف تلك النصوص وقراءتها من عصر إلى آخر بكثير من تحولات معانها وتطوراتها الدلالية واختلاف نُطقها وتأويلها من جيل إلى جيل ومن دارس إلى آخر في بعض التفاصيل أو في كثير منها.

¹³ - ينظر: الكاطع، سامر، بلاغة الدّعاء في الأدب الشعبيّ الماردينيّ، مقال في كتاب: الأدب الشفهيّ العربيّ في ماردين، تحرير: أحمد عبد الهادي أوغلو، داركريتار، ط1، اسطنبول، 2019م، ص223.

ولعل ما حظي به القرآن الكريم في مرحلة تاريخية متأخرة نسبياً مقارنة بغيره من النصوص المروية القديمة السابقة له أو الحديثة اللاحقة به يشكّل علامة فارقة بين النصوص المكتوبة والمروية كلّها؛ حيث حفظ الله سبحانه تعالى النص المنطوق بجوار النص المكتوب في صدور سلاسل متواترة من الحفاظ وذاكرات الرواة الذين نقلوا القرآن الكريم جيلاً بعد جيل بتلاوة تحاكي تلاوة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم في النطق وأحكام التجويد، مصداقاً لقوله تعالى في سورة القيامة: "إِذَا قرأناه فاتَّبِعْ قرآنه"¹⁴؛ ومن هنا يمكن القول: إنّ القرآن الكريم ما يزال أقدم نص منطوق ومكتوب معاً سجّلته الذاكرة البشرية، وحفظته دون تحوير من مطلع القرن السابع الميلاديّ حتّى وقتنا الراهن في مطلع العقد الثالث من القرن الأوّل من قرون الألفية الميلاديّة الثالثة.

أسوق من أمثلة مرويات علم الدلالة القديم مثالين من المرويات الشفوية؛ الأوّل: عبارة مجازية صارت من صميم علم الدلالة العربيّ؛ حيث تروي الأخبار أنّ رجلاً رفع صوته متألماً بسبب قطع رجله؛ فسمعه آخرون؛ فقالوا: (رفع عقيرته)؛ أي رفع رجله المقطوعة، وفهم من العبارة وقتها: أنّ الرجل رفع صوته بسبب عقر رجله لاقتران حدّث قطع الرجل بأين الرجل بسبب آلام العقر أو القطع، ثمّ غاب الاقتران بين الحدّثين فيما بعد؛ فصارت عبارة (رفع عقيرته) عبارة مجازية تدلّ على أيّ رفع للصوت بسبب الآلام، وهكذا يحدث كثير من التحوّلات الرمزية والتطوّرات الدلالية في المرويات الشفوية، ومنها تحوّل الأمثال الشعبية إلى عبارات مجازية بعد غياب قصتها الواقعية أو سببها الحقيقي عن الأجيال اللاحقة بجيل القدماء؛ كقولهم في الأمثال الشعبية: (مكره أخاك لا بطل) و(إلي استحو ماتوا) و(إلي بيعرف بيعرف، وإلي ما بيعرف يقول: كفّ عدس)¹⁵.

¹⁴ - سورة القيامة، الآية: 18.

¹⁵ - يُلخّص المثل الأوّل: (إلي استحو ماتوا) قصة حريق حدث في حَمَام، فهرب بعض الناس عراة إلى خارج الحَمَام خوفاً من الحريق، في حين أحرقت النار من شعروا بالحياء، ولم يهربوا عراة؛ فقالت الناس: (إلي استحو ماتوا). ويلخّص المثل الثاني: (ألي بيعرف بيعرف وإلي ما بيعرف يقول: كفّ عدس) قصة عاشق غامر ليلاً في زيارة إلى منزل حبيبته بالقرب من بيدرا العدس؛ فأحس أهلها بدنوّه؛ فسرق حفنة من العدس، وهرب، وعندما أمسك أهلها به، واجتمع الناس على الصّوضاء؛ قالوا لأهلها: أمنّ أجل (كفّ/حفنة) عدس تُشعلون حرباً؛ فردّ الأهلون قائلين: (ألي بيعرف بيعرف، وإلي ما بيعرف يقول: كفّ عدس)؛ وهكذا يختصر كثير من الأمثال قصصاً واقعية، بعضها معروف، وبعضها تحوّل معناه أو ضاعت قصته الحقيقية.

والمثال الثاني عن مرويات علم الدلالة القديم الشفوية، يكشف عن التحوّل الرّمزيّ والتطوّرات الدلالية في المرويات الشفوية لكننا مع ذلك لا نستطيع اعتماده بين مصادر علم الدلالة القديم لعدم وجود أدلة قاطعة وتدوينات مكتوبة حول قصّته الحقيقية، ويرتبط هذا المثال بتحوّلات معنى كلمتي: (النار والدخان)؛ فمن المعلوم أنّ حياة البشر راحت تتطوّر من حياة الإنسان البدويّ (الصائد الجامع) إلى حياة الإنسان الحضريّ أو (الفلاح أو المزارع) بعد تدجين القمح واستئناسه بالقرب من جبل السّرة (كوبكلي تبه) شرقيّ مدينة أورفة التّركية بين (10000-9500 قبل الميلاد)، واقتضى ذلك أن يعيش الفلاحون في قرى أو مدن أو ممالك صغيرة بجوار حقول القمح؛ ليحرثوا الأرض، ويحموا قمحهم من الأعداء والحيوانات، واقتضى ذلك تحصين حقول القمح أو حمايتها؛ ولما كان تسوير المساحات الكبيرة صعبًا عمّد البشر إلى وضع رجال الاتّصالات أو النّواطير فوق التلال الطّبيعية أو الصّناعية بجوار سهول القمح؛ ليقوموا بدورهم بإبلاغ الفلاحين في حقولهم أو بيوتهم عن أعداء قادمين نحو قراهم أو مدنهم أو ممالكهم أو حقولهم كلّما استشعروا بخطر قادم، ولأنّ الصّوت البشريّ لن يصل بسهولة من تلّ بعيد عن القرية أو المملكة إلى الفلاحين المشغولين بأعمالهم، اتّفق النّاس على أن يكون إشعال النّار أو رؤية دخانها تعبيرًا عن الخطر القادم، أو إنذارًا مبكرًا، أو تنبيهًا عن عدوّ أو إشهارًا وإعلانًا عن موضوع مهمّ على أقلّ تقدير، وفي هذا السّياق نستطيع أن نؤوّل كلام فلاح في حقله، حين يقول للفلاحين الآخرين: انتبهوا لقد اقترب الأعداء، فقد رأيت دُخانًا في السّماء؛ فيقول الآخرون: اتّفقنا أن يُخبرنا رجال الاتّصالات بإشعال النّار لا بالدخان وحده؛ فيردّ عليهم بجملة يقول فيها: (لا يوجد دُخان دون نار؛ ما في دُخان بلا نار)، ثمّ تحوّلت هذه الجملة فيما بعد إلى مثل شعبيّ شهير، يطوي في ثناياه كثيرًا من المجاز والكنائيات ومعاني القصص والأمثال الشعبيّة والأخبار الشائعة (الشائعات) التي تدلّ في عمومها على الشّيع والانتشار والاشتهار، وتُقرّر أنّ ظهور بعض العلامات كالِدخان مثلاً دليلٌ قاطع على دلالات مضمرة خفية، والتي غابت عنّا بسبب تحولاتها الرّمزية أو تباعدنا في الزّمان والمكان عن تلك العلامات أو قصصها وأمثالها.

أمّا المدونات الدلالية القديمة التي لا نستطيع في وقتنا الرّاهن عدّها بين مصادر علم الدلالة القديم؛ فهي كثيرة، وسنكتفي بذكر بعض الأمثلة منها؛ كالتمثال

العاجي للرجل الأسد أو اللبوة الأسد في كهف شنتال في ألمانيا، والذي يرجع إلى قبل 32000 سنة من وقتنا الراهن؛ والذي يُعدّ من أقدم تماثيل النّحت في العالم؛ حيث أراد صاحبه أن يجعله رمزاً عن شيء ما، ويعبّر من خلاله عن دلالة أو مقولة أرادها، وكذلك نذكر بصمة اليد البشريّة التي دُمغت قبل 30 ألف سنة على جدار كهف تشوفيه بوند دي أرك في فرنسا، ولعلّ صاحبها أراد أن يقول: كنت هنا، ونذكرُ رسم كهف لازكو الذي يعود إلى 15000 سنة أو 20000 سنة من وقتنا الراهن على أبعاد تقدير، ومن الرّاجح أن مُبدعي تلك النّصوص أرادوا أن يقولوا شيئاً أو عدّة أشياء من خلال نصوصهم تلك؛ لكننا لا نستطيع الجزم بدلالة تلك النّصوص، وما زال تأويل معانيها يشبه التّكهنات إلى حدّ ما. وتُعدّ الرّسوم والرّموز المنقوشة على أعمدة كوبكلي تبّه شرق مدينة أورفة التّركيّة قرائن دلاليّة تعود إلى 9500 سنة قبل الميلاد، وتكشف هذه القرائن عن نظامين: أوّل اجتماعيّ تعاونيّ متقدّم، وثانٍ عقائديّ مرتبط بالأوّل، مثلما تكشف طبّعات كهف الأيدي في الأرجنتين، عن بُعْدٍ عاطفيّ مثير، وترجع تلك الطّبّعات إلى 9000 سنة قبل وقتنا الراهن¹⁶، ولعلّ تلك النّصوص الدّلاليّة القديمة مروية ومكتوبة ما تزال محتاجة إلى البحث والتّمحيص والتّدقيق قبل الجزم بدلالاتها؛ لاعتمادها بين أقدم النّصوص الدّلاليّة ومصادر علم الدّلالة القديم.

5- علم الدّلالة من اختراع الكتابة إلى وثيقة وليام جونز:

بعد ضعف الخلافة العثمانيّة الملحوظ في أواخر القرن الثّامن عشر تمدّدت الدّول الأوربيّة ولا سيّما بريطانيا في الهند والمشرق العربيّ، وحصل علماء فقه اللّغة المقارن الأوربيّون على أرشيف كبير من وثائق الحضارات القديمة في الهند والعراق وسوريا ومصر، وعكف كثير منهم على دراسة نقوش تلك الحضارات القديمة وجدارياتها ووثائقها المدوّنة باللّغات القديمة: (السّنسكريتيّة والبهلويّة والسّومريّة والأكديّة والهيروغليفيّة والأراميّة والعبريّة والفينيقية والسّريانيّة والعربيّة واليونانيّة وغيرها من اللّغات الأخرى)؛ ونظراً لخبرة علماء فقه اللّغة الأوروبيّين بالقضايا الدّينيّة والسياسيّة الحسّاسة التي قد تُسفر عنها دراسة ذلك الأرشيف العالميّ الكبير من آثار حضارات الشّرق القديم وترجمة نقوشه وجدارياته، عمد وليام جونز (William Jones) (1746-

¹⁶ - يُنظر: العاقل (تاريخ مختصر للنوع البشري)، ص 12، 34، 36، 75، 76، 114، 115.

1794م) إلى ضبط الإطار المرجعي للنقاشات الفيلولوجية ونتائجها المحتملة قبل صدورها بتوقيع وثيقة ولادة فكرة الأصول واللغات الهندو-أوروبية في الثاني من شباط/فبراير) عام 1786م، و"هكذا صار الباحثون بعد التحديث الطارئ على تاريخ اللغات والألسنة يحسبون أنفسهم قادرين على تكوين صورة دقيقة عن المجتمعات الماقبتاريخية، حتى إن بعضهم جعل يتمي استعادة أقوال الأجداد الأولين وأعمالهم عن طريق التحليل المقارن للجذور الهندو-أوروبية، وباختصار، فإن علم الإحاثة اللغوي (Paleontologie linguistique) هذا بات قمة أحلامهم"¹⁷.

كشفت توقيع وثيقة الأصول الهندو-أوروبية عن خبرة الأوروبيين وباعهم الطويل في مجال النقاشات الفيلولوجية ونتائجها الدلالية الكبيرة، ولا سيما أن معظم علماء فقه اللغة الأوروبيين قدامئهم ومحدثهم كانوا من الفلاسفة والأهوتيين من دارسي الكتاب المقدس بدءًا من القديس أوغسطين Saint Augustin (354-430م) ووصولًا إلى أرنيس رينان (Renan) (1823-1892م)، ومرورًا بكثير من الدارسين الذين جاؤوا بعد أوغسطين أو رينان، ولربما يكون فرديناند دو سوسير (F. de Saussure) (1857-1913م) أول من أسس للاتجاه العلماني أو المتعلم في فقه اللغة المقارن، ولا سيما أن الغرب الأوروبي قد مرّ في نقاشات كثيرة قبل اعتماد بعض الأنجيل ونسخ التوراة وترجماتها وتدوينها في النسخة الأخيرة المعتمدة من الكتاب المقدس، وقد أدت بعض النقاشات والترجمات إلى حرق بعض النسخ أو إعدام أصحابها أو سجنهم قبل اعتماد النسخة الزاهنة من الكتاب المقدس، وجمع العهدين: العهد القديم أو التوراة والعهد الجديد أو الإنجيل في كتاب مقدس واحد.

أسست وثيقة وليام جونز حول الأصول الهندو-أوروبية مرحلة جديدة من الدراسات الفيلولوجية في فقه اللغة المقارن، وقادت وثيقته تلك العالمين الألمانين: يوهان جوتفرد هردر (1744-1803م) وأغسطس لودفيك فون شلوزر (1735-1809م) إلى إكمال ملامح تقسيم جونز بإطلاق مصطلح اللغات السامية للدلالة على اللغات السريانية والبابلية والعبرية والعربية، والتي عُرفت سابقًا لدى الغربيين باللغات الآرامية أو

¹⁷ - أولندر، موريس، لغات الفردوس، (آريون وساميون: ثنائية العناية الإلهية)، ترجمة: جورج سليمان، مراجعة: سميرة ريشا، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت 2007م، ص 42-43.

الشَّرْقِيَّة؛ "وإنّما جرت تسميتها (ساميّة) نسبة إلى سام بن نوح؛ أخي يافث"¹⁸. وتقوم وثيقة جونز وتقسيماته مع تقسيمات هرذر وشلوزر على رؤية توراتيّة حول أصول البشر، ويرى هرذر أنّ "فهم ماضي البشريّة يغدو من هذا المنطلق فنّ الكشف عن النّظام الإلهيّ الذي تحدّث عنه التّوراة، ممّا يقضي بتوثيق الصّلة بين النّصّ الكتابيّ والنّصّ التّاريخيّ توثيقًا يهيب بالمؤرّخ التماس الدّليل الحسّيّ على الحقيقة الكتابيّة في واقع الحدث التّاريخيّ وإرساء المعرفة التّاريخيّة على قاعدة الحقيقة الكتابيّة"¹⁹.

دغدغت وثيقة جونز وتقسيمات هرذر وشلوزر مشاعر القوميّين والمتديّنين اللّاهوتيّين والعلمانيّين من علماء فقه اللّغة المقارن في أوروبا، ووجدوا فيها ما يروي شغفهم في البحث عن أصولهم العرقيّة القديمة أو نبيّهم وكتابتهم الأريّين في موازاة أنبياء السّاميين وكتبتهم إن أمكن ذلك، ولا سيّما أنّ تنقيبات علماء الآثار الأوروبّيّين قد زوّدت متاحف أوروبا وعلماء فقه اللّغة المقارن بأرشف كبير من وثائق الشّرق القديم، عندما تمدّد الأوروبّيّون في المشرق العربيّ والهند خلال قرنين من ضعف الدّولة العثمانيّة؛ ولا سيّما بين عامي 1765-1915م؛ لذلك عكف فقهاء اللّغة الأوروبّيّون على دراسة كلّ من الرّند أفسسته؛ كتاب زرادشت المقدّس، وأناشيد الفيديا السّنسكريتيّة المقدّسة لدى الهنود الأريّين حسب تقسيمات وليام جونز وفقه اللّغة المقارن الجديد. وشرع علماء فقه اللّغة الأوروبّيّون في فكّ شيفرات لغة أناشيد الفيديا السّنسكريتيّة القديمة؛ لترجمتها أوّلاً، والبحث عن وشائج القرابة بين السّنسكريتيّة واليونانيّة القديمة وسائر اللّغات الأوروبّيّة الحديثة ثانيًا؛ دعمًا لتقسيمات جونز وهزدر وشلوزر.

ازدهر فقه اللّغة المقارن، ونشطت الدّراسات الدّلاليّة بعد وثيقة وليام جونز تلك وما تفرّغ عنها من تقسيمات جديدة؛ ولذلك أرجع بعض الباحثين نشأة علم الدّلالة إلى هذا التّاريخ الحديث أو بعده بقليل برغم تأخّر هذا التّاريخ كثيرًا عن ولادة علم الدّلالة القديم وازدهاره أيضًا، مع أنّ النّقوش والوثائق القديمة التي ازدهر علم الدّلالة الحديث بسبب دراستها تُثبت نفسها عراققة علم الدّلالة القديم وأصالته منذ آلاف السّنين، وتكشف عن تشعبه في مجالات إطلاق الأسماء أو الرّموز أو الدّوالّ على المدلولات، وتألّف

¹⁸ - لغات الفِرْدوس، (أريّون وساميّون: ثنائيّة العناية الإلهيّة)، ص 51.

¹⁹ - لغات الفِرْدوس، (أريّون وساميّون: ثنائيّة العناية الإلهيّة)، ص 112.

التّصوّص الإبداعية وشرحها وتأويلها وتدوينها بموضوعاتها المتنوّعة وكتابة النّقد حولها وترجمتها إلى لغات متعدّدة، مع إدراك المبدعين من مؤلّفين وشُراح ونُقّاد ومُترجمين ما يحتاجونه من مبادئ علم الدّلالة الضّروريّة لهذا النّوع من الكتابات الإبداعية؛ كفهم معاني الرّموز أو العلامات اللّسانية في معاجمها وسياقاتها اللّغوية واختلاف التّأويل من سياق إلى آخر، وتمييز الكتابة الإبداعية من كتابة الشّرح والتّأويل والتّفسير والنّقد، ناهيك عن اختلاف لفظ الكلمة ومعناها من لغة إلى أخرى، واختلاف التّرجمة الحرفية عن ترجمة روح النّصّ من هذه اللّغة إلى تلك؛ ممّا يستدعي تأليف المعاجم اللّغوية كمعجم تلّ العمارنة الأكديّ_الهيروغليفيّ، ولا شكّ أنّ الكاتب والمحاسب والقاضي والمبدع والنّاقِد والشّارح والمؤوّل كانوا من علماء الدّلالة المختصّين بفهم معاني رموزهم وتأويل كتاباتهم على أقلّ تقدير، وكيف ينقش كاتب ما شريعة حمورابي على مسلّة دون أن يفهم تأويلها واختلاف دلالات الكلمات من سياق إلى آخر؟ أو كيف يؤلّف فيلسوف كتابًا مهمًّا مثل كتاب (كليلة ودمنة)، ويتصدّى لترجمته مبدع آخر دون معرفة المؤلّف والمترجم بدلالات المفردات واختلاف معاني الكلمات من سياق إلى آخر، وتحولات الدّلالة بين لغة الأصل ولغة التّرجمة؟ فقد كُتِب كتاب (كليلة ودمنة) بالسّنسكريتيّة أو الهنديّة القديمة بعد وقت قصير من وصول الإسكندر الأكبر بن فيليب المقدونيّ (336-323 قبل الميلاد) إلى الهند، وتُرجم منها إلى الهلويّة أو الفارسيّة القديمة في زمن كسرى الأوّل؛ أنوشروان بن قُباد بن يزيد جرد بن بهرام جور (501-579م)، ثمّ ترجمه زُودبّة بن داذويه المشهور باسم: (عبد الله بن المقفّع) (724-759م) إلى العربيّة بعد دخوله الإسلام في أواخر الدّولة الأمويّة وبداية الدّولة العبّاسيّة.

لقد كشف تطوّر فقه اللّغة المقارن، الذي ترجم نصوص الحضارات القديمة إلى لغاتنا المعاصرة عن ازدهار علم الدّلالة القديم تأليفًا وتدوينًا وتأويلًا، وتأكّد ازدهار بعض العلوم الدّلاليّة البحتة في الحضارات القديمة عند قدماء الهنود والعراقيين والسوريين والمصريين من شعوب العبيديين والسومريين والأكديين والبابليين والآراميين والحثّيين والفينيقيين والكنعانيين والأسر الفرعونية المتلاحقة، وأثبتت التّرجمات والمعاجم اللّغوية والقرائن الدّلاليّة تطوّر علوم الفلك والرياضيات حسابًا وهندسة منذ آلاف السنين، فقد عرف قدماء العراقيين أنظمة الحساب والتدوين العشريّة والسُداسيّة، وقد منَحنا نظام

السومريين السُداسي "إرثًا يتمثل في تقسيم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة، وتقسيم الدائرة إلى 360 درجة"²⁰، ودمج السومريون بين النظامين: العشري والسُداسي، وحفظوا قدرًا كبيرًا من المعارف الإنسانية، وحفظت لنا زقورات العراق وأهرامات مصر وممالك سورية القديمة وتلالها ومكتبات الهند وفارس واليونان نصوصًا من عصور زمنية متعددة، تحتوي على مواضيع متنوعة، تمتد بين 3500 قبل الميلاد²¹ والقرن السابع الميلادي، الذي بُعث فيه النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ ليحظى القرآن الكريم كما أسلفنا بقراءات وتلاوات محفوظة بالصدور، ومنقولة بالتواتر إلينا، ومنطوقة بقراءة تحاكي تلاوة الرسول الكريم من حيث أحكام التجويد ومخارج الحروف؛ وبهذا تكون تلاوة النص القرآني أقدم نص صوتي مسجل قبل اختراع آلات التسجيل بمئات السنين.

6- أهم مصادر علم الدلالة في حضارات الشرق القديم:

سنتجاوز ما ترويه أسطورة أوزيريس المصرية القديمة، التي تشير إلى علاقة مصر القديمة بجبيل (بيبلوس) اللبانية؛ لنقف عند ما ترويه النقوش المصرية ونقوش جبيل اللبانية في نص دلالي يقول: إن "الملك سنفرو، والد خوفو باني الهرم الأكبر، ومؤسس الأسرة الرابعة قد أرسل أسطولًا من أربعين سفينة لإحضار أخشاب الأرز من لبنان"²²، ويبدو أن مشهد استقبال الملك ساحورع في جدارية الأسطول المصري العائد من فينيقيا يكمل نص الملك سنفرو، أو يشرحه؛ حيث يشير ذلك المشهد إلى علاقات جيدة بين فينيقيا ومصر الفرعونية حوالي 2540 قبل الميلاد²³، وقد تمكّن فقه اللغة المقارن من ترجمة لوحة القائد المصري أوني، وسرد أخبار معاركه في سورية حوالي 2400 قبل الميلاد²⁴، وأثبت بذلك أن علم الدلالة كان موجودًا ومزدهرًا في مجالات: إبداع النصوص وتدوينها وتوثيقها وأرشفتها، وأكد بشكل أو بآخر أن المنتصرين يكتبون التاريخ، ويبرزون ما أرادوا إبرازه من دلالات، ويغيّبون ما أرادوا تغييبه أيضًا.

²⁰ - يُنظر: العاقل (تاريخ مختصر للنوع البشري)، ص 151.

²¹ - يُنظر: العاقل (تاريخ مختصر للنوع البشري)، ص 97، 119.

²² - دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص 62.

²³ - دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص 62.

²⁴ - يُنظر: دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص 63.

ذكرت وثائق سرجون الأكديّ العراقيّة (حوالي عام 2350 قبل الميلاد) أنّ الأُموريّين في سورية كانوا من البدو المتجوّلين، الذين "لا يعرفون سكنى البيوت، ولا يعرفون الزّراعة، ولكنهم تعلّموا ذلك فيما بعد"²⁵. وأسهبّت الوثائق المصريّة في الحديث عن (سنوهي) الموظّف المصريّ الذي عاش في بلاط أمنحات الأوّل ووليّ عهده سنوسرت حوالي 1961 قبل الميلاد، ثمّ هرب إلى رتنو العليا (لبنان) بعد وفاة أمنحات الأوّل، وتزوّج هناك أميرة، وأنجبت منه عدّة أولاد، وعاش هناك حتّى سنة 1940 قبل الميلاد، وحنّ إلى بلده، ورجع إلى مصر؛ فاستقبله ملكها أو فرعونها سنوسرت الأوّل، ووعده بموكب جنازة مهيب يوم وفاته، جريّاً على عادة الفراعنة المصريّين في احترام كبار رجالات الدّولة أو تقديسهم، ولم يكن وعدّ سنوسرت ذاك إلاّ اعترافاً بقيمة سنوهي وأهمّيّته²⁶.

كذلك تؤكّد الوثائق السّوريّة في جيبيل وأوغاريت (رأس شمرا) عمق العلاقات المصريّة السّوريّة، وتكشف رُقم مملكة ماري التي تقترب من 20000 رقيم عن تطوّر علم الدّلالة وازدهاره، وتحتوي تلك الألواح على موضوعات دلاليّة متعدّدة، وتُثبت تبادل الهدايا بين الفراعنة والأمرء السّوريّين بين 1792-1850 قبل الميلاد، مثلما تشير تلك الوثائق إلى ازدهار التّرجمة وأهمّيّتها بوصفها جانباً تطبيقيّاً مهمّاً من جوانب علم الدّلالة ودليلاً واضحاً على ازدهاره؛ إذ كيف يترجم المترجمون نصوصهم دون علمهم بمعاني العلامات اللّسانيّة في لغة الأصل ولغة التّرجمة، أو دون اطلاعهم على تأثير السّياق في دلالة المفردات؟ فقد استفاد الفراعنة من التّرجمة بوصفها جانباً تطبيقيّاً من جوانب علم الدّلالة في ترجمة المراسلات الدّبلوماسية بينهم وبين ملوك آشور وبابل وخيتا وميتاني والأمرء السّوريّين المقربّين منهم؛ لأنّهم منحوهم حرّيّتهم اللّغويّة والدينيّة، وكانوا يرأسلون الأقوام والشّعوب الأخرى بلغاتهم، ولا سيّما اللّغة الأكديّة، التي كانت لغة عالميّة منتشرة على نطاق واسع في تلك الأيّام²⁷. وكثيراً ما برزت أهمّيّة التّرجمة بوصفها قضيّة دلاليّة مهمّة لدى الملوك والأمرء في الحضارات والممالك القديمة، ولا سيّما أثناء

²⁵ - دراسات في تاريخ الشّرق القديم، ص 66.

²⁶ - يُنظر: دراسات في تاريخ الشّرق القديم، ص 70.

²⁷ - يُنظر: دراسات في تاريخ الشّرق القديم، ص 72.

مراسلاتهم الدبلوماسية، وعند توقيعهم المعاهدات المهمة؛ كمعاهدة الصداقة بين ملوك أوغاريت (رأس شمرا) وملوك الحيثيين²⁸.

أ- شريعة حمورابي:

اكتشفت البعثة الأثرية الفرنسية برئاسة دي مورجن J.de Morgan في موسم التنقيب 1901-1902. م مسلة حمورابي (1750-1792 قبل الميلاد)، التي دُوت عليها شريعته، ودلت مسلة حمورابي الموجودة كاملة في متحف اللوفر مع كسرها الموجودة في متحف بغداد على وجود نسخ متعددة منها؛ مما يعني أن قانون حمورابي كان منشورًا في ساحات المدن²⁹، وكانت الناس تعرف دلالات هذا القانون وعقوباته، وهذا لا يكشف عن وجود علم الدلالة القديم وحسب، وإنما يؤكد تطوره وازهاره أيضًا³⁰، فقد تولى الكتاب تدوين قوانين الشريعة على مسلات، ونشرها رجال الشرطة والقانون في ساحات المدن العامة؛ وفسروها لعامة الناس؛ ليفهموها ويلتزموا بها، مثلما حفظت ألواح الطين الأكديّة بالحرف المسماري كثيرًا من القوانين والنصوص الفنيّة والمعاهدات الدبلوماسية والمراسلات الملكية.

يبلغ طول مسلة حمورابي حوالي 2,25 مترًا، وبلغ المعدل الوسطي لقطرها حوالي 60 سنتيمترًا، تضم المسلة 51 عمودًا متجاورًا، تحتوي على 282 مادة قانونية. وتبدأ معظم المواد القانونية بكلمة (Summa) التي تعني الشرط في الأكديّة، وترجمت إلى أداة الشرط (إذا) في العربية الفصحى، وتبدأ الكتابة في كل عمود بأسطر من اليسار في الأعلى نحو اليمين والأسفل، وقد حרב العيلاميون الأعمدة السبعة السفلية من نصّ الشريعة، وتمكّن الدارسون من ترجمة بعض الأعمدة التالفة بسبب وجود النسخ التعليمية على ألواح طينية من شريعة حمورابي؛ وهذا يؤكد أن شريعة حمورابي حظيت باهتمام كبير ودراسة دلالية متميزة، ويكشف عن أحدث ما تقول به النظريات الدلالية المعاصرة في التأويل والتلقي حين ترى أن الكتابة إعادة قراءة المكتوب، والقراءة إعادة كتابة المفوظ؛ وذلك لأنّ كلّ كتابة قراءة وتأويل بالضرورة، وكلّ قراءة كتابة وتأويل من ناحية أخرى،

²⁸ - يُنظر: دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص 76.

²⁹ - يُنظر: حنون، نائل، شريعة حمورابي (ترجمة النصّ المسماري مع الشروحات اللغوية والتاريخية)، دار

المجد للطباعة والنشر، ط1، دمشق 2005م، ج1، ص15.

³⁰ - يُنظر: العاقل (تاريخ مختصر للنوع البشري)، ص 130.

وتدوين شريعة حمورابي وإعادة قراءتها يدخل في هذا المجال الدلالي؛ وقد وصلتنا نسخٌ متعدّدة من هذه الشريعة "من مواقع مختلفة في العراق ومن عصور مختلفة أيضًا. فبعضها يعود إلى عهود خلفاء حمورابي في سلالة بابل الأولى، وبعضها الآخر يعود إلى ما بعد عهد حمورابي بمدة قد تصل إلى ألف عام"³¹.

يبدأ نصّ شريعة حمورابي بالقول: "إنّ الآلهة أنو (Anu) وإنليل (Enlil) ومردوخ (Marduk): كبار الآلهة في مجمّع آلهة بلاد ما بين النهرين عيّنت حمورابي لنشر العدالة في الأرض، وإبطال الشرّ والخبث، ومنع القويّ من قمع الضّعيف، ثمّ يُدرج حوالي 300 حكم، [أو 282 مادة قانونية] موضوعة بصيغة: إذا حدث كذا وكذا، فإنّ حكمه كذا، فمثلاً: الأحكام 196 و197 هي [كالاتي]: 196-إذا أعمى سيّد عين سيّد آخر، فيجب أن تعى عينه. 197-وإذا كسر عظم سيّد آخر، فيجب أن يكسر عظمه"³²، وجاء في المادة السادسة من شريعة حمورابي: "إذا سرق سيّد ثروة الإله والقصر، يُعدّم ذلك السيّد"³³. ويبدو أنّ شريعة حمورابي القديمة لا تختلف كثيرًا عن وثيقة الاستقلال الأمريكيّة التي كتبت بعد 3500 سنة [من] كتابة شريعة حمورابي؛ حيث تقرّ الوثيقتان شريعة حمورابي ووثيقة الاستقلال الأمريكيّ، التي وقّعت في فلادلفيا 4 تمّوز 1776م بعد ازدهار علم الدلالة الحديث بحقوق البشر في الحياة والحرية والعدل والسعادة"³⁴.

ب-رسائل تلّ العمارنة:

حافظت الإمبراطورية المصريّة على مجدها الكبير في عهد تحوتمس الثالث (1436-1490 قبل الميلاد) وابنه أمنحوتب الثاني (1436-1411 قبل الميلاد) وحفيده أو ابن ابنه تحوتمس الرابع (1411-1397 قبل الميلاد)³⁵، وأعطى أولئك الفرعنة الممالك السوريّة والإمارات المؤيّدة لهم حرية دينيّة، وأخرى لغويّة سيّراً على عادة أسلافهم الفرعنة السّابقين، واستقدموا الطّلاب السّوريّين لتعليمهم في مصر، ولعلّ تعليم القراءة

³¹ - شريعة حمورابي (ترجمة النصّ المسماريّ مع الشّروحات اللّغويّة والتّاريخيّة)، ج1، 18.

³² - العاقل (تاريخ مختصر للنوع البشريّ)، ص 132.

³³ - شريعة حمورابي (ترجمة النصّ المسماريّ مع الشّروحات اللّغويّة والتّاريخيّة)، ج1، 187.

³⁴ - يُنظر: العاقل (تاريخ مختصر للنوع البشريّ)، ص 134.

³⁵ - يُنظر: فخري، أحمر، مصر الفرعونيّة (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتّى عام 332 قبل الميلاد)، منشورات مكتبة الأسرة والهيئة المصريّة للكتاب، ط1، القاهرة 2012م، ص 217-229.

والكتابة وتنشئة المترجمين العارفين بمعاني الرموز اللغوية مُفردَةً أو مركّبة في سياقات لغوية مع إعداد المعلمين المشرفين على تعليم نصوص تلك اللغات الجديدة وترجمتها وتفسيرها وتأويلها بالإضافة إلى حرّية التّعّد اللغويّ في مصر القديمة والدّول المتحالفة معها من أهمّ ما يقع في مركز دائرة علم الدّلالة القديم، ويكشف عن تطوّره أيضًا.

وصل إلى الحكم أمنحوتب الثالث (1360-1397 قبل الميلاد)، وشاركه في حكمه أثناء حياته ابنه أمنحوتب الرابع (1370-1349 قبل الميلاد)، ثمّ حكم أمنحوتب الرابع بمفرده بعد وفاة أبيه، وانصرف إلى البذخ والتّرف بدلًا من الاهتمام بشؤون البلاد السّياسيّة والعلميّة والعسكريّة، ثمّ قام إخناتون بثورته الدّينيّة، ونقل أهمّ الوثائق والمراسلات الدّبلوماسية الفرعونيّة من إقليم طيبة إلى تلّ العمارنة (أخت-أتون)³⁶، وقد تضمّنت تلك الألواح الطّينيّة المكتوبة بالأكدية 337 رسالة "لقيت ما هي جديدة به من اهتمام؛ لأنّها من أهمّ المصادر التّاريخيّة التي توضّح لنا ما كانت عليه [الحال] السّياسيّة في بلاد سورية (فلسطين وبابل وأشور وميتاني وخيتا) في أواخر أيام أمنحوتب الثالث وطيلة أيام إخناتون"³⁷.

انتهت ثورة إخناتون الدّينيّة، ورجع الفراغة إلى إقليم طيبة، وهُجر تلّ العمارنة، وعُدّ مكانًا نجسًا، وبقي فيه أرشيف دلاليّ مهمّ؛ يقترّب من أربعمئة لوح طينيّ مكتوب بالأكدية المتأخّرة؛ لغة العصر المهيمنة في ذلك الوقت، وهذا دليل آخر على ازدهار علم الدّلالة القديم. أكتشفت تلك الألواح صدفة سنة 1887م، وظنّها النّاس ألواحًا مزيفّة، ولم تأخذ حقّها من الاهتمام إلّا مع قدوم عالم المصريّات فلنדרز بتري سنة 1891م، ثمّ تُرجم حوالي 337 رسالة دبلوماسية من تلك الألواح الأكدية إلى لغاتنا الحيّة أو المعاصرة. والحقّ أنّ كثيرًا من القائلين بحدثة علم الدّلالة والمؤلّفين في مجال علم الدّلالة الحديث لم يعرفوا شيئًا عن رسائل تلّ العمارنة أو شريعة حمورابي أو مكتبات ماري وإيبلا والعراق، التي لم تكن مُكتشفة في ذلك الوقت؛ ولعلّهم تسرّعوا في حكمهم بحدثة علم الدّلالة مع أنّهم لم يُعدّموا مؤلّفات دلاليّة أخرى مكتوبة بلغات قديمة، ومترجمة إلى لغات حديثة متعدّدة؛ كألواح العهد القديم ونقوشه وترجمته السّبعينيّة، وكتاب كليلة ودمنة

³⁶ - يُنظر: مصر الفرعونيّة (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتّى عام 332 قبل الميلاد)، ص 248.

³⁷ - مصر الفرعونيّة (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتّى عام 332 قبل الميلاد)، ص 252.

بنسخه: الهنديّة والفارسيّة والعربيّة، وكتب مهمّة أخرى لدى لدى فلاسفة ولاهوتيّين اشتغلوا بعلم الدّلالة القديم، واهتمّوا بدلالة الألفاظ والجمل أيّما اهتمام في كتبهم المتعدّدة؛ كالجمهورية لأفلاطون، وفنّ الشّعْر والخطابة لأرسطو، ومؤلّفات القديس أوغسطين وغيرها.

توزّعت ألواح تلّ العمارنة بين متاحف مصر وبرلين وفيينا وباريس وغيرها من المتاحف، ولعلّ معجم تلّ العمارنة للترجمة من أهمّ وثائق علم الدّلالة القديم؛ فقد كتبت فيه الكلمة الأكديّة في عمود أوّل، وكتب نُطقها الأكديّ بالحروف المصريّة في عمود ثانٍ، وكتب معناها بالمصريّة في عمود ثالث. وقسم علماء فقه اللّغة المقارن رسائل تلّ العمارنة أو وثائقها الدّبلوماسية المهمّة إلى ثلاثة أقسام: (رسائل دبلوماسية ملكيّة، ورسائل الأمراء الموالين، ورسائل المُصاهرة)، وتحتوي تلك الألواح الطينيّة على نصوص من أقدم المراسلات الإخوانيّة (رسائل الصّداقة والمصاهرة)، والمراسلات الرّسميّة (رسائل ملوك الدّول المجاورة وأمراء الدّول المتحالفة مع الفرعنة)، وتضمّ تلك المراسلات مواضيع غاية في الأهميّة؛ كرسائل الشّوق والرّثاء والعتاب، ولعلّ رسالة دوشراتا الملك إلى أمنحوتب الرّابع عند تولّيه العرش بعد وفاة أبيه أمنحوتب الثّالث من أقدم الرّسائل العالميّة التي جمعت بين التّعزية والتّهنئة في وقت واحد؛ حيث جاء في تلك الرّسالة: "حينما مات والدك بكيّت يوم علمت بوفاته، وسقطتُ مريضاً، وأشرفت على الهلاك، ولكن عندما علمتُ بأنّ أكبر أنجال الملك أمنحوتب والملكة تي قد جلس على العرش قلت: الآن، لم يمت أمنحوتب"³⁸.

ج-كتاب كليلة ودمنة:

تطلّ علينا من خلال كتاب كليلة ودمنة ظلال من تعاليم الرّزداشتيّة والهندوسيّة في كلّ من الرّند أفسسته وأناشيد الفيذا السنسكريتيّة؛ لأنّ الفيلسوف الهنديّ ديبيا؛ مؤلّف كتاب كليلة ودمنة كان رأس طائفة الهندو البراهمة في أيّام حروب الهند مع الإسكندر الأكبر المشهور بالإسكندربن فيليب المقدونيّ أو ذي القرنين (336-323 قبل الميلاد). ولعلّ معظم الباحثين في مجال علم الدّلالة وفقه اللّغة المقارن يعلمون أهميّة الرّند أفسسته (كتاب زرادشت) وأناشيد الفيذا الهندوسيّة ودورهما الكبير في إحياء

³⁸ - دراسات في تاريخ الشّرق القديم، ص 82.

علم الدلالة القديم وتوجيه الاهتمام نحو فقه اللغة المقارن وعلم الدلالة الحديث بعد وثيقة وليام جونز حول الأصول الهندو-أوروبية، التي أشرنا إليها من قبل.

وإن كان الحديث عن كتاب زرادشت وديانة الهندو القدماء من خلال أناشيد الفيدا ليس مدار بحثنا؛ فإنه من الطريف أن نجد ارتباطاً بين الهندو ومصادر علم الدلالة القديم في أكثر من موقع من خلال الحديث عن كتهم الدينية والفلسفية أو الأدبية الوعظية؛ حيث يرتبط كتاب (كليلة ودمنة) بساسة الهندو البراهمة وملوكهم وكتابهم المذكورين أنفاً بشكل أو بآخر؛ فقد ألف الفيلسوف الهندي ديبيا كتابه (كليلة ودمنة) لِدَبْشَلِيم ملك الهند، بعدما استبدَّ برعيته، وكان ذلك بعد أن انتصر الإسكندر المقدوني على فُور ملك الهند قبل دَبْشَلِيم، وعيّن الإسكندر المقدوني مكان الملك الهندي الخاسر ملكاً جديداً أو والياً آخر على الهند غير (فُور) المهزوم، وتابع الإسكندر غزواته، وبعد مدة خلع الهندو والي الإسكندر عليهم، وعيّنوا دَبْشَلِيم، الذي ظلمهم، واستبدَّ بهم في بداية حكمه؛ فما كان من ديبيا فيلسوف الهند ورأس طائفة البراهمة الهندوسية إلا أن استشار تلاميذه، وألف كتاب (كليلة ودمنة) في الوعظ السياسي على ألسنة الحيوانات؛ وردّ من خلاله دَبْشَلِيم إلى جادة الحق والصواب والعدل تجاه رعيته. وبعد ذلك بعدة قرون من الزمن، أرسل كسرى الأول أنوشروان بن قباذ بن يزجرد بن بهرام جور (501-579م) إلى الهند رسوله بَزْرَوَيْه؛ رأس الأطباء عنده؛ ليحصل على نسخة مترجمة من كتاب (كليلة ودمنة) مهما كلف ثمنها، ونجح بَزْرَوَيْه بمهمته، ونقل نسخة باللغة الهلوية إلى بلاد الفرس، ثم ترجم رُوزَبَة بن دَاذَوَيْه المشهور بعبد الله بن المقفّع (724-759م) هذا الكتاب من الهلوية أو الفارسية القديمة إلى العربية بعد اعتناقه الإسلام.³⁹

أشرتُ إلى اكتشاف عشرات الآلاف من الألواح الطينية والوثائق الدلالية في تلال سورية ومصر والعراق وممالك آشور وبابل وماري وإيبلا ورأس شمرا، وقد ضمت تلك الألواح معاجم وترجمات ومراسلات مهمة جداً في ميدان علم الدلالة، ولا سيما في الجانب التطبيقي منه؛ مثل تأليف معاجم الترجمة، وترجمة المراسلات الدبلوماسية، غير أن

³⁹ - يُنظر: ديبيا، كليلة ودمنة، ترجمة: روزبة بن داذويه المشهور بعبد الله ابن المقفّع، منشورات مكتبة زهران، ط1، القاهرة 2005، ص 11-12-13-14-15 من باب مقدّمة الكتاب، وقد كتبها: بهنود بن سحوان المعروف بعلي بن الشاه الفارسي.

كتاب كليلة ودمنة ما زال يحظى بأهميّة دلاليّة متميّزة بين الآلاف من مصادر علم الدلالة القديم ووثائقه؛ فقد أُلّف هذا الكتاب في وقت قريب جدًّا من تأليف أفلاطون (347-427 قبل الميلاد) محاوراته وتدوينه كتابه (الجمهورية) وتدوين أرسطو (384-322 قبل الميلاد) نقده الدلاليّ حول فنون القول كلّها في كتابيه: (الخطابة) و(فنّ الشّعْر)، وما زال علم الدلالة الحديث يعتمد على كثير من آراء أفلاطون وأرسطو ولا سيّما في تنظيرهما حول علم الدلالة، واعتنائهما بالدالّ والمدلول والمرجع في جهودهما الدلاليّة التّطبيقية.

كشفت كتاب (كليلة ودمنة) عن جنكة دلاليّة كبيرة، اعتمدها فيلسوف الهند ديبيا في وعظه السّياسيّ بأسلوب شيق ورشيق على السنّة الحيوانات، ناهيك عن أهميّة هذا الكتاب التّاريخيّة والدلاليّة؛ حيث تأتي قيمته التّاريخيّة من عصره ذاته، ومن إشارة مقدّمة الكتاب إلى أنّ ذا القرنين لقّب الإسكندر المقدونيّ؛ وهذا يقودنا إلى قصّة ذي القرنين في القرآن الكريم أيضًا. في حين ترتبط القيمة الدلاليّة الكبيرة لهذا الكتاب بقضايا التّرجمة من لغة إلى أخرى من لغات العالم القديم المتعدّدة؛ حيث تُعد التّرجمة من أهمّ قضايا علم الدلالة الحديث، فقد تُرجم هذا الكتاب من الهندية القديمة إلى المهلوية أو الفارسيّة القديمة، ثمّ تُرجم من المهلوية إلى العربيّة في أواخر العصر الأمويّ وبدايات العصر العبّاسيّ.

د- التّرجمة السّبعينيّة للتّوراة أو العهد القديم:

دوّن الأخبار اليهود كتاب (العهد القديم أو التّوراة) في القرن السّادس قبل الميلاد بين (581-539 قبل الميلاد) تحديداً، وكتبوا أسفاره الأولى باللّغة الآراميّة وبالخطّ الآراميّ المربّع، "وقد استفادوا من العقائد والآداب السّائدة في بلاد الرّافدين، فأنشؤوا منها عقيدتهم في الخلق، كما انتحلوا نسبًا لإبراهيم الخليل عليه السّلام باعتباره النّبيّ الأوّل الّذي طوّر مفاهيم العقائد الرّافديّة القديمة، ونادى بها، مؤمناً بالرّبّ إيل، ربّ السّماوات والأرض، الّذي كان معبودًا من جميع الأقبام القديمة"⁴⁰. وقد أثبتت الاكتشافات الأثريّة شهماً شديداً بين (الإينوما إيليش؛ أسطورة الخلق البابليّة) وسفر التّكوين التّوراتيّ، مع

⁴⁰ - بهنسي، عفيف، وثائق إيبلا، منشورات وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ، ط1، دمشق، 1984م، ص100.

تطوّر في بعض المعتقدات من جانب، وانتقال من التّدوين باللّغة الأكديّة والخطّ المسماريّ إلى التّدوين باللّغة الآراميّة والخطّ الآراميّ من جانب آخر⁴¹.

ثمّ حظيت التّرجمة السّبعينيّة للعهد القديم بمكانة كبيرة منذ ظهورها في القرن الثالث قبل الميلاد؛ ولم تزل تلك التّرجمة تحتفظ بأهمّيّتها حتّى وقتنا الرّاهن؛ وذلك لأنّها من أقدم التّرجمات العالميّة والوثائق الدّلاليّة الّتي أعتمدت في الدّراسات اللاهوتيّة والتّاريخيّة والسّياسيّة والأدبيّة واللّغويّة المقارنة في العالم كلّه. وإن كان نشاط الدّراسات الدّلاليّة والبلغيّة العربيّة يرجع في قسم كبير منه إلى الاهتمام بالقرآن الكريم، فإنّ التّرجمة السّبعينيّة للعهد القديم تقع في مركز دائرة علم الدّلالة القديم؛ نظرًا لأهمّيّتها من نواحٍ متعدّدة؛ ولأنّها تّرجمت نصوصًا دينيّة ساميّة من العبريّة القديمة إلى اللّغة اليونانيّة في زمن اقترنت فيه اللّغة العبريّة القديمة من الرّوال أو الاندثار والنّسيان، وقد سُمّيت تلك التّرجمة بالسّبعينيّة؛ لأنّها أنجزت في اثنين وسبعين يومًا من قبل اثنين وسبعين كاهنًا؛ جميعهم من الأسباط الاثني عشر، وقد شارك ستّة مترجمين من نسل كلّ سبط من الأسباط الاثني عشر، وكان أليعازر كاهن القدس الأكبر على رأس أولئك الأسباط الّذين أنجزوا التّرجمة السّبعينيّة.

تُشبه قصّة إنجاز التّرجمة السّبعينيّة قصّة تأليف كتاب (كليلا ودمنة) وترجمته من الهنديّة إلى المهلويّة إلى حدّ ما، ويبدو أنّ هذه التّرجمة تتجاوز ترجمة كتاب (كليلا ودمنة) في الأهمّيّة من نواحي الدّراسات المقارنة في الدّين واللاهوت والسّياسة وفلسفة التّاريخ وفقه اللّغة؛ فقد رفع ديمتريوس أمين مكتبة الإسكندريّة الشّهيرة تقريره "إلى سيّده الإمبراطور بطليموس فيلاديلفوس الثّاني (247-285 قبل الميلاد) مفاده أنّه قد ضمّ إلى المكتبة تسعمئة وخمسة وتسعين كتابًا، تمثّل أعظم الكتب العالميّة الّتي تحتوي مختلف الأداب القوميّة، إلّا أنّ أعظم خمسة كتب من كلّ هذه المجموعة غير موجودة في مكتبته، وهي الكتب الخاصّة بالقانون اليهوديّ (ويعني بها أسفار موسى الخمسة أو التّوراة)، وقد أضاف أمين المكتبة: إلّا أنّ هذه الكتب في حاجة إلى ترجمتها إلى اليونانيّة أوّلًا. واستجاب الإمبراطور على الفور لهذا الطّلب، وأرسل مبعوثين كان أريستياس من بينهم إلى إليعازر الكاهن الأكبر في القدس يطلب منه إرسال نسخ من هذه الكتب مع رجال أكفاء للقيام

⁴¹ - ينظر: وثائق إيبلا، ص 101-102.

بالترجمة؛ فأجابه أليعازر، وأرسل إليه اثنين وسبعين رجلاً؛ ستة من كل سبط من الأسباط الاثني عشر وكان هو على رأسهم مع نسخة من التوراة"⁴².

أستقبل الأسباط المترجمون استقبالاً رسمياً، وجعل لكل واحد منهم كاتب يوناني حاذق، ونقلهم بطليموس إلى جزيرة فرعون القريبة من الإسكندرية، ومنعهم من الاجتماع فيما بينهم؛ فأقام الأسباط المترجمون اثنين وسبعين يوماً، وأنجزوا ترجمتهم، التي كتبها ديمتريوس، ووافق الأسباط عليها، وقُرئت على المجتمع اليهودي، الذي اعتبرها ترجمة مقدسة، ثم أشتهرت فيما بعد باسم الترجمة السبعينية. ويُقر معظم الباحثين أن الترجمة السبعينية لم تكن من العبرية إلى اللغة اليونانية الأدبية القديمة وإنما تُرجمت إلى اليونانية المشهورة باسم KOINE، وهي لغة منحدره من لغات أثينا القديمة المسماة أتيك Atic، وقد أثرت لغة الأتيك في كل من اللهجات التي نشرها الإسكندر المقدوني في المشرق ولغة الحديث اليومي الكوين KOINE، التي راحت تتقدم حتى سادت في تلك الأيام؛ فصارت مع مرور الوقت لغة الآداب والأحاديث اليومية معاً، واشتملت تلك اللغة على تلوينات وتأثيرات سامية "ساعد عليها بلا شك الهدف الأساسي الذي قامت من أجله الترجمة التي لم تهدف إلى نقل نص عبري إلى لغة يونانية أدبية بقدر ما هدفت إلى توصيل معاني النصوص الدينية وتيسير العبادات وتقريب المعاني قدر الإمكان إلى أذهان تلك المجموعة اليهودية التي نسيت لغتها العبرية الأصلية، وذلك باستخدام كل الطرق الميسرة والمسموح بها في اللغتين المنقول منها وإليها"⁴³.

تضعنا الترجمة السبعينية برغم قدمها وانتمائها إلى إنجازات علم الدلالة القديم أمام مسائل مهمة، تُعد اليوم من أهم القضايا الدلالية المعاصرة، التي يهتم بها كل من فقه اللغة المقارن وعلم الدلالة الحديث؛ كترجمة روح النص ومدى كفاءة النص المترجم الجديد وقدرته على نقل المعنى الأصلي ومقدار تحولات الدلالة قبل الترجمة وبعدها بالإضافة إلى تأثير هذه اللغة أو تلك من اللغات القديمة أو الحديثة في اللغات المجاورة لها أو القريبة منها من خلال اختلاط الشعوب أو تعايشها الثقافي أو اللغوي وغير

⁴² - ناظم، سلوى، الترجمة السبعينية للعهد القديم بين الواقع والأسطورة، طبعة بدون تاريخ مودعة بدار الكتب في القاهرة برقم 88/8598، ورقم الإيداع الدولي 977/238/37/4، ص 17.

⁴³ - الترجمة السبعينية للعهد القديم بين الواقع والأسطورة، ص 44.

ذلك من العوامل المتعددة، وكفي أن نشير إلى تفاقم المزايدات على أمانة الأب ريشار سيمون (Richard Simon) (1638-1712م) حين أعاد النظر في الترجمة السبعينية؛ التي لم يهدأ النقاش حولها والتراشق بأطراف التهم بين المتنازعين بسببها، فقد حدثت مشادات كلامية لا تُحصى بين اليهود والمسيحيين من جانب وبين الطوائف المسيحية المختلفة فيما بينها من جانب آخر؛ "ما استدعى عملية تصحيح للترجمات استغرقت عدة قرون، وأسفرت على إثر انعقاد المجتمع التريدانتيني عام 1546م عن إعلان (الفولغاتا) (La Vulgate) وحدها ترجمة قانونية. ولما [أسست] جمعية (الأور اتوار) بعد قرن ونيف بتشجيع من التيار المناهض للإصلاح، وكان يتعين على أعضائها، بالتالي، تأييد هذا الاتجاه دون ما عداه، فقد أخفق الأب سيمون في الإقناع بقراءته التحديثية، ولم يكذب بوسويه (Bossuet) (1627-1704م) يمسك بكتاب (التاريخ النقدي للعهد القديم)، ويستعرض فهرس فصوله حتى اتخذ القرار يوم خميس الأسرار في السابع من نيسان/أبريل عام 1678م بإرسال هذا الكتاب إلى المحرقة. فأبى كلام جسور تُراه قرأه فيه حتى اعتبره مجموعة زندقا ومعتقاً للفسق؟ لم يقرأ بوسويه في الواقع إلا ما كان سيمون قد استهل به الفصل الخامس من بابه الأول منوهاً (ببراهين على إضافات وتغييرات طارئة على النص الكتابي ولا سيما أسفار الشريعة الخمسة)، التي يُستبعد أن يصح في شخص موسى [عليه السلام] -جميع ما نسبته إليه من قول وفعل، (ذلك فضلاً عن أمثلة أخرى كثيرة). وهكذا فما كاد هذا الكتاب يبصر النور حتى [وُضعت عليه اليد، وأُحرقت] نسخه بالكامل، قبل أن يُصار إلى إبلاغ الأب سيمون في الحادي والعشرين من شهر أيار/مايو من العام نفسه قراراً يقضي بفصله نهائياً عن جمعية (الأور اتوار)"⁴⁴.

ومها يكن من أمر الترجمة السبعينية يؤكد حديثنا الموجز عنها أهمية علم الدلالة القديم وما يتفرع عنه من قضايا دلالية مهمة ترتبط بالتأويل والترجمة وتحولات المعنى من سياق إلى آخر، وقد سلطت هذه الإشارة الموجزة الضوء على أهمية ترجمة النص اللغوي من لغة إلى أخرى عموماً، وبيّنت أهمية الترجمة السبعينية على وجه الخصوص، وتبقى هذه الإضاءة على الترجمة السبعينية إشارة موجزة، لا تغني عن العودة إليها والاطلاع على الدراسات الدلالية المتعددة حولها بوصفها عملاً دلاليًا تطبيقيًا يدلّ

⁴⁴ - لغات الفردوس، (أريون وساميون: ثنائية العناية الإلهية)، ص 73-74.

على ازدهار علم الدلالة القديم، ويكشف عن تطبيقاته المتطورة_ حتى وإن لم يُستخدم هذا المصطلح بحَرْفِيَّتِهِ_ في مجال دراسة المعنى وتأويل الدَوَالِّ والمدلولات في سياقاتها ونقل ذلك المعنى المؤوَّل من لغة إلى أخرى في مرحلة تاريخية قديمة تسبق بألفي سنة إحياء علم الدلالة الحديث وازدهاره بتأثير مباشر من ازدهار فقه اللغة المقارن ووثيقة وليام جونز حول الأصول واللغات الهندو_أوروبيَّة.

ج- جَمْعُ الْقُرْآنِ بَيْنَ التَّدْوِينِ وَمَنْهَجِ عِلْمِ الدَّلَالَةِ الْحَدِيثِ:

شكَّل تاريخ القرآن الكريم ودراساته المتعددة مصدرًا مهمًا من مصادر علوم البيان والبلاغة والأسلوب وفقه اللغة المقارن في مجال الدراسات العالمية كلها، والعربية منها على وجه الخصوص، ولربما يصبح في المستقبل كلَّ خبر من أخبار جمع القرآن الكريم وتدوينه وتلاوته وإعرابه وتأويله علمًا قائمًا بذاته، على النحو الذي تتشعب فيه علوم القرآن، ويتسع مجالها يومًا بعد آخر، وسنورد في هذه الفقرة الأخيرة من البحث حديثًا عن جمع القرآن الكريم وتدوينه؛ لنسلط الضوء على هذا الحدث المهم وتأثيراته الكبيرة في ميادين علوم الدلالة كلها؛ قديمة وحديثة.

أشرتُ في أكثر من موقع في هذا البحث_ إلى أهميَّة التَّرْجِمَةِ ومركزيَّتها في علوم الدلالة؛ قديمة وحديثة، ولعلَّ ملازمة زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه رسول الله مع إجادته اللغة العبرية أو السريانية تقع بين أهم الأسباب التي جعلته واحدًا من كتبة الوحي في عهد رسول الله صلى عليه وسلّم، وعضوًا من لجنة جمع القرآن الرباعية في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقد جاء في كتاب المصاحف للسجستاني الحنبلي: "حدَّثنا عبد الله، وحدَّثنا عيسى بن عثمان بن عيسى، قال: حدَّثني عمِّي يحيى بن عيسى، عن الأعمش عن ثابت بن عبيد، عن زيد بن ثابت، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (إنَّها تأتيني كتبٌ لا أحبُّ أن يقرأها كلُّ أحد، هل تستطيع أن تتعلَّم كتابَ العبرانية؟ أو قال: السُّريانية؟ فقلت: نعم، فتعلَّمتها في سبعة عشر يومًا)"⁴⁵.

⁴⁵ - السَّجِسْتَانِي الحنبلي، أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث المعروف بابن أبي داود، كتاب المصاحف، دراسة وتحقيق ونقد: الدكتور محبِّ الدِّين عبد السَّجَّان واعظ، دار البشائر الإسلامية، ط2، بيروت، 2002م، ج1، ص143.

شارك زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه في جمع القرآن الكريم وتدوينه، وبعد اتساع رقعة الفتوحات الإسلامية اختلف الناس حول تلاوة بعض ما وصلهم من القرآن الكريم عن طريق الصحابة أو الصحف، فخيبت الفتنة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ فأمر أن يُجمع الناس على مصحف واحد؛ لئلا يختلفوا؛ فابتدعوا في كتاب الله، وبتفرقوا، وقد روى البخاري حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه قال: إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان رضي الله عنهما، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى؛ فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردّها إليك؛ فأرسلت بها حفصة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ولعلّ انتباه عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أهميّة تعدّد اللهجات بين قريش في مكّة والأنصار في المدينة المنورة جعله يؤكّد على أهميّة وجود زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه في لجنة جمع القرآن الكريم الرباعيّة التي تألّفت من ثلاثة قرشيّين؛ هم: عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، رضي الله عنهم، ورابع أنصاريّ مدنيّ، هو زيد بن ثابت الأنصاريّ رضي الله عنه، وقد قال عثمان بن عفان رضي الله عنه لأعضاء اللجنة: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربيّة من عربيّة القرآن فاكتبوها بلسان قريش، فإنّ القرآن أنزل بلسانهم"⁴⁶.

والحق أنّ جمع القرآن الكريم في المصحف العثمانيّ لم يحفظ الدّكر الحكيم وحسب، وإنّما حفظ اللّغة العربيّة أيضًا؛ حيث قال المولى عزّ وجلّ: (إنّا نحن نزلنا الدّكر وإنّا له لحافظون)⁴⁷، وقد ازدادت المادّة اللّغويّة المحفوظة من أصول اللّغة العربيّة الفصحى مع إعجام القرآن بالشّكل والتنقيط⁴⁸ وجمع الحديث النبويّ الشّريف وتدوينه في الكتب الصّحاح السّنة: صحيح البخاريّ، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وجامع الترمذيّ، وسنن النسائيّ، وسنن ابن ماجه، وهذه المادّة اللّغويّة الوفيرة تقدّم لنا خدمات

⁴⁶ - كتاب المصاحف، ج1، ص200.

⁴⁷ - سورة الحجر، الآية 9.

⁴⁸ - يُنظر: الخطيب، عبد اللّطيف محمّد، أصول الإملاء، دارالعروبة، ط4، الكويت 2011م، ص 14.

جلیلة فی فقه اللّغة المقارن وعلوم الدّالة کلّها، وتساعدنا علی تتبّع مسار التحوّل الرّمزیّ والتطوّر الدّلالیّ فی اللّغة العربیّة من خلال مقارنة النّصوص المدوّنة فی عصر الرّسول - صلی الله علیه وسلّم - والخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - بنصوص أخرى دُوّنت قبلها فی عصور قديمة أو کُتبت بعدها فی العصور اللاحقة لها؛ وبهذه المقارنة نتبّع کثیراً فی التطوّرات الشّکلیّة علی مستوى الخطّ، وتحوّلات الدّالة علی مستوى المعنی أو المضمون⁴⁹؛ ولهذا کلّه ظلّ القرآن الکریم وتدوینة يحظیان بعناية الدّارسین عربیاً ومستشرقین نظراً لأهمّیّته البالغة علی مستوى التدوینات الّتی رافقت ظهور الشّرائع السّماویّة، أو تلتها.

لقد شكّل نظم القرآن الکریم ظاهرة لغویّة فريدة فی علوم الدّالة وعلوم النّصّ والبلاغة والأسلوب والأجناس الأدبیّة؛ فالقرآن الکریم لیس بالشّعر الموزون المقفی، ولا یشبهه، ولا بالتّر الفنیّ، الّذی یتمیّز منه؛ إنّه وحیّ منزلٌ من السّماء، وصفه بلاشیر بأنّه الحدّث، وهو الظّاهرة كما قال عنه مالک بن نبی⁵⁰. ولعلّ رقیّ الظّاهرة القرآنیّة علی مستوى الشّکل والمضمون یکشف لنا جانباً مهمّاً من جوانب التّعارض والاختلاف فی الرّأي حول صعوبة وضع الحدود بین الأجناس الأدبیّة، والمخاطر المحتملة أو المترتبة علی هدم الحدود الفاصلة بین أجناس القول اللّغویّ (شعراً ونثراً).

یبو لنا أنّ علم الدّالة القديم اشتمل علی مواضع علم الدّالة الحدیث ومجالاته کلّها؛ بدءاً من النّقاش حول أصل اللّغة وطرق وضع العلامات اللّسانیّة أو تسمية المدلولات برموز ودوالّ مناسبة لها محاكاة لأصوات الطّبیعة أو اعتباراً محضاً، ومروراً بتدوین الجداریات البسيطة الّتی رغب أصحابها أن یقولوا شیئاً ما من خلال تدوینها، ثمّ وصولاً إلى اختراع الكتابة وتدوین أشهر الوثائق الدّلالیّة العالمیّة القديمة؛ كالشّرائع والقوانين والمعاهدات والاتّفاقیات السّیاسیّة والمراسلات الدّبلوماسیّة والإخوانیّة وتالیف الكتب والمعاجم اللّغویّة الّتی ساعدت علی ترجمة أشهر الأعمال الفنیّة والأدبیّة والرّسائل والمعاهدات الدّبلوماسیّة من لغة إلى أخرى، وكشفت هذه المؤشّرات

⁴⁹ - ينظر: ولفنسون، إسرائيل، تاريخ اللّغات السّامیّة، منشورات لجنة التّالیف والترجمة والنّشر ومطبعة الاعتماد، ط1، القاهرة 1929م، ص 7-8.

⁵⁰ - ينظر: ویس، أحمد محمّد، ثانیة الشّعر والنّثر فی الفكر النّقدی (بحث فی المشاکلة والاختلاف)، منشورات وزارة الثّقافة، ط1، دمشق 2002م، ص 247، 248، 239.

والوثائق الدلالية المتعددة عن ازدهار علم الدلالة القديم، الذي برهن بدوره على انتشار الحريّات الثقافيّة والدّينيّة واللّغويّة بين حضارات العالم القديم، وصاغ أبناء تلك الحضارات القديمة أركان علم الدلالة القديم، وأسّسوا منهجيّته العلميّة الصّرفة بعيداً عن العنصريّة أو الأيديولوجيا المقيّنة برغم تعدّد ثقافتهم، وتنوّع لغاتهم وأعرافهم وأديانهم وعاداتهم وتقاليدهم وتراثهم.

خاتمة البحث ونتائجه:

كشف البحث في علم الدلالة القديم عن تنوّع مصادره وانقسامها إلى مرويات شفويّة ولقى أثرية ومدوّنتات كتابيّة، وأثبتت مصادر علم الدلالة القديم، التي وقفنا عندها في هذا البحث عراقا علم الدلالة وأصالته وقدمه قديم الإنسان نفسه، ولا سيّما لدى شعوب العالم القديم من مؤسّسي أشهر الحضارات العالميّة القديمة في الهند وفارس والعراق وسوريا ومصر واليمن والجزيرة العربيّة واليونان...، مثلما تأكّدت عالميّة هذا العلم وعلمانيّته وإنسانيّته أيضاً؛ لأنّه علم نشأ لخدمة بني الإنسان كلّهم، ولا سيّما في مجال التواصل وفهم المعاني وتأويل الأحاديث وتدوين النصوص؛ بغضّ النظر عن أعراف المؤرّلين أو أجناس المدوّنين ولغاتهم ودياناتهم، وتبيّن لنا أنّ دراسات فقه اللّغة المقارن في العصر الحديث بعد وثيقة وليام جونز حول الأصول الهندو-أوروبيّة أحيّت علم الدلالة القديم، وأدّت إلى زيادة الاهتمام بعلم الدلالة الحديث؛ لكنّها أسفرت عن نتائج عنصريّة أحياناً، ودفعت بعض الباحثين في أحيان أخرى إلى القول بحدائثة نشأة علم الدلالة، وأخذ كثير من الدارسين المعاصرين يردّدون تلك الأحكام المتعجّلة في كثير من المؤلّفات الدلالية المعاصرة على أنها مسلمات لا تقبل النّقد أو النّقاش.

أثبت البحث التّأصيلي في ميدان علم الدلالة القديم أنّه يحتوي على قضايا علم الدلالة الحديث كلّها؛ كمسألة الاصطلاح على العلامات اللّسانيّة أو وضع دوالّها ومدلولاتها والاهتمام بمراجعها وسياقاتها، ولا سيّما خلال ترجمة الكتب والنصوص والوثائق المهمّة من لغة إلى أخرى، مثلما تبيّن أنّ علم الدلالة القديم عني بثنائيّة المنطوق والمكتوب وفرّق بينهما، واهتمّ بدراسة العلاقة بين شكل العلامة اللّسانيّة ومضمونها، وظهر لنا أنّ معظم ما استشهدنا به في دراساتنا الدلالية القديمة يقع في حيّز المكتوب من

التّصوّص؛ وذلك لأنّ مجمل التّصوّص والأناشيد المنطوقة القديمة ذهبت، وذهب قائلوها ومنشدها أدراج الرّيح.

تفرّد القرآن الكريم من بين مصادر علم الدّلالة القديم، الّذي تعهّد الله سبحانه وتعالى بعنايته وحفظه في الصّدور؛ فوصلنا منقولاً بالتّلاوة المتواترة عن رسولنا الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم من مطلع القرن السّابع الميلاديّ إلى وقتنا الرّاهن. وحظي بعض من نصوص الأدب الشّفويّ وأناشيد التّراث والفولكلور الشّعبيّين بشيء من الحفظ والرّواية الشّفويّة، ولم يُضربها جهلنا بأسماء مؤلّفيها الأصليّين، ومع ذلك تناقلتها الأجيال شفويّاً جيلاً بعد جيل حتّى وصلتنا في عصرنا الرّاهن، ولربّما ترجع تلك التّصوّص إلى مئات السّنين، إن لم نقل: إنّها ترجع إلى آلاف السّنين، وبرغم معرفتنا بما تتعرّض له نصوص الأدب الشّفويّ من تحويرات مستمرة على الدّوام يمكن أن تصير هذه التّصوّص الشّفويّة في المستقبل مصدرًا مهمًّا من مصادر علم الدّلالة القديم، لا سيّما بعد تطوّر آلات التّسجيل وتقنيّات الدّراسة في ميدان علم الدّلالة الحديث، ولعلّنا سمعنا من أجدادنا كثيرًا من نصوص تراثنا القديم، مثلما نعثر في الشّبكة العنكبوتيّة الإلكترونيّة على نصوص هذه الأغنيات والأهازيج مسجّلة بالصّوت أو بالصّورة والصّورة بأداء كثير من المغنّين أو المنشدين بوصفها تراثًا شعبيًّا مثل (الموليّا والدّلّعون وأهازيج النّساء في الأعراس وغيرها...⁵¹).

⁵¹ - ينظر: ديّوب، سمر، النّصّ العابر (دراسات في الأدب العربيّ القديم)، منشورات اتحاد الكتّاب العرب،

ط1، دمشق 2014م، ص 161-163.

ثبت المصادر والمراجع:

- 1- القرآن الكريم.
- 2- أولنّدر، موريس، لغات الفرْدوس، (آريّون وساميّون: ثنائيّة العناية الإلهيّة)، ترجمة: جورج سليمان، مراجعة: سميرة ريشا، المنظّمة العربيّة للترجمة، ط1، بيروت 2007م.
- 3- بالمر، فرانك، مدخل إلى علم الدّلالة، ترجمة: خالد محمود جمعة، مكتبة دار العروبة للنّشر والتّوزيع، ط1، الكويت 1997م.
- 4- بهنسي، عفيف، وثائق إيّبالا، منشورات وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ، ط1، دمشق، 1984م.
- 5- الجميليّ، عامر عبد الله، الكاتب في بلاد الرّافدين القديمة، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، ط1، دمشق 2005م.
- 6- حنّون، نائل، شريعة حمورابي (ترجمة النّصّ المسماريّ مع الشّروحات اللّغويّة والتّاريخيّة)، دار المجد للطباعة والنّشر، ط1، دمشق 2005م.
- 7- الخطيب، عبد اللّطيف محمّد، أصول الإماء، دار العروبة، ط4، الكويت 2011م.
- 8- الدّاية، فايز، علم الدّلالة العربيّ (النّظرية والتّطبيق، دراسة تاريخيّة، تأصيليّة، نقدية)، منشورات دار الفكر، ط2، دمشق 1996م.
- 9- ديبيا، كليلة ودمنة، ترجمة: روضة بن داؤبه المشهور بعبد الله ابن المقّع، منشورات مكتبة زهران، ط1، القاهرة 2005م.
- 10- ديّوب، سمر، النّصّ العابر (دراسات في الأدب العربيّ القديم)، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، ط1، دمشق 2014م.
- 11- السّجستانيّ الحنبليّ، أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث المعروف بابن أبي داود، كتاب المصاحف، دراسة وتحقيق ونقد: الدّكتور محبّ الدّين عبد السّجّان واعظ، دار البشائر الإسلاميّة، ط2، بيروت، 2002م.
- 12- عمر، أحمد مختار، علم الدّلالة، منشورات عالم الكتب، ط7، القاهرة 2009م.

- 13- فخري، أحمد، دراسات في تاريخ الشرق القديم: (مصر والعراق-سوريا-اليمن-إيران-مختارات من الوثائق التاريخية)، مكتبة الأنجلوالمصرية، ط2، القاهرة 2001م.
- 14- فخري، أحمد، مصر الفرعونية (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام 332 قبل الميلاد)، منشورات مكتبة الأسرة والهيئة المصرية للكتاب، ط1، القاهرة 2012م.
- 15- الكاطع، سامر، بلاغة الدعاء في الأدب الشعبي المارديني، مقال في كتاب: الأدب الشفهي العربي في ماردين، تحرير: أحمد عبد الهادي أوغلو، دار كريتار، ط1، اسطنبول، 2019م.
- 16- مجموعة من المؤلفين: (سيلفان أورو، جاك ديشان، جمال كولوغلي)، فلسفة اللغة، ترجمة وتقديم: بسام بركة، مراجعة: ميشال زكريا، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت 2012م.
- 17- ناظم، سلوى، الترجمة السبعينية للعهد القديم بين الواقع والأسطورة، طبعة بدون تاريخ مودعة بدار الكتب في القاهرة برقم 88/8598، ورقم الإيداع الدولي 977/238/37/4.
- 18- هراي، يوفال نوح، العاقل (تاريخ مختصر للتويع البشري)، ترجمة: حسين العبري، صالح بن علي الفلاحي، دار منجول للنشر، ط1، نيودلهي، الهند 2018م.
- 19- ولفنسون، إسرائيل، تاريخ اللغات السامية، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر ومطبعة الاعتماد، ط1، القاهرة 1929م.
- 20- ويس، أحمد محمد، ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي (بحث في المشكلة والاختلاف)، منشورات وزارة الثقافة، ط1، دمشق 2002م.

البحث السابع

مفهوم شرف المعنى في مدونة النقد العربي القديم

د. سامر عبد الصمد الكاطع

أستاذ مساعد في جامعة ماردين آرتوقلو، كلية الآداب، قسم اللغة العربية

مفهوم شرف المعنى في مدونة النقد العربي القديم

د. سامر عبد الصمد الكاطع*

الملخص

خصَّ معظمُ النقاد العرب القدماء صفةً (الجودة) بالمعنى دون اللفظ، لكنهم لم يُحدِّدوا قواعدَ جودة المعنى؛ لأن المعاني كثيرة متشعبة، واستقصاء درجات الإجابة فيها عسيرُ الطَّلَب؛ لذلك ظَلَّتْ مقاييسُ نقدِ المعنى مبادئَ عامَّة ضُمَّتْ ملاحظات نقاد المعاني كلِّها، وقد حاولنا في ثنايا هذا البحث الوقوف على مفهوم شرف المعنى بوصفه واحداً من أهمِّ مقاييس جودة المعاني، ورصدنا أقوال النقاد وفهمهم لهذا المصطلح ووضحنا مقاصده وكيفية تحقُّقه.

وخلص البحث إلى نفي الصلة المتوهَّمة بين شرف المعنى والجانب الخلقى أو الديني، فقد فصل النقاد دائماً بين الشعر والأخلاق، وجعلوا مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة مقتضى الحال وما يجب لكل مقام من المقال، ومن أكبر أسباب الشرف أن يكون المعنى مُبتكراً غير مسبوق، أو أن يكون مثلاً سائراً أو بيتاً مُقلِّداً، ومن مقاصد شرف المعنى أيضاً تصوير المعنى (المثال) أو الأنموذج، أي وصفُ الشيء في أسهى معانيه وأشرف حالاته، أو بما يجب أن يكون عليه، فإذا تحققت للمعنى هذه السمات صار شريفاً.

الكلمات المفتاحية: جودة المعنى، شرف المعنى، الصواب، المعنى المُبتكَّر، المعنى المثال

* Dr. Öğr. Üyesi, Samer KATEA, Mardin Artuklu Üniversitesi, Edebiyat Fakültesi, Arap Dili ve Edebiyatı Bölümü. samerkatea@artuklu.edu.tr
<https://orcid.org/0000-0001-8666-3988>

ESKİ ARAP ELEŞTİRİSİNDE MANANIN ŞEREFİ MEFHUMU

ÖZET

Bu araştırma eski Arap eleştirisinde anlamların kalite ölçütlerinden biri üzerinde duracak, oda mananın şerefi mefhumudur. Bunu tahkik etmek için bu terimden ne anladıklarını, bundan ne kast edildiğini ve nasıl gerçekleştiğine dair eleştirilenlerin sözlerini zikrettik.

Araştırma mananın şerefi ile dini ve ahlaki boyut arasındaki şüpheli bağın ortadan kaldırılmasıyla neticelenir. Eleştirilenler daima şiir ile ahlak arasını ayırmışlardır, ancak aşağıdaki şartların yerine getirilmesiyle mana şerefli olur: Doğruluk, açıklık, faydalılık veya duruma göre ve hangi makama hangi söz gerektiren alıcıya fayda sağlayan. Şerefin en büyük sebeplerinden biri eşi ve benzeri görülmemiş manayı tasvir edebilen yâda model (örnek) olabilecek yani her şeyi en güzel haliyle niteleyebilen bir yenilikçi olmasıdır.

Geçmiş olan şartlar gerçekleşirse manayı şeref ve yücelikle niteleyebiliriz.

ANAHTAR KELİMELER: Anlam kalitesi - Mananın şerefi- Doğru olan -Yenilikçi -Örnek

• توطئة: في مفهوم المعنى

يُعدُّ البحث عن المعنى وتقويمه أصلاً من أصول النقد العربي القديم، فما المراد

بالمعنى؟

تُستعمل كلمة المعنى غالباً للدلالة على الغرض الذي يقصد إليه المتكلم، يقول عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز: «إنَّ قولنا المعنى في مثل هذا يُرادُ به الغرضُ الذي أراد المتكلم أن يُثبته أو ينفيه»¹، ويصوغ حازم القرطاجني تعريفاً للمعاني بأسلوب أهل المنطق، فيقول: «إن المعاني هي الصُّورُ الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان...، فإذا عبّر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك، أقامَ اللفظُ المعبّرُ به

¹ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط.

هيئة تلك الصورة الذّهنية في أفهام السامعين وأذهانهم»². فمصطلح المعنى وفقاً لذلك: «يُرادف الفكرة العادية المجردة التي يتفنّن المبدع في صياغتها، ويستخلصها المتلقّي من صياغة المبدع، بعد تجريدها من حواشي الصياغة وزخارفها»³.

وقد اهتمّ النّقاد القدامى بالمعنى وألوه عنايتهم، باعتباره ركناً من أركان العملية الإبداعية، فهو: «رُوح الصنعة وعمدة البلاغة»⁴، لكنّ معظم أولئك النقاد لم يحدّدوا قواعد نقد المعنى، وعلّة ذلك كما يُفهم من مثل قول ابن سنان الخفاجي: «أمّا حصرُ المعاني بقوانين تستوعب أقسامها وفنونها... فعسيرٌ مُتعب،...لأنّه ثمرَةٌ عِلْم المنطق، ونتيجة صناعة الكلام»⁵. فاستقصاء درجات الإجابة في المعاني عسيرٌ الطّلب لا يمكن حصره: «لأنّ المعاني مبسّطة إلى غير غاية، وممتدّة إلى غير نهاية»⁶؛ فهي كثيرة ومتشعبة، وتختلف باختلاف عقول الناس ومداركهم، ولا سبيل إلى حصرها بقوانين تحدّها، لذلك ظلّت مقاييسُ نقدِ المعنى مبادئَ عامّة أبقت الباب مفتوحاً لدخول كل مؤاخذات النقاد حول المعنى تحت هذا الباب، ومن أبرز مقاييس نقد المعنى مفهوم شرف المعنى.

• شرف المعنى والأخلاق:

ليس المقصود بشرف المعنى ما قد يتبادر إلى الذهن لأوّل وهلةٍ من الناحية الأخلاقية، كأنّ يكون مما يحضُّ على فضيلة أو يدعو إلى خُلُقٍ كريم، وما شاكل ذلك، ولكنّ الواقع أنّ هذا أبعد ما يكون عن تصوّر النقاد العرب للمعنى الشّريف، فقد فصلّ النقاد دائماً بين الشعر والأخلاق من جهة، وبين الشعر والدين من جهة أخرى. فقد كان قومٌ منهم يُبيح للشاعر أن يتناول ما شاء من المعاني، يقول قدامة بن جعفر: «وممّا يجب توطيده وتقديمه، ... أنّ المعاني كلّها مُعرّضة للشاعر، وله أن يتكلّم منها فيما أحبّ وأثر،

² منهج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجيّ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986م، 19.18

³ الأصول، قراءة جديدة لثرائنا النقدي، تامر سلوم، دار الحقائق، دمشق، ط1، 1993م، 117

⁴ منهج البلغاء، 18

⁵ سرّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982م، 234، وينظر كذلك: نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1978م، 58. «ولما كانت أقسام المعاني... مما لا نهاية لعدده».

⁶ البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م، 76/1

من غير أن يُحظَر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعية، والشعر فيها كالصورة»⁷. فقدامة يترك الحرية للشاعر في انتقاء المعاني التي يُحبُّ، ويطلبه بالتجويد فيها بغضِّ النَّظر عن كونها رفيعة أو وضيعة، يقول: «وعلى الشاعر إذا شَرع في أي معنى كان، من الرفعة والضيعة، والرَّفث والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح والعصية، وغير ذلك من المعاني الحميدة والذميمة، أن يتوخَّى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة»⁸. ولذلك فإنَّه يقول مُعلِّقاً على أبيات امرئ القيس⁹: «فإني رأيتُ من يعيبُ امرأ القيس في قوله...، ويذكر أن هذا معنى فاحش، وليس فحاشة المعنى بنفسه ممَّا يُزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النِّجارة في الخشب مثلاً رداءته في ذاته»¹⁰.

ويبدو أنَّ قدامة يميل إلى عدم الرِّبط بين الشَّعر والأخلاق، ويتبعه في هذه النظرة القاضي الجرجاني الذي يفصل الشعر عن الدين أيضاً، وليس عن الأخلاق فقط، يقول: «فلو كانت الديانة عاراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخُّر الشاعر، لوجب أن يُمحي اسم أبي نواس من الدواوين، ويُحذف ذكره إذا عُدت الطبقات، ولكان أولاهمُ بذلك أهلُ الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر... ولكنَّ الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشَّعر»¹¹، فالمعنى الشريف لا صلة له أبداً بالجانب الأخلاقي الذي يفهم لأول وهلة، فما المقصود بشرف المعنى إذن؟

⁷ نقد الشعر، 19

⁸ نقد الشعر، 19، والعصية: المهتان والكلام القبيح.

⁹ ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، د.ط، 1958م، 12

فمثلك حُبلى قد طرقتُ ومُرضعاً فألهيئها عن ذي تمانم مُغَيِّل

إذا ما بكى من خلفها انحرفتُ له بشقيّ، وشقُّ عندنا لم يُحوِّل

والمُغَيِّل: المُرضعُ وأمه حبلَى، والرواية الأشهر للبيت بلفظ (مُحوِّل) بدل (مُغَيِّل)، ينظر: شرح القصائد

العشر، الخطيب التبريزي، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الأصبعي، حلب، ط2، 1973م، 44.43

¹⁰ نقد الشعر، ص21.20

¹¹ الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم

وعلي محمد الجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ط، 1966م، 64

• معايير شرف المعنى

لعلَّ آراء بشر بن المعتمر المدبَّجة في ثنايا صحيفته الشَّهيرة تأتي في مقدِّمة ما وصلنا من آراء حول مفهوم شرف المعنى؛ فقد تحدَّث فيها عن المعنى الشريف، فقال: «والمعنى ليس يَشْرُفُ بأن يكون من معاني الخاصَّة، وكذلك ليس يتَّضع بأن يكون من معاني العامَّة، وإنما مدار الشَّرْف على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، ومع ما يجب لكل مقام من المقال»¹²، فأمر شرف المعاني لا يعود إلى أنها مما يستخدمه الشُّرفاء من الناس، إنما شرفها بعلوِّها وتحقيقها للصواب والمنفعة وموافقة الحال.

أولاً: صواب المعنى ووضوح القصد:

والصوابُ شَرْطٌ لازمٌ للمعنى كما يقول العسكري: «وليس يُطلبُ من المعنى إلا أن يكون صواباً»¹³، ويتحقَّق الصواب في المعنى من خلال أدائه الغرضَ الذي يعالجه بوضوح، بأن: «يتلقَّى فهمُ السَّامع المعنى مُستغنياً به في استفادة الغرض الذي يُفاد به»¹⁴، دون زيادة أو نقصان، فيستحقُّ بذلك الحُسْن والشرف، يقول الجاحظ: «وأحسنُ الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه»¹⁵. فالمعنى الشريف هو الذي يُعبَّر أكثر من غيره عن القصد، على حدِّ قول قدامة: «جماعُ الوصف لذلك أن يكون المعنى مواجهاً للغرض المقصود، غير عادلٍ عن الأمر المطلوب»¹⁶.

وثمة نصٌّ للباقلاني يُعطي الوضوح فيه بُعداً آخر، يقول: «وإذا كان الكلام إنَّما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة في النفوس...، فما كان أقرب في تصويرها، وأظهر في كشفها للفهم الغائب عنها، ... كان أولى وأحقَّ بأن يكون شريفاً»¹⁷. فشرف المعنى مُقتَرَن بوضوح المغزى والإبانة عن القصد، بكلامٍ يفهمه من يسمعه ويُدرك جماله، ولكنه يجدُّ في نفسه

¹² البيان والتبيين، 136/1، وينظر: العُمدة في محاسن الشعر ونقده، في محاسن الشعر وأدابه ونقده، ابن

رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م، 213/1

¹³ كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل

إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط2، 1971م، 64

¹⁴ شرح المقدمة الأدبية لشرح المروزقي على ديوان الحماسة لأبي تمام، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق

ياسر المطيري، دار المنهاج، الرياض، ط1، 1431م، 106

¹⁵ البيان والتبيين، 83/1

¹⁶ نقد الشعر، 58

¹⁷ إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د.ط، 1954م، 180

قصوراً عن الإتيان بمثله، ولهذا قيل: «أجودُ الكلام السَّهْلُ الممتنع»¹⁸، فهو الكلام المُطْمَع: «الذي يَطْمَع في مثله مَنْ سمعه، وهو مكان النّجم من يد المتناول»¹⁹.

وقد وصفَ العسكريُّ رجلاً بالبلاغة، فقال: «هو أبلغُ الناس! ومن بلاغته أنّ كلّ أحدٍ يظنُّ أنه يكتب مثلاً كتبه، فإذا رامها تعدّرتُ عليه»²⁰، ولذلك أصبحت: «الإبانة ووضوح المعنى والقرب من أفهام الناس، مقياساً من أهم مقاييس اختيار النصوص ونقدها»²¹. فالمقصود بشرف المعنى، علوّه عن نظر متلقّيه علوّاً لا يُشكّل ولا يعتاص عليه: «ولعلّ المعاني الشعرية إذا كانت واضحة غير مباشرة في أدائها تسمّى شريفة»²².

ثانياً: فائدة المعنى

تُطلَق المعاني ويراد من ورائها الفائدة التي يحملها الكلام إلى ذهن السامع، وهي عند الأمدى أساس الكلام: «لأنّ الكلام إنّما هو مبنيٌّ على الفائدة في حقيقته ومجازه»²³، ويتحقق ذلك بأن يكون: «فيما يقوله الشاعر فائدة تُذكر، أو قيمة تستحق أن يُقال من أجلها، وذلك حين يُضيف الشعر شيئاً ذا بال إلى فكر السامع أو حسّته، فيُغنيه بفكرة جديدة أو قيمة طريفة»²⁴. وقد عدّ الجاحظُ فائدة الكلام من البيان: «لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان»²⁵. ولعلّ هذه الفائدة التي يحملها أو يؤدّيها المعنى الشريف تفعلُ فعلها في سمع المتلقي وبصيرته، يقول الجاحظ: «إذا كان المعنى شريفاً

¹⁸ كتاب الصناعتين، 67

¹⁹ الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط2، 1998م، 103، وينظر: كتاب الصناعتين، 67، حيث وصفَ الكلام بـ (المُطْمَع الممتنع).

²⁰ كتاب الصناعتين، 67

²¹ في نظرية الأدب عند العرب، حمّادي صمّود، دارشوقي، تونس، ط1، 2002م، 36

²² عمود الشعر، (مو اقع، ووظائفه، وأبوابه)، عبد الكريم حسين، دار النّوير، دمشق، ط1، 2003م، 229

²³ الموازنة بين شعراي تمام والبحثري، الأمدى، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د.ط، طبع

الجزء الأول سنة 1961م، 1/191

²⁴ قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم (ظهورها وتطورها)، وليد قصاب، المكتبة الحديثة، العين،

الإمارات العربية المتحدة، ط2، 1985م، 194

²⁵ البيان والتبيين، 76/1

واللفظ بليغاً...، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة»²⁶. وكذلك تتحقّق المنفعة أيضاً بقدرة الشاعر على إيصال المعنى المقصود إلى أذهان الآخرين: «بأحسن صورة يرى أنها تقع لدى السامعين موقعاً حسناً، يفى بمراد الشاعر، ويليق بالغرض الشعري»²⁷.

ثالثاً: موافقة المعنى لمقتضى الحال والمقام

ويتحقّق ذلك بوضع المعاني في موضعها الملائم، بحيث تكون موافقة للمقام الذي تُقال فيه، ومراعيةً لأحوال المستمعين وأقدارهم، يقول بشر بن المعتمر: «ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدارَ المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المُستَمِعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً»²⁸. ولذلك نجد اهتمام النقاد بمراتب المتلقين وطبقاتهم، وعلى الشاعر أو الناثر أن يراعي في كلامه كلّ طبقة، بما يشاكلها وتفهمه، يقول صاحب الصناعتين: «فأول ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك، مكاتبه كلّ فريق منهم على مقدار طبقتهم، وقوتهم في المنطق»²⁹.

ولعلّ خير دليل على ارتباط شرف المعنى بالحال المعبر عنها، أنّ نعوت المدح التي هي عند قدامة: العقل والشجاعة والعدل والعفة وسائر تركيباتها³⁰، تنقسم أقساماً بحسب الممدوحين من أصناف الناس في الارتفاع والانتضاع، وضروب الصناعات، والتبدي والتحضّر³¹، وبضدّ هذه الصفات يكون الهجاء³². فالناس طبقات، ولكل طبقة صفات إذا بلغتْها بلغتْ حسنها وكمالها، وهذا ما دفع قدامة إلى أن يُخصّص لكل طبقة معنى تُمدح به، وعلى الشاعر أن يكون عارفاً بمواقع القول ومقاماته وأوقاته، واحتمال المخاطبين له، ف: «يعطي كلّ قوم من القول بمقدارهم، ويوزنهم بوزنهم، فقد قيل: لكل مقام مقال»³³؛

²⁶ المصدر السابق، 83/1

²⁷ شرح المقدمة الأدبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة، 106

²⁸ البيان والتبيين، 139.138/1

²⁹ كتاب الصناعتين، 160

³⁰ ينظر: نقد الشعر، 68.66

³¹ نقد الشعر، 82

³² المصدر السابق، 92

³³ نقد النثر، قدامة بن جعفر، تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي، دار الكتب المصرية، القاهرة،

د.ط، 1933م، 85.

فشروط شرف المعاني إذن تختلف باختلاف محالّها من أغراض الكلام، من مدح أو هجاء أو إثارة حماس أو استعطاف أو غزل.

رابعاً: الابتكار والسّبق

ومن أكبر أسباب شرف المعنى أن يكون: «مُبْتَكراً غير مسبوق، ثم أن يكون بعضه مبتكراً وبعضه مسبوqاً، وبمقدار زيادة الابتكار على المسبوقية يدنو من الشرف»³⁴، إذ المعاني على نوعين: منها المعاني المشتركة الظاهرة، ولا يجوز: «أن يدّعي أحدٌ من الناس أنه ابتدعها واختراعها أو سَبَق إليها»³⁵، لأنّ: «الخواطر تأتي بها من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأوّل»³⁶، ويتساوى فيها الشعراء وليس أحدٌ أولى بها من غيره، وهي جارية في العادات وعلى الألسن، ومن أمثلة هذا النوع من المعاني: «تشبيه الطلّل المُحِيلِ بالخطّ الدارس...، والظُّعْنِ المتحمّلة بالنخل...، والفتاة بالغزال في جيدها وعينها، والمهابة في حُسْنِها وصفائها...»³⁷.

أمّا النوع الثاني من المعاني فهو المعنى المخترع، الذي: «يبتدعه صاحبُ الصناعة من غير أن يكون له إمامٌ يقتدي به فيه، أو رسومٌ قائمة في أمثلةٍ مماثلةٍ يعمَل عليها»³⁸، وهو: «خلقُ المعاني التي لم يُسبَق إليها، والإتيان بما لم يكن منها قطُّ»³⁹، ولدقّة مسلكه، وصعوبة مُرتقاه، كان: «مما ينتهي إليه المتكلّم بنظرٍ وتدبُّرٍ، ويناله بطلبٍ واجتهاد»⁴⁰، فمن اقتدر عليه من الشعراء دلّ على: «نفاذِ خاطرِه، وتوقُّدِ فكرِه، حيث استنبط معنى غريباً، واستخرج من مكامن الشعر سرّاً لطيفاً»⁴¹.

³⁴ شرح المقدمة الأدبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة، 106

³⁵ الموازنة، 328/1

³⁶ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،

المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، 1990م، 343/2

³⁷ الوساطة، 184-185، وينظر: المثل السائر 343/2

³⁸ كتاب الصناعتين، 75، وينظر: المثل السائر، 303/1

³⁹ العمدة 265/1

⁴⁰ أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، دارالمنشي، جدة، ط1، 1991م، 340

⁴¹ منهاج البلغاء، 194

ومن المعاني المخترعة المبتدعة قول الحارث بن خالد في الحماسة⁴² :

إني وما نَحروا غداةً مِنِّي عند الجمار يؤودها العُقل
لو بُدِّلت أعلى مساكنها سفلاً، وأصبح سفلاً يعلو
لَعرفْتُ مغناها بما ضمنتُ مَيَّ الضلوعُ لأهلها قَبْلُ
والمعنى: «أَنَّ صُورَ المنازل تَمَثَّلَتْ في القلوب، فإذا عَفَتْ آثارها لم تَعْفُ صُورُها من القلوب، وأوَّلُ مَنْ أتى بذلك العربُ، فقال الحارثُ بن خالد من أبيات الحماسة ...، ثم جاء المحدثون من بعده...، وحدِّثوا حدوه»⁴³، فقال المتنبي⁴⁴ :

لِكِ يا منازل في القلوب منازلُ أقفرتِ أنتِ، وهنَّ منكِ أواهلُ

وكذلك وردَ لبعضهم من شعراء الحماسة⁴⁵ :

أناخَ اللؤمُ وسطَ بني رياح مطيَّته، وأقسَمَ لا يريمُ
كذلك كلُّ ذي سَفَرٍ إذا ما تناهى عند غايته يُقيمُ
«وهذان البيتان من أبيات المعاني المبتدعة، وعلى أثرهما مثى الشعراء»⁴⁶، وكذلك وردَ قول عويف بن معاوية في الهجاء⁴⁷ :

قومٌ إذا ما جنى جانهم أمِنوا للؤمِ أحسابهم أن يُقتلوا قَودا
يعني أنهم لخصَّتهم ودناءتهم يأمنون من القصاص، لأنَّ أهل المقتول لا يجدون فيهم كُفئاً لقتيلهم.

ومن المعاني المبتدعة قول الطِّرَمَاح بن حكيم⁴⁸ :

لقد زادني حُباً لِنفسي أني بغيضٌ إلى كل امرئٍ غير طائل

⁴² الحماسة، أبو تمام الطائي، تحقيق عبدالله عسيلان، منشورات المجلس العلمي لجامعة الإمام محمد بن

سعود، السعودية، د.ط، 1981م، 39/2

⁴³ المثل السائر، 336/1

⁴⁴ ديوان المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، صحَّحه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي،

دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت، 249/3

⁴⁵ الحماسة، 226/2

⁴⁶ المثل السائر، 337/1

⁴⁷ المصدر السابق، 142/1

⁴⁸ الحماسة، 130/1

أخذه المتنبي فأحسنَ وأجاد في قوله⁴⁹ :

وإذا أتتكَ مذمَّتِي من ناقصٍ فهي الشهادة لي بأني كاملُ
ومن الغريب الطريف قول أبي خِراش الهذلي من شعراء الحماسة⁵⁰ :
ولم أدِرِ مَنْ ألقى عليه رداءه على أنه قد سُئلَ عن ماجدٍ مَحْضِ

وقد نال معنى هذا البيت استحسان كثير من النقاد، «وَحُكِي فيما رُوي عن الأصمعيّ وأبي
عبيدةَ أنّهما قالَا: لا نَعْرِفُ مَنْ مَدَحَ مَنْ لا يَعْرِفه غيرَ أبي خِراش»⁵¹.
ومن ذلك قول ابن المقفع في باب الرثاء من كتاب الحماسة⁵² :

فقد جَرَّ نفعاً فَقَدْنَا لك، أَتْنَا أمنا على كلِّ الرِّزَايا من الجَزَعِ
فمصيبة القوم بفقد هذا المرثيِّ جليلةٌ عظيمة، وكلّ مصيبة بعده هيّنةٌ يسيرة، إذ لا مثيل
له من قومه ولا نظير، فلا يُصابُ قومه بداهية عصماء تعادل فقده وموته.
ومن ذلك قول الأحنس بن شهاب من شعراء المفضليات يصف شجاعة قومه وجسارتهم
وإقدامهم نحو عدوّهم⁵³ :

وإنْ قَصَّرْتَ أسيافنا كان وصلها حُطّانا إلى القوم الذين نُضاربُ
ومن المعاني المبتدعة قول علي بن جبلة يذكرُ شدة كرم ممدوحه حميدُ بن عبد الحميد
الطُوسي، وبلوغه القاصي والداني، حتى كأنَّ أهلَ الأرض جميعاً عيالُه⁵⁴ :
تَكْفَلُ ساكِنِي الدُّنيا حُميدُ فقد أضحت له الدنيا عيالا
كأنَّ أباه آدمَ كان أوصى إليه أنْ يَعولهم فَعالا
فهذه الأمثلة وغيرها توحى أن المعنى المخترع النادر عُدٌّ أحدَ أسباب الحُكم على الشعر
بالأفضلية.

⁴⁹ ديوان المتنبي، 260/3

⁵⁰ الحماسة، 386/1

⁵¹ شرح ديوان الحماسة، 783/2

⁵² الحماسة، 416/1

⁵³ المفضليات، المفصل الضيّ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط3،

1964م، 207

⁵⁴ المثل السائر، 312/1

خامساً: المثل السائر والبيت المقلد

ومما يدخل ضمن شرف المعنى أن يكون مثلاً سائراً أو بيتاً مُقلداً: «والمقلد البيت المستغني بنفسه، المشهور الذي يُضربُ به المثل»⁵⁵، كقول الفرزدق في الحماسة⁵⁶:

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ كلاكه أناخَ بأخرينا
فقلْ للشَّامتين بنا : أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

وهذه الأمثال كثيرة في كلام العرب عامة على حدِّ قول ابن رشيق: «المثل السائر في كلام العرب كثيرٌ نظماً ونثراً، وأفضله أوجزه، وأحكمه أصدقُه»⁵⁷. وإنما جعل الشعرُ وعاءً لهذه الأمثال: «ليكونَ أشردَ له، وأخفَ للنطق به»⁵⁸، وكلِّما كان المثل موجزاً كان أجمل، وكذلك إذا احتوى البيت الواحد على أكثر من مثل عدَّ ذلك من الإجادة، كقول ضابئ بن الحارث⁵⁹:

وفي الشكِّ تفريطٌ، وفي الحزمِ قوَّةٌ ويُخطئُ في الحدسِ الفتى ويُصيبُ

ويُعجَب ابن رشيق بهذا البيت: «لأنَّ شطره الأول مشتملٌ على مثلين، وشرطه الثاني مشتملٌ على مثلٍ قائمٍ بنفسه»⁶⁰.

ومن ذلك أيضاً قول أبي قيس بن الأسلت الأنصاري⁶¹:

أسعى على جُلِّ بني مالك كلُّ امرئٍ في شأنه ساعٍ

قال الأصمعي: «الْبَصْفُ الآخرُ من هذا البيت من أحكم ما قالته العرب»⁶²، ومنه أيضاً قول أبي ذؤيب الهذلي في مرثيته الشهيرة⁶³:

⁵⁵ طبقات فحول الشعراء، 2/360.361

⁵⁶ الحماسة، 1/621

⁵⁷ العمدة، 1/280

⁵⁸ المصدر السابق، 1/282

⁵⁹ الأصمعيات، 184

⁶⁰ العمدة، 1/284

⁶¹ المفضليات، 284

⁶² شرح اختيارات المفضل، الخطيب التبريزي، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2،

1987م، 3/1237

سَبَقُوا هَوِيَّ وَأَعَنَقُوا لِهَوَاهُمْ فَتُخْرِمُوا، وَلَكِنَّ جَنْبِ مَصْرَعُ

ومن الأمثال الجياد قول هشام بن عقبة يرثي (أوفى) أخاه⁶⁴:

فلا تُدْسِنِي أَوْفَى الْمَصِيبَاتِ بَعْدَهُ وَلَكِنَّ نَكَءَ الْقَرَحِ بِالْقَرَحِ أَوْجَعُ

«عجزُ هذا البيت من المعاني الجياد والأمثال السائرة، وما نعرف له نظيراً»⁶⁵.

ومنها أيضاً قول بشر بن أبي خازم⁶⁶:

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ: "أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرِّكْضِ الْمُعَازُ"

ومن الأبيات المقلّدة قول محمد بن بشير الخارجي يصف نهاية كلِّ حيٍّ ومآله محمولاً على أكتاف الأعداء والأحباب⁶⁷:

وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا سَيْرَكُبٌ كَارِهًا عَلَى النَّعْشِ أَعْتَاقَ الْعِدَا وَالْأَقَارِبِ

ومنها قول تأبط شراً في آخر قصيدته المفضّليّة⁶⁸:

لَتَقْرَعَنَّ عَلَيَّ السِّنُّ مِنْ نَدِيمٍ إِذَا تَدَكَّرْتَ يَوْمًا بَعْضَ أَخْلَاقِي

وعده العسكريُّ: «أجود بيتٍ في هذه القصيدة؛ لصفاء لفظه، وحُسن معناه»⁶⁹.

ومنها قول أحد الفزاريين⁷⁰:

وَلَمْ أَرَ كَالْمَعْرُوفِ أَمَّا مَذَاقَهُ فَحَلُوءٌ، وَأَمَّا وَجْهُهُ فَجَمِيلٌ

وكذلك قول المفضّع الكندي⁷¹:

⁶³ المفضليات، 421. وينظر كذلك: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبو زيد القرشي، تحقيق محمد علي الهاشمي، دار القلم، دمشق، ط3، 1999م، 684/2

⁶⁴ الحماسة، 389/1

⁶⁵ الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، الخالدبان (محمد وسعيد)، تحقيق السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الجزء الأول 1958م، والجزء الثاني

1965م، 345/2

⁶⁶ المفضليات، 344

⁶⁷ الحماسة، 395/1

⁶⁸ المفضليات، 31

⁶⁹ كتاب الصناعتين، 464

⁷⁰ الحماسة، 606/1

⁷¹ المصدر السابق، 604/1

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا شِيمَةٌ لِي غَيْرَهَا تُشْبَهُ الْعَبْدَا

وقريبٌ منه في المعنى وأبلغُ منه قولُ الخريمي⁷²:

أُضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ وَيُخَصِّبُ عِنْدِي وَالْمَحْلُ جَدِيبُ
وَمَا الْخَصْبُ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيبُ
وتدخلُ في هذا الباب أيضاً الأبيات المفردة أو اليتيمة، ومن ذلك بيتُ يتيماً اختاره أبو تمام في حماسته، وهو قول النابغة الجعدي⁷³:

فَتَى كَانَ يُدْنِيهِ الْغَنَى مِنْ صَدِيقِهِ إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى، وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ
ومنه قول أحد شعراء الحماسة⁷⁴:

فَإِنْ أَكْ قَصِداً فِي الرِّجَالِ فَإِنِّي إِذَا حَلَّ أَمْرٌ سَاحَتِي لَجْسِيمُ
وقول آخر⁷⁵:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي جَبَانُ الْكَلْبِ مَهْزُولُ الْفَصِيلِ
وذهب النقاد إلى أن المثل السائر ينبغي أن يكون نادراً قليلاً في القصيدة، وأن يأتي عفوَ الخاطر غير متكلف، وألا يزيد عن الحدِّ المقبول في البيت والبيتين، فإذا زاد كان عيباً في الشعر، يقول ابن رشيقي: «وهذه الأشياء في الشعر إنما هي نُبْدٌ تُسْتَحْسَنُ، وَنُكْتُ تُسْتَظْرَفُ، مَعَ الْقَلَّةِ، وَفِي النُّدْرَةِ، فَأَمَّا إِذَا كَثُرَتْ فِيهَا دَالَةٌ عَلَى الْكُلْفَةِ، فَلَا يَجِبُ لِلشَّعْرِ أَنْ يَكُونَ مَثَلاً كُلَّهُ وَحِكْمَةً»⁷⁶. ومن ذلك قول أحدهم⁷⁷:

وَإِنِّي لَعَفٌّ عَنْ مَطَاعِمِ جَمَّةٍ إِذَا زَيْنَ الْفَحْشَاءِ لِلنَّاسِ جَوْعُهَا
ومن الأبيات المفردة قول الحصين بن الحمام المري⁷⁸:

⁷² الوحشيَّات (الحماسة الصُّغرى)، أبو تمام الطائي، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي، دارالمعارف،

مصر، د.ط. 1963م، 273

⁷³ المصدر السابق، 968/2

⁷⁴ الحماسة، 360/1

⁷⁵ المصدر السابق، 303/2

⁷⁶ العمدة، 285/1

⁷⁷ المصدر السابق، 592/1

⁷⁸ الأشباه والنظائر، 143/1، والبيت الأول في الحماسة، 114/1

تَأخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ
لِذِي الْجِلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقْرِعُ الْعَصَا وَمَا عَلَّمَ الْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْلَمَا

وعلى هذا النحو يغدو المعنى الشريف متمثلاً بأحاد الأبيات التي تبرز أقرانها في الفردة والابتكار والاختراع.

سادساً: المثالية والنمذجة

ومن مقاصد شرف المعنى أيضاً تصوير المعنى (المثال) أو الأنموذج، أي وصف الشيء في أسى معانيه وأشرف حالاته، أو بما يجب أن يكون عليه، فقد أرادوا للشاعر أن يُصوِّر الكمال في معانيه، وألا يأتي وصفه مُقَصِّراً بل: «يُريد به المثل وبلوغ النِّهاية في النَّعْتِ»⁷⁹. ويذكرنا هذا الكلام بقول ابن رشيق: «مِنَ الشَّعْرَاءِ وَالْبُلْغَاءِ مَنْ إِذَا وَصَفَ شَيْئاً بِالْعِ فِي وَصْفِهِ، وَطَلَبَ الْغَايَةَ الْقَصْوَى الَّتِي لَا يَعْدُوهَا شَيْءٌ، إِنَّ مَدْحاً فَمَدْحاً، وَإِنْ ذَمّاً فَذَمّاً»⁸⁰. فالعرب كانت تطالب الشعراء ببلوغ منتهى الصفة لتوافق الغرض الشعري أياً كان، وهذا مثل ما أطلق عليه عبد الحكيم راضي: «المثالية في الوصف، بمعنى مجيء موضوعات الوصف في صورة كاملة تماماً تمثل أسى صفات النوع»⁸¹.

وهذا المقياس يساعد على بناء أنموذجات كمالٍ مثالية لكلِّ صنف من الموصوفات، يُمدح صاحبها بها ويُذمّ بنقيضها، وقد علَّل زكي نجيب محمود مِيلَ الروح العربية الأصيلة إلى النماذج المطلقة المثلّي: «لكونها مُشْرَبَّةٌ دائماً إلى الثابت الدائم الذي لا يتغيَّر مع الأيام ولا يزول»⁸². ومن القطع الشعرية التي بلغت الغاية في الفخر قول سعد بن ناشب⁸³:

فإن تَهدموا بالغدر دارِي فإنها تراثُ كَرِيمٍ لا يخاف العواقبا
أخي عَزَمَاتٍ لا يُريدُ على الذي يهْمُ به مِن مُفْطَعِ الأَمْرِ صاحبا
إذا هَمَّ ألقى بين عينيه عزمه ونكَّبَ عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشرْ في رأيه أمرَ غيره ولم يرضَ إلا قائمَ السَّيفِ صاحبا

⁷⁹ نقد الشعر، 62

⁸⁰ العمدة، 295/2

⁸¹ نظرية اللغة في النقد العربي، عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي، مصر، د.ط، 1980م، 387

⁸² ينظر: تجديد الفكر العربي، زكي نجيب محمود، دار الشروق، بيروت، د.ط، 1971م، 280.279

⁸³ الحماسة، 70/1

ومن أمثلة ذلك قول السموءل مفتخرًا⁸⁴ :

وما ماتَ مِنَّا مَيِّتٌ في فراشه ولا طُلَّ مِنَّا حيثُ كان قَتيلُ

«وهذا غاية ما يَتَحَمَّدُ به الفُتَّاكُ وأبناء الحروب، حتى إنَّ بعضهم اعتذر عن مات على فراشه»⁸⁵، ثم يقول السموءل، وبلغ الغاية في المعنى⁸⁶ :

تَسيلُ على حَدِّ الضُّبَاتِ نفوسُنَا وليستُ على غيرِ السيوفِ تَسيلُ

لأنَّ: «الدِّماءُ قد تُسالُ بالعِصِيِّ وبغيرها مما لا يكون شرفاً، فَعَدَّ القِتلة التي تكون بالسيوفِ أكرم»⁸⁷.

ومن الغاية في الرِّثاءِ قول عاتكة بنت زيد ترثي زوجها⁸⁸ :

أليبتُ لا تنفكُ عيني حزينَةً عليك ولا ينفكُ جلدي أغبراً
فلله عيناً مَنْ رأى مثله فتىً أكرَّ وأحسى في الهياجِ وأصبراً
إذا أشرعتُ فيه الأسنَّةُ خاضها إلى الموتِ حتى يتركَ الموتُ أحمرّاً

ومن ذلك قول النابغة الجعدي يرثي أخاه، فقد أجاد وأصاب⁸⁹ :

فتىً كان فيه ما يسرُّ صديقَه على أنَّ فيه ما يسوءُ الأعاديا
فتىً كملتُ أخلاقُه غيرَ أَنه جوادٌ فلا يُبقي من المالِ باقيا

«وهذا هو النهاية في الكمال، لأنه اذا عَرَفَ لأوليائه ما يُوجب عليه التوفُّرَ عليهم وجميلَ التفقُّدِ لهم، وعَرَفَ لأعدائه ما يُوجب التنقُّصَ منهم وإذلالهم، كان في ذلك أكملُ الكمال...، وقوله: (فتىً كملتُ خيراته غيرَ أَنه جوادٌ) هذا استثناءٌ في نهاية الحُسن»⁹⁰.

ومن ذلك في المدح قول ابن عنقاء الفزاري⁹¹ :

⁸⁴ المصدر السابق، 80/1

⁸⁵ شرح ديوان الحماسة، 117/1

⁸⁶ الحماسة، 80/1

⁸⁷ شرح ديوان الحماسة، 118/1

⁸⁸ الحماسة، 548/1

⁸⁹ الحماسة، 479/1، وكذلك 523/1، وفي رواية المرزوقي (خيراته) بدل (أخلاقه).

⁹⁰ شرح ديوان الحماسة، 969/2

⁹¹ الحماسة، 263.262/2

غلامٌ رماهُ اللهُ بالخيرِ يافعاً له سِمياءٌ لا تشقُّ على البَصَرِ
 كأنَّ الثرياَ عُقِّتْ فوقَ نحره وفي أنفه الشُّعري وفي خِده القَمَرُ
 إذا قيلتِ العوراءُ أغضى كأنه ذليلٌ بلا ذلٍّ ولو شاء لانتصرَ

«فمتى ذُكرتِ عنده فحشاء أطرق مُغضياً...، فكأنه ذليلٌ لِتغايبه...، ولو شاء لانتقم، وهذا غاية ما يكون من حُسن الاحتمال ومُصابرة الناس على أذاهم، مع التَّعزُّز والاعتدال»⁹².

أما الغاية في الهجاء فيحضرنا قول رويشد بن كثير الطائي⁹³:

وموقعٌ تنطقُ غيرَ السداد فلا جيدٌ جزعكُ يا موقعُ
 فما فوقَ ذلتكم ذلةٌ ولا تحت موضعكم موضعُ

يُعلِّق المرزوقي على البيتين قائلاً: «وقوله: (فما فوق ذلتكم ذلة)....، هو غريبٌ حسنٌ! يريد: لا مرتبة في الذل أعلى من مرتبتكم فإنها الغاية القصوى، ولا موضع أشدُّ تأخراً وانحطاطاً في العزِّ من موضعكم، فإنه المنزل الأخصُّ الأدنى»⁹⁴.

سابعاً: تمام المعنى

ومن شرف المعنى تمامه، وهو: «أن يذكر الشاعرُ المعنى، فلا يدع من الأحوال التي تتمُّ بها صحته، وتكمل معها جودته شيئاً إلا أتى به»⁹⁵، فمن ذلك قول أبي ذهبل⁹⁶:

وكيف أنساك لا نُعماكُ واحدةٌ عندي، ولا بالذي أوليت من قِدمِ

ويعلِّق الجرجاني في الوساطة على البيت قائلاً: «إِذا أنصفتَ أبا ذهبلَ عرفتَ فضله، وشهدتَ له بالإحسان؛ لأنه جمع هذا الكلام الطويل في: (ولا أيديك واحدةٌ عندي)، ثم أضاف إليه: (ولا بالذي أوليت من قِدمِ)، فتمَّ المعنى»⁹⁷.

ومن التَّمام قول مسكين الدَّارمي⁹⁸:

أحدِّثه إنَّ الحديدَ من القرى وتعلمُ نفسي أنه سوف يهجعُ

⁹² شرح ديوان الحماسة، 4/1588-1589

⁹³ الحماسة، 2/185، وموقع اسم قبيلة، ومعنى فلا جيدٌ جزعكُ: لا مُطر جانبك وفناء دارك بالجود.

⁹⁴ شرح ديوان الحماسة، 3/1471

⁹⁵ نقد الشعر، 137

⁹⁶ الحماسة، 2/284

⁹⁷ الوساطة، 189

⁹⁸ الحماسة، 2/347

فهو: «جيد حسن، وتمام الكرم عندهم مضاحكة الضيف ومحادثته وطلاقة الوجه»⁹⁹.
 فالتمام على حدِّ قول العسكري: «أن تُوفيَّ المعنى حظَّه من الجودة، وتعطيه نصيبه
 من الصحة؛ ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تُورده»¹⁰⁰.

ومنه قول الحسين ابن مطير الأسيدي¹⁰¹:

له يومٌ بُؤسٍ فيه للنَّاسِ أبُؤسٌ ويومٌ نَعِيمٍ فيه للنَّاسِ أَنْعَمُ
 فَيَمَطِرُ يَوْمَ الْجُودِ مِنْ كَفِّهِ النَّدى وَيَمَطِرُ يَوْمَ الْبَاسِ مِنْ كَفِّهِ الدَّمُ

ومن هذا الباب قول سَبْرَةَ بن عمرو الفقعسي، وقد عَيَّرَه ضَمْرَةَ النَّهْشَلِي كَثْرَةَ إِبْلِهِ،
 فأجابه بأبيات منها¹⁰²:

أَعَيَّرْتَنَا أَلْبَانَهَا وَلِحُومَهَا وَذَلِكَ عَارٌ يَابِنَ رَيْطَةَ ظَاهِرُ
 نُحَابِي بِهَا أَكْفَاءَنَا وَنُهَيْئَهَا وَنَشْرَبُ فِي أَثْمَانِهَا وَنُقَامِرُ

يقول المرزوقي مادحاً سَبْرَةَ لإتمامه المعنى الذي قاله: «وفي تعداد هذه الوجوه إبطالٌ لكل
 ما أُوهِمَ أو ادَّعِيَ يلحقُ من العار في اقتنائها وادِّخارها»¹⁰³.
 ومن تمام المعنى قول منظور بن سحيم¹⁰⁴:

ولستُ بِهَاجٍ فِي الْقِرَى أَهْلَ مَنْزِلٍ عَلَى زَادِهِمْ أَبْكَى وَأَبْكَى الْبَوَاكِيَا
 فإِذَا كَرَامٌ مُوسِرُونَ أَتَيْتَهُمْ فَحَسْبِي مِنْ ذُو عِنْدِهِمْ مَا كَفَانِيَا
 وَإِذَا كَرَامٌ مُعْسِرُونَ عَذَرْتَهُمْ وَإِذَا لِنَائِمٌ فَادَّكَرْتُ حَيَاتِيَا

يقول المرزوقي: «لا يخلو مَنْ أَقْصَدُهُ وَأَنْزَلَ بِهِ مِنْ وَجْهِهِ؛ إِذَا أَنْ يَكُونُوا قَوْمًا يَرْجِعُونَ إِلَى
 كَرَمٍ وَيَسَارٍ، فَيَتَوَقَّرُونَ عَلَيَّ حَسَبَ مَا يَقْتَضِيهِ كَرَمُهُمْ، وَإِذَا أَنْ يَكُونُوا كَرَامًا مُضْيِقِينَ...
 فَأَعْدِرُهُمْ لِإِضَاقَتِهِمْ... وَإِذَا أَنْ يَكُونُوا قَوْمًا لِنَائِمًا فِي أَخْلَاقِهِمْ دِنَاءَةٌ...، فَتَذَكَّرْتُ حَيَاتِي
 وَصِيَانَتِي لِنَفْسِي، فَلَمْ أَبْذَلْ لَهُمْ وَجْهِي»¹⁰⁵.

⁹⁹ الأشباه والنظائر، 65/1

¹⁰⁰ كتاب الصناعتين، 404

¹⁰¹ الحماسة، 270/2

¹⁰² الحماسة، 134/1

¹⁰³ شرح ديوان الحماسة، 239/1

¹⁰⁴ الحماسة، 584/1

¹⁰⁵ شرح ديوان الحماسة، 1159/3

ومن تمام المعنى بحيث لا يطلب الرجل زيادةً على ما وُصف به المرثي، قول أحدهم¹⁰⁶ :

يا أيُّها المِثميُّ أن يكون فتيًّا مثل ابن زيدٍ لقد خَلَى لك السُّبُلَا
أعدُّ نظائرَ أخلاقٍ عُدَدَن له هل سَبَّ من أحدٍ أو سَبَّ أو بَخَلَا

يقول المرزوقي: «أنظر هل أنت في اشتمال الكرم والتحاف العز، بحيث لا تُسبُّ أحدًا تعليةً وارتفاع منزلة، وفي نقاء الجيب وطهارة الأصل والفرع بحيث لا يسبُّك أحد توقيًا وتعطفًا، وهل تقف موقفًا تبعد فيه وتتنزّه عن أن يُقال: ما بخل بما في يده، ولا منع أحدًا على رجائه به، فإنه حينئذٍ يبين لك تفاوت ما بينك وبينه»¹⁰⁷.

ومن ذلك قول مسجاح بن سباع¹⁰⁸ :

لقد طَوَّفْتُ في الآفاق حتى بليتُ وقد أتى لي لو أبيتُ
وأفناني ولا يفنى نهارُ وليلٌ كلِّما يمضي يعودُ
وشهرٌ مُستهلٌّ بعدَ شهرٍ وحولٌ بعده حولٌ جديدُ
ومفقودٌ عزيزُ الفقدِ تأتي منيته ، ومأمولٌ وليدُ

ويُعجب المرزوقي بما اقتصه الشاعر في هذه الأبيات على قلتها: «من امتحانه بالكبيرة والسنن، وتراجع القوة بما أخذ الدهر، ومع التجوال في البلدان ومقاساة الشقاء في الحل والترحال،... إلى أن رفع الطمع عما كان تجمعه يده،... ثم المصاب في الكامل البارع، وتعليق الرجاء بالطفل الدارج،... فتأملها فإنها عجيبة»¹⁰⁹. وكذلك قول دريد بن الصمة¹¹⁰ :

يُغار علينا واطرين فيُشتفى بنا إن أصبنا أو نُغير على وترٍ
وأبلغ منه قول جعفر بن عُلبَةَ الحارثي¹¹¹ :

نُقاسِمُهُمُ أسياقنا شرَّ قِسمةٍ ففينا غواشما وفيمهم صُدورها

¹⁰⁶ الحماسة، 272/2

¹⁰⁷ شرح ديوان الحماسة، 4/1600

¹⁰⁸ الحماسة، 1/499

¹⁰⁹ شرح ديوان الحماسة، 2/1010

¹¹⁰ الحماسة، 1/399

¹¹¹ شرح ديوان الحماسة، 1/50، ولم أجدها في (الحماسة) بتحقيق عسيلان.

وكذلك قوله مفتخراً بنفسه¹¹² :

لَهُمْ صَدْرٌ سَيْفِي يَوْمَ بَطْحَاءِ سَحْبِلٍ ولي منه ما ضُمَّتْ عليه الأناملُ
وأمثلةُ اقتران المعنى بالتَّمام مما لا يمكن حصره في هذا المقام، ففي بعض الأمثلة كفاية
للإشارة إلى أن التمام كان من أسس شرف المعنى.
نتائج البحث:

ظهر لنا من خلال استقراء آراء النقاد القدماء في مفهوم شرف المعنى ما يأتي:

- ليس المقصود بشرف المعنى أن يكون مما يحضُّ على فضيلة أو يدعو إلى خُلُقٍ كريم؛
فقد فَصَلَ النقاد بين الشعر والأخلاق،
- إن المعنى ليس يَشْرَفُ بأن يكون من معاني الخاصَّة،
- مَدَارُ الشَّرْفِ على الصواب، والوضوح والمنفعة مع موافقة الحال والمقام.
- الإبانة ووضوح المعنى والقرب من أفهام الناس من أهم مقاييس استحسان النصوص
ونقدها.
- من أكبر أسباب شرف المعنى أن يكون مُبْتَكِراً غير مسبوق، أو أن يكون مثلاً سائراً أو
بَيْتاً مُقَلِّداً، وَعُدَّ ذلك أحدَ أسباب الحُكْمِ على الشعر بالأفضليَّة،
- وجدنا أنّ من مقاصد شرف المعنى أيضاً (المثاليَّة في الوصف)؛ أي وصفُ الشيء في
أسمى معانيه وأشرف حالاته، وهذا المقياس يساعد على بناء أنموذجات كمالٍ لكلِّ
صنف من الموصوفات، يُمدح صاحبها بها ويُذمُّ بنقيضها.
- ومن شرف المعنى أيضاً تمامه، وهو أن يذكر الشاعرُ المعنى فلا يدع من الأحوال التي تتمُّ
بها صحَّته وتكمل معها جودته شيئاً إلا أتى به، وعدّوا ذلك من أسس الاختيار
والمفاضلة.

المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط1، 1991م.
- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، الخالديان (محمد وسعيد)، تحقيق السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الجزء الأول 1958م، والجزء الثاني 1965م.
- الأصول (قراءة جديدة لتراثنا النقدي)، تامر سلوم، ط1، دار الحقائق، دمشق، 1993م.
- إعجاز القرآن، الباقلائي، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د.ط، 1954م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م.
- تجديد الفكر العربي، زكي نجيب محمود، دار الشروق، بيروت، د.ط، 1971م.
- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبو زيد القرشي، تحقيق محمد علي الهاشمي، دار القلم، دمشق، ط3، 1999م.
- الحماسة، أبو تمام الطائي، تحقيق عبدالله عسيلان، منشورات المجلس العلمي لجامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، د.ط، 1981م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، 1984م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، د.ط، 1958م.
- سيرُ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982م.
- شرح اختيارات المفضل، الخطيب التبريزي، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987م.
- شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م.

- شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الأَصمعي، حلب، ط2، 1973م.
- شرح المقدمة الأدبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام، محمد الطاهر ابن عاشور، تحقيق ياسر المطيري، دار المنهاج، الرياض، ط1، 1431م.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط2، 1998م.
- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجُمعي، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ط، 1974م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيقي القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م.
- عمود الشعر(مواقعه، ووظائفه، وأبوابه)، عبد الكريم حسين، دار التّيمر، دمشق، ط1، 2003م.
- في نظرية الأدب عند العرب، حمّادي صمّود، دار شوقي، تونس، ط1، 2002م.
- قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم (ظهورها وتطورها)، وليد قصاب، المكتبة الحديثة، العين، الإمارات العربية المتحدة، ط2، 1985م.
- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط2، 1971م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، 1990م.
- المفضّلات، المفضّل الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط3، 1964م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986م.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري، الأمدي، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د.ط، طُبع الجزء الأول سنة 1961م، والثاني 1965م.

- نظرية اللغة في النقد العربي، عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي، مصر، د.ط، 1980م.
- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1978م.
- نقد النثر، قدامة بن جعفر، تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، 1933م.
- الوحشيات (الحماسة الصُّغرى)، أبو تمام الطائي، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي، وزاد في حواشيه محمود شاكر، دار المعارف، مصر، د.ط، 1963م.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ط، 1966م.

البحث الثامن

الأسنة:

محاولة في ضبط المصطلح الأدبي

د. حكمة شافي الأسعد

أستاذ مساعد في تخصص الأدب الجاهلي من جامعة حلب

الأنسنة:

محاولة في ضبط المصطلح الأدبي

د. حكمة شافي الأسعد *

مقدّمة

يتردّد مصطلح "الأنسنة" على ألسنة الباحثين وأقلامهم من دون أن يكون واضح الدلالة دقيق الإشارة؛ وكثيراً ما يتم استخدامه في مواضع مصطلحات أخرى، مثل: الشخيص، والتجسيم، والتجسيد؛ وربما استُخدمت هذه المصطلحات في موضع "الأنسنة" أيضاً. لذلك أرى أنه من الواجب والمفيد الفصل بين هذه المصطلحات عن طريق ضبطها. وفي ضبطنا لمصطلح "الأنسنة" يمكننا تمييزه من سائر المصطلحات المتداخلة معه، ومن ثمّ يمكننا ضبط المصطلحات المتداخلة معه أيضاً.

وتجب الإشارة هنا إلى أنّ مصطلح الأنسنة ينشط في حقلين فكريين: الحقل الفلسفي، والحقل الأدبي؛ إذ يمكننا القول إنّ لدينا مصطلحين تحت اسم "الأنسنة". وبهنا هنا ضبط المصطلح الأدبي.

1- الأنسنة لغةً واصطلاحاً:

بينما يقتصر تعريفُ الجرجاني (ت 816هـ) للإنسان على تعريف الفلاسفة له بأنّه "الحيوان الناطق"¹، يفصّل ابن منظور (ت 711هـ) في لسان العرب في الإفصاح عن معاني الإنسان؛ فالإنسان "معروفٌ... والإنسان أصله إنسيانٌ، لأنّ العرب قاطبةً قالوا في تصغيره: أنيسيانٌ... وروى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنّه قال: إنّما سُمّي الإنسان إنساناً لأنّه عُهد إليه فنسي... وقد حكى أنّ الإنسان لغةً في الإنسان، طائيةً؛ قال عامر بن جرير الطائي:

فيا ليتني، من بعد ما طاف أهلها، هلكتُ، ولم أسمع بها صوت إنسان

... وروى قيس بن سعد أنّ ابن عباس - رضي الله عنهما - قرأ: يا سين والقرآن الحكيم، يريد: يا إنسان... والإنسان أيضاً: إنسان العين، وجمعه أناسي. وإنسان العين: المثل الذي

* دكتوراه في تخصص الأدب الجاهلي من جامعة حلب. hikmahh1979@gmail.com

¹ التعريفات: الجرجاني، الدار التونسية للنشر، 1971م، ص 21.

يرى في السواد... وإنسان العين: ناظرها، والإنسان الأثمة... وإنسان السيف والسهم: حدّهما... والإيناس: خلاف الإيحاش، وكذلك التأنيس والأنس والأنس والإنس: الطمأنينة... وأصل الإنس والأنس والإنسان من الإيناس، وهو الإبصار... والإيناس: اليقين: قال:

فإن أتاك امرؤ يسعى بكذبته فأنظر، فإن إطلاعا غير إيناس².

نلاحظ أنّ مفهوم الإنسان في اللسان موزّع على صفاتٍ داخليةٍ وخارجيةٍ، لكن الصفات الداخلية هي أكثر التصاقاً بالإنسان المعروف، وفيها تركيزٌ على المخفي أكثر من الملموس. وهذا يقترب من مفهوم الإنسان عند الكفوي (ت 1094هـ)، الذي نلّمح تفرقه بين البدن والجوهر في قوله: "ثمّ اعلم أنّ الشيء الذي هو إنسانٌ في الحقيقة أجزاءٌ لطيفةٌ ساريةٌ في هذا البدن، باقيةٌ فيه من أول العمر إلى آخره"³. وينقل الكفوي قولاً آخر يُثبت المعنى الداخلي للإنسان، إذ يقول: "الإنسان عبارةٌ عن جوهرٍ مجردٍ عن الحجميّة والمقدار"⁴. والداخل هو الحال النفسيّة بما تحويه من اختلافاتٍ وتبايناتٍ وتموجات. وإذا تتبّعنا مفردة (إنسان) في القرآن الكريم، وجدناها ترتبط بالخلق غالباً، أي بالحال الداخلية النفسية؛ وإن كان ارتباطاً سلبياً في أكثر الحالات⁵.

إذا؛ الإنسان - في أشمل معانيه - هو غامضٌ جسديّه ومخفيّه، وعندما يخلع صفاته الإنسانية على الخارج فإنّه يربط المكونات الأخرى بداخله ونفسيته. فاتّحاد الإنسان، الداخلي والخارجي، مع الموجودات يبعث فيها حيويته وحاله المعنوية، بما تكثره من شجن وفرح وقلقٍ وعبثٍ وثباتٍ واضطرابٍ واتزانٍ... لكنّ هذا التوجّه لا يكون قصدياً غالباً، إنّه نزوعٌ ناتجٌ من مشاعرٍ هاربةٍ من التوجّه إلى الإنسان الآخر نحو تنوعات الحياة الأخرى. ولا بدّ لهذا النفور والمغايرة من دوافع نفسيّة، يجب استقصاؤها، وإبراز فاعليتها الجماليّة

² لسان العرب: ابن منظور، مج1، دارصادر، داربيروت، بيروت، 1375هـ/1956م، مادة أنس.

³ الكليات: الكفوي، القسم الأول، إعداد: عدنان درويش ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1974م، ص335.

⁴ السابق، القسم الأول، ص335.

⁵ يُنظر مثلاً: يونس/12، النحل/14، الشورى/48، الإسراء/11، الأحزاب/72، إبراهيم/34، الكهف/54،

القيامة/5،...

وأهداف مغايرتها في الخطاب من الآخر الشبيهه فيزيولوجياً إلى آخر غير عاقل، وُضِعَ موضعَ العاقل، مُتحوِّلاً إلى كائنٍ مساوٍ للإنسان.

وهذه الحال من التصوّر الإنسانيّ للإنسانيّ تأخذ بالاتّساع القيميّ عند الفنان أكثر من غيره؛ فالفنان - بما يمتلك من حساسيّة - يرقى بالأشياء إلى المستوى البشريّ، في طموح تَوْحُديّ مع كلّ ما يتلاءم وحالّه النفسيّة. وهناك رغبةٌ داخليةٌ وجماليةٌ، ورغبةٌ في الهرب من المثيل، تدفعان الفنانَ إلى سحب الموجودات تجاهه لعقلنتها وجعلها معادلاً لوجوده وتفكيره.

وربّما كان الشاعر أكثرَ الفنّانين قدرةً على بثّ الروح وعقلنة غير العاقل؛ فالكلمةُ الشاعرةُ هي الأقدرُ على إضفاء الداخل بتناقضاته على الخارج بجموده وشيئنته. والشاعرُ "إذ يندمج مع الأشياء يُضفي عليها مشاعره. وقد قيلَ ذاتَ يومٍ: إنّ الفنانَ يلونُ الأشياءَ بدمه... فعالمُ الأفكار - وهو بطبيعته غيرُ واقعيّ - يحاول أن يصبح واقعياً بمعانقته للأشياء والبروز من خلالها"⁶. فالأنسنةُ تخلق عالماً من الألفة بين أجزاء الكون المختلفة، إذ تُزيل الفوارق بين الإنسان وما سواه، وتخلق عالماً مختلفاً بينهما. وقد تُساعد الأنسنةُ على تفعيل التواصل؛ فعندما يحملُ المُؤنسنُ صفاتٍ مألوفةً للمتلقّي، قد يُثير لدى هذا المتلقّي تواصلًا لغويًا وعاطفيًا.

وربّما يكون الشاعرُ أكثرَ ارتباطاً ببيئته كذلك، ممّا يمنحه حساسيّةً زمنيّةً ومكانيّةً عالية، تجعله يُؤنسنُ ما حوله بجماليّاتٍ وغاياتٍ مختلفة، مُحوِّلاً كلّ ما يحتكُّ به إلى جزءٍ من أسرته ومن تكوينه.

ويحقُّ لنا، أمام تطوّر النقد الحديث وتوسّع إمكانيّاته وأدواته، أن نتساءل عن غايات هذه الأنسنة المتنوّعة في الشعر: أي اعتباراً فرضه الواقع، أم أنّ لها أبعادها النفسيّة والجماليّة الخفيّة، المرتبطة مباشرةً بداخل الشاعر؟

ما أدعيه هنا هو أنّ وراء هذه الأنسنة غاياتٍ تكشف عن عمق الكلام الشعري، وتكشف عن قراءاتٍ أخرى، لا تسمح لنصٍّ ما أن يتنبّأ في معناه الواحد والمتفرد، بل تعتقد بوجود حُجُبٍ كثيرةٍ بيننا وبين النصّ، تكشفها القراءاتُ المتعدّدة والمختلفة.

⁶ التفسير النفسي للأدب: عزّ الدين إسماعيل، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، د.تا، ص 65.

وحين يؤنس الشاعرُ الفضاءَ من حوله يمنحه جزءاً من حياته، ومن ثمَّ فهو ينقله لنا واقعاً حياً، خارجاً من جموده وسيروورته، وداخلاً في ذات الشاعر وتركيب نفسيته. ويريد الشاعر أن يتخفّف من ثقلِ زمنه وأيامه، ومن ضغط ظروفه، فيلجأ إلى أنسنة غير العاقل. ويريد أحياناً أن يُلَمَّحَ فيبتعد بأنسنته عن التصريح. ويريد أحياناً أخرى أن يكون أكثر إقناعاً وأكثر اكتساباً للاستعطاف فيؤنّسُنْ، ويخرجُ عن المألوف. ويريد أيضاً الإطراب والإمتاع، فيحقّق غايته بالأنسنة.

غير أنّ مفهوم الأنسنة متفاوت الدلالات في الفكر الحديث، ويغلب عليه المعنى الفلسفي؛ وهذا ما يحقّزني على محاولة ضبطه وتوجيهه لمصلحة القراءة الشعرية؛ فالغاية المرادة هنا هي رؤية الشاعر الأشياءَ رؤيةً تحمل ميزاتٍ بشريّةً، وليس المقصود النزعة الإنسانية أو العقلانية أو الرؤيا الكونية للفكر.

وأركّز هنا على ما يخصّ الإنسان بإضافته إلى غيره، من دون النظر إلى ما يشترك فيه الإنسان مع غيره؛ فحنانُ الأمِّ ورعايتها لوليدها، مثلاً، موجودٌ لدى غير الإنسان من الحيوانات؛ وكذلك الأمرُ مع الخوف، وما شابه هذا. فلن تستوقفنا هذه الحالات التي يشترك فيها الإنسان مع غيره.

لكننا حين نتحدّث عن إضفاء صفاتٍ إنسانيةٍ على غير الإنسان قد نجد من يحيلنا إلى البلاغة، بالإشارة إلى التشبيه والاستعارة. وأريد أن أكون بمنأى عن هذا الهاجس - وإن كنتُ أميل إلى التقريب بين الدراسات الأدبية والبلاغية - لذلك لا بدّ من أن أوضح أنني أرى الأنسنة من خلال ارتباطها بالإنسان وحسب، وما يحمله المؤنّسُنْ من صفات الإنسان؛ بينما مفاهيم التشبيه والاستعارة أعمُّ وأوسع، ومع ذلك ربّما لا تحتل هذه المفاهيم الأبعادَ الجمالية التي قد نجدُها في الأنسنة. وقد انتبه أحدُ أهمِّ البلاغيين العرب، وهو عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ)، إلى استحالة دخول بعض ما يتّصف بصفات الإنسان تحت مسميات التشبيه والاستعارة؛ فعندما جاء بالبيت المترجم عن الفارسية:

لو لم يكن نيّة الجوزاءِ خِدْمَتَهُ لَمَا رَأَيْتَ عَلَيْهَا عِقْدَ مُنْتَطِقِ

نفى أن يكون هذا من جنس ما أصله التشبيه⁷. وأنت ترى أنّ الشاعر هنا أنسن الجوزاء.
ومن هذا القبيل تعليقُ الجرجانيّ على بيت لبيد⁸:

وَعَدَاةَ رِيحٍ قَدْ كَشَفْتُ، وَقِرَّةَ
إِذْ أَصْبَحْتُ بَيْدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

إذ قال: "ألا ترى أنّه محالٌّ أن تقول: إنّه استعار لفظَ اليد للشمال: وكذلك سبيلُ نظائره
مما تجدهم قد أثبتوا فيه للشيء عضوًا من أعضاء الإنسان من أجل إثباتهم له المعنى
الذي يكون في ذلك العضو من الإنسان، كبيت الحماسة⁹:

إِذَا هَزَّةٌ فِي عَظْمٍ قَرِنٍ تَهَلَّلَتْ نَوَاجِدُ أَفْوَاهِ الْمَنَايَا الضَّوَاكِ

فإنّه لما جعل المنايا تضحك جعل لها الأفواه والنواجذ التي يكون الضحك فيها¹⁰.
وكلام الجرجانيّ الأخيرُ يمنحني غايةً أخرى من غايات الأنسنة، وهي إثباتُ معنى صفات
الإنسان للمؤنسن. ومهما يكن، فالأنسنة ليست بمنأى عن التقاطعات مع التشبيه
والاستعارة، وهي تقاطعاتٌ لا مهربَ منها.

وبناءً على ما سبق يُمكن تعريفُ الأنسنة بأنّها: دراسةٌ تبحثُ في إضفاء صفات
الإنسان على المُغايِر له فيزيولوجيًا، سواءً أكانَ ملموسًا أم غيبياً، كما أنّها تبحثُ في
أسباب التوجّه إلى هذا المُغايِر وعقلنته.

2- مُقَابِرَاتٌ عَرَبِيَّةٌ لِلأُنْسِنَةِ:

1-2: الأتساع والتوسّع:

يمكن أن ندرج مفهومَ الأنسنة تحت ما أسماه اللغويون والبلاغيون العرب بـ الأتساع
أو التوسّع؛ فقد استخدموا المصطلحَ بمفردتيه لمعانٍ شتى ومشتتة، ومنها الأنسنة.
واستخدموا أيضًا للمعاني نفسها عبارة: (سعة الكلام)؛ وهي عبارةٌ تنطبقُ على الأنسنة

⁷ انظر: أسرار البلاغة في علم البيان: عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وتعليق: محمد رشيد رضا، ط2،
مطبعة المنار بمصر، 1344هـ/1925م، ص24.

⁸ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقدم له: إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأبناء، الكويت،
1962م. ولكن برواية [وزعت] بدلًا من [كشفت].

⁹ ديوان الحماسة: أبوتمام، شرح التبريزي، ج1، ط1، مطبعة السعادة، مصر، 1346هـ/1927م، ص23.
والبيت لتأبط شرًا.

¹⁰ دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ضبط وتعليق: محمد رشيد رضا، ط2، مطبعة المنار، مصر،
1331هـ، ص334 و335.

وغيرها من المجاز. لكتّهم لم يفرّدوا أبوابًا أو فصولًا لتوضيح مصطلحاتهم هذه؛ باستثناء ابن رشيق (ت 463هـ)، الذي وضع بابًا بعنوان (باب الاتّساع) في كتابه العمدة، لكنّه لم يقصد فيه الأنسنة كما سئري.

وقد استخدم سيبويه (ت 194هـ) عبارة: (سعة الكلام) في معنّى يقرب من الأنسنة، وذلك في تعليقه على بيت الشعر¹¹:

لقد مُتْنَا يا أمَّ غيلانَ في السُّرى
ونِمْتِ، وما لَيْلُ المِطِيِّ بنائِمِ

إذ عدّ سيبويه رفع كلمة (ليل) من "سعة الكلام"¹². وعلّق صاحب خزنة الأدب على ما أورده سيبويه قائلًا: "على أنّ وصف الليل بأنّه غير نائم على طريق الاتّساع، والليل لا ينام، ولا يوصف بأنّه غير نائم، لأنّه ليس من الحيوان، وكان حقّه بمنوم فيه"¹³. وواضح من البيت أنّ الشاعر أخرج الليل عن طبيعته حين استغرب من عدم نومه، كأنّ من عادة الليل أن ينام. لكنّ هذه الظاهرة سمّيت عند البغداديّ: الاتّساع. وهي شبيهة بالأنسنة إذا قُصد بها نوم الإنسان وليس نوم غيره من الحيوانات.

لكنّ الاتّساع عند ابن الأثير (ت 637هـ) هو عين الأنسنة، ويأتي بمثل على ذلك قولهم في كتاب كليله ودمنة: "قال الأسد، وقال الثعلب؛ فإنّ القول لا وصله بينه وبين هذين بحال من الأحوال، وإنّما أجرى (صاحب كليله ودمنة) عليهما اتّساعًا محضًا"¹⁴. ففعل القول الملتصق بالإنسان قام به غير الإنسان، وهذا المجاز سمي اتّساعًا، وهو الأنسنة التي أنشدها.

لكتّهم قد يذهبون بمعنى الاتّساع إلى ما هو أبعد من الأنسنة، فيجرونه على كلّ اتّساع في المعنى يُعمل فيه التأويل، وأيضًا يجرونه على اللغة والاتّساع في استخدامها. من ذلك أنّ ابن رشيق في العمدة وضع بابًا بعنوان (باب الاتّساع)، فقال عن الاتّساع: "وذلك أنّ

¹¹ ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، مج 2، دار المعارف، مصر، القاهرة، 1979م، ص 993.

والبيت هو الشاهد الثمانون من شواهد الكتاب.

¹² الكتاب: سيبويه، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ج 1، دار القلم، 1385هـ/1966م، ص 160.

¹³ خزنة الأدب ولبّ لباب العرب: عبد القادر البغداديّ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ج 1، دار الكتاب

العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1387هـ/1967م، ص 466.

¹⁴ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج 1، شركة

مكتبة مصطفى الباي الحلبي وأولاده، مصر، 1358هـ/1939م، ص 58.

يقول الشاعرُ بيتاً يتّسع فيه التأويلُ، فيأتي كلُّ واحدٍ بمعنى، وإتّما يقع ذلك لاحتتمال اللفظ وقوّته، واتّسع المعنى؛ من ذلك قول امرئ القيس¹⁵:

مَكْرٍ، مَقْرٍ، مُقْبِلٍ، مُدْبِرٍ، مَعًا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عَلٍ

فإنّه أراد أنّه يصلح للكرّ والفرّ، ويحسن مقبلاً ومدبراً، ثمّ قال: معاً، أي: جميع ذلك فيه، وشبهه في سرعته وشدة جريه بجلمود صخرٍ حطّه السيل من أعلى الجبل، فإذا انحطّ من عالٍ كان شديد السرعة، فكيف إذا أعانته قوّة السيل من ورائه؟¹⁶. من الملاحظ أنّه لا علاقةً لبيت امرئ القيس بما اصطلحت عليه بـ الأنسنة، إلا أنّ الاتّسع الذي فيه هو اتّسع بالمعاني؛ فهو ثريٌّ بالمعنى، ممتلئٌ بالحركة.

وفي توجّهنا إلى مبنى العربية، وما يتعلّق باللغة، نرى أنّ مصطلح الاتّسع دالٌّ على التجوّز والسماح والرّخصة في الاستخدام اللغويّ؛ فمثلاً: "قد يذهبُ بالظرف عن أن يُقدّر فيه معنى (في) اتّسعاً فيجري لذلك مجرى المفعول به، فيقال: الذي سرّته يوم الجمعة... ولولا الاتّسع لقلت: سرّته فيه"¹⁷. وكذلك من المتعارف عليه أنّ المعنى الأصلي لحرف الجرّ (الباء) هو الإلصاق؛ فإذا قلت عن أحدهم: به شيبٌ، فهو مُلتصِقٌ به، لكن إذا قلت: مررتُ به، فهو "واردٌ على الاتّسع، والمعنى التصقّ مروري بموضع يقربُ منه"¹⁸. وكذلك يأتي حرفُ الجرّ (على) للاستعلاء؛ لكنك "تقول على الاتّسع: مررتُ عليه، إذا جرّته"¹⁹. فهو إباحةٌ لغويّةٌ مستساغةٌ.

¹⁵ شرح القصائد العشر: التبريزي، تحقيق: فخر الدين قباوة، ط1، المكتبة العربية، حلب، 1388هـ/1969م، ص61.

¹⁶ العمدة: ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج2، ط2، مطبعة السعادة، مصر، 1374هـ/1955م، ص93.

¹⁷ المفصل في علم العربية: الزمخشري، ط1، مطبعة التقدم، مصر، 1323هـ، ص55 و56.

¹⁸ السابق، ص285.

¹⁹ السابق، ص288.

كما أنهم قد يستخدمون الاتّساعَ بمعنًى نقيضٍ للأنسنة تمامًا، كما في تعليق أبي علي القالي (ت 356هـ) على البيت²⁰:

إذا شئتُ غنّيتي دهاقينُ قريّةٍ وصنّاجةٌ تجذّو على كلّ منسِمٍ

إذ قال: "جعلَ للإنسانَ منسِمًا على الاتّساعِ، وإنّما المنسِمُ للجمل"²¹. وهنا أضاف الشاعرُ صفةَ الحيوان إلى الإنسان، ممّا أضاف بُعدًا آخر للاتّساعِ، يقف على الطرف النقيض من الأنسنة.

وكلُّ ما سبق يدلّ على أنّ الاتّساعِ يشير إلى معانٍ متفرّقةٍ، قد يكون أحدها الأنسنة؛ ولكنّه لا يشير إلى أنّه هي؛ بل ربّما أشار إلى نقيضها.

أمّا التوسّعُ فيستخدمونه بمعانٍ مشابهةٍ لاستخدامهم الاتّساعَ، حتّى لتظنّ أنّهم لا يفرّقون بينهما. وقد استخدمه ابن الأثير بالمعنى الدالّ على الأنسنة، وهو المعنى نفسه لاستخدامه الاتّساعَ، من دون تفرّيق؛ إذ جعل قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾²²، وقول الرسول الكريم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن جبل أُحُد: "هذا جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه"²³، من التوسّع²⁴؛ وجعل من ذلك مخاطبةَ الأطلالِ وسؤالِ الأحجار²⁵. والتوسّعُ هنا هو الأنسنة نفسها، فالبكاءُ والحُبُّ عاداتٌ بشريّةٌ أُسقطتُ هنا على غير البشر، كذلك المخاطبةُ والسؤالُ يكونان بين عاقلين، وهنا انحرافٌ بهما عن الأصل بتوجههما إلى غير العاقل. وهذا المعنى للتوسّع عند ابن الأثير هو معنى الاتّساعِ عنده، كما سبق ورأينا؛ فهو يستخدمهما بمعنًى واحدٍ، من دون أن يلتزم بأحدهما.

²⁰ الأمالي: أبو علي القالي، ج 2، ط 2، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1344هـ/1926م، ص 120.
الدهاقين: التّجّار. صنّاجة: ذات صنج. تجذو: الجاذي كالجائي. المنسِم: خف البعير. والبيت للنعمان بن عدي بن نضلة.

²¹ السابق، ص 120.

²² سورة الدخان، الآية 29.

²³ صحيح البخاري: البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ج 3، ط 3، دار ابن كثير، بيروت،

1407هـ/1987م، ص 1058.

²⁴ يُنظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج 1، ص 363.

²⁵ يُنظر السابق، ج 1، ص 364.

ومثلما دلّ الاتّساعُ على الاتّساع في المعنى، كذلك يدلُّ التوسُّعُ على التوسُّع في المعنى والكلام، ودليلُهُ قولُ الجاحظ (ت 255هـ): "إنَّ الشعراء يجعلون الفروجَ فرجًا على التوسُّع في الكلام، ويجوّزون في الشعر أشياء لا يجوّزونها في غير الشعر"²⁶. وعليه فالكلام الذي يحتمل التأويلَ والوجوهَ والمجازَ هو توسُّع.

وكما يدخل الاتّساعُ في علم اللغة، كذلك يدخل التوسُّعُ؛ إذ يُعرَفُ بأنّه: "الإتيانُ في عَجْزِ الكلامِ بمثنى مُفسَّرٍ باسمينِ ثانيهما معطوفٌ على الأوّل، نحو خبر: يشيبُ ابنُ آدم ويشيبُ معه خصلتان: الحرصُ وطولُ الأمل"²⁷، فالمثنى (خصلتان) فُسِّرَ باسمين: الحرص، وطول الأمل، وثانيهما معطوفٌ على الأوّل، وهذا توسُّعٌ حسب التعريف.

ومما استعرضناه من آراء الأقدمين نستنتج أنّ للاتّساع والتوسُّع الاستخداماتِ نفسها، وأنّهما يدلّان على معانٍ شتى؛ فيما يعبران عن الأنسنة، وعن السعة في المعنى، ولهما استخدامٌ في اللغة، ورتبما جاء أحدهما بمعنى يناقضُ الأنسنة. لكنهما غيرُ مضبوطين في الاصطلاح العربيّ، وهما بحاجة إلى دراسةٍ مستقلةٍ لضبطهما ووضع الحدود الخاصة بهما. لكن ما همّنا هنا أنّهما لا يمكن أن ينوبا عن الأنسنة، وإنّ لوحظ أنّ الأنسنة يمكن أن تكون جزءًا منهما، لا إياهما.

وبهذا تبين أنّ الأسلاف العربَ تحدّثوا في الأنسنة، لكنّ باصطلاحٍ مختلفٍ، وغير مضبوطٍ، ومتعدّد الإشارات، ولا يشجّع على استخدامه للتعبير عن إضفاء صفات الإنسان على غيره، بما في هذا الإضفاء من أبعادٍ جماليّة.

2-2: التشخيص، والتجسيم، والتجسيد:

قد يُعبّر عن الأنسنة بمصطلحات التشخيص والتجسيم والتجسيد، من دون التدقيق في المعاني الحقيقيّة لهذه المفردات. ولما كنتُ أذهب بالأنسنة إلى ما يشير إلى حركة الإنسان بتكاملٍ داخليٍّ وخارجيٍّ، وأنأى بها عمّا يخصُّ أحدهما من دون الآخر، أو

²⁶ الحيوان: الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ج1، مكتبة مصطفى الباي الحلبي وأولاده، مصر، 1356هـ/1938م، ص199.

²⁷ التعاريف: المناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط1، دار الفكر المعاصر- دار الفكر، بيروت - دمشق، 1410، ص215. وفي سنن البيهقي الكبرى: "قال رسول الله (ص): يهرم ابن آدم ويبقى منه اثنتان: الحرص وطول الأمل". سنن البيهقي الكبرى: البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج3، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1414هـ/1994م، ص368.

عمّا يبتعد كلياً عن الإنسان، فلا بدّ من أن أورد ما وجدته من معاني التشخيص والتجسيم والتجسيد:

- التشخيص:

الشخصُ، في القاموس المحيط، هو سوادُ الإنسان وغيره عندما تراه من بعيدٍ، وجمعه أشْخصٌ وشخوصٌ وأشخاصٌ. وشَخَصَ، كَمَنَعَ، شُخوصًا: ارتفع. وشَخَصَ بَصْرَهُ: فتح عينيه وجعل لا يطرّف. وشَخَصَ من بلدٍ إلى بلدٍ: ذهب وسار في ارتفاعٍ، والجرحُ: انبتر وورمٌ، والسهمُ: ارتفع عن الهدف، والنجمُ: طلع، والكلمةُ من الفم: ارتفعت نحو الحنك الأعلى. والشخصُ: الجسمُ. وأشخصه: أزعجه. والمتشخصُ: المُتخلفُ والمتفاوت²⁸. وجاء في لسان العرب: "كلُّ شيءٍ رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه... (و) الشخصُ كلُّ جسمٍ له ارتفاعٌ وظهورٌ...، والشخوصُ ضد الهبوط"²⁹. وفي أساس البلاغة: "امرأةٌ شخِصَةٌ كقولك جسيمَةٌ"³⁰. وفي التعريفات: "التشخُّصُ: هو المعنى يصيرُ به الشيءُ ممتازًا عن الغير، بحيث يُميّزُ لا يشاركه شيءٌ آخر"³¹.

إنّ المعاني المعجمية للتشخيص ليست لصيقةً بالإنسان؛ قد تشير إليه من جوانبٍ، لكنّها خارجيّةٌ، يرتبط فيها مع غيره؛ فكلُّ شيءٍ تراه العين فهو شاخصٌ أمامها، وليس بالضرورة أن يكون هذا الشيءُ إنسانًا³². ومعنى التشخيص مرتبطٌ أيضًا بالسهم والنجم والكلمة والظهور والتمايز والبدانة؛ وهذه المعاني لا تجعلُ مفردةَ التشخيص بديلةً عن الأنسنة، المأخوذةً أصلًا من الإنسان وصفاته.

ولدينا شاهدان من شعر الجاهليّة يوحيان لنا ببُعد التشخيص عن الأنسنة المرادة: أولهما قولُ عُمر بن الجعد في إحدى المعارك³³:

²⁸ يُنظر القاموس المحيط: الفيروز ابادي، ج2، المطبعة الميمنية بمصر، د.تا، مادة شَخَصَ.

²⁹ لسان العرب، مج7، مادة شخص.

³⁰ أساس البلاغة: الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود ج1، ط1، دارالكتب العلميّة، بيروت،

لبنان، 1419هـ/1998م، مادة شخص.

³¹ التعريفات، ص32.

³² نتذكر هنا - ممّا له علاقة باشتقاق التشخيص - شاخصات المرور، وكذلك التشخيص الطبي؛ ولا علاقة

لشيء من هذا بالأنسنة.

³³ شرح أشعار الهذليين: السكري، حققه: عبد الستار أحمد فراج، راجعه محمود محمد شاكر، ج1، مكتبة

دارالعروبة، القاهرة، د.تا، ص464. خذروف: أتان سمينة.

وإذا أرى شَخْصًا أمامي خِلْتُهُ رَجُلًا، فَجُلْتُ كَمَيْلَةَ الْخُدْرُوفِ

والبيت شاهدٌ على افتراق الشخْص عن الرجل. وثانيهما قولُ الأعشى³⁴:

فاسْتَنْزَلُوا أَهْلَ جَوٍّْ مِنْ مَسَاكِيهِمْ وَهَدَّمُوا شَاخِصَ الْبُنْيَانِ، فَاتَّضَعَا

فالشُّخُوصُ فِيهِ لِلْبِنْيَانِ. فالتشخيص مرتبٌ، في الأغلب، بالمادّة الملموسة في اللغة العربية.

أما إذا انتقلنا إلى عصرنا الحديث فنجد أنّ التشخيص، فكريًا، يأخذ مناحيَ أخرى؛ ففرويد يصف التشخيص بانحلال الفكر المجرد إلى تصوّراتٍ مرئيةٍ³⁵، وهذه العملية تُسمّى بـ"التريّة visualisation" للفكرة (أي قلب الفكرة إلى صورةٍ مرئيةٍ)³⁶؛ ففكرة الخشونة قد تُحيل إلى تصوّر الخشب، لارتباط الخشونة بالخشب³⁷؛ أي: تخيل الفكرة الذهنيّة كأنّها أمام الحواس.

وبعض الباحثين جعل التشخيصَ استحضارَ شيءٍ غيرِ موجودٍ، كأنّه شاخصٌ أمامنا، فالتشخيص يجعل المتلقّي يخضع "لسلطان الذاكرة وأحكام التداعي"³⁸. وهذا المعنى لا يختلف عن سابقه من حيث تحويل الفكرة إلى مادّة شاخصه أمامنا.

ومن الباحثين من رأى أنّ مفردة شخص "تُطلق على المجسّم عاقلًا كان أو غيرَ عاقل"³⁹، ممّا ينفي اقتصارَ إطلاقها على الإنسان، بل تُطلق على كلّ ما له جسمٌ من إنسان وغيره، ممّا يُؤكّد التصاقَ المعنى بالمادة.

³⁴ ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر، د.ت.ا، ص103.

³⁵ يُنظر طريقة التحليل النفسي والعقيدة الفرويدية: رولان دالبييز، ترجمة: حافظ الجمالي، ط1، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1983م، ص94.

³⁶ السابق، ص95.

³⁷ يُنظر السابق، ص95.

³⁸ دراسة الأدب العربي: مصطفى ناصف، ط3، دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1983م، ص27.

³⁹ الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية (القدامة وتحليل النص): عبد الإله الصائغ، ط1، المركز

الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 1997م، ص127.

والتشخيص في بعض معانيه يرتبط أيضًا بالمرح، ويوجد من ألف في ذلك باحثًا ودارسًا في المسرحيات وشخصياتها⁴⁰، وهو هنا يرتبط أيضًا باستحضار غير الموجود، ويرتبط بتحويل الفكرة إلى وجودٍ وحركة.

كلُّ ما سبق يجعلني أستبعد ارتباط التشخيص بالغايات التي تبتغيها الأنسنة، والتي تسعى إلى الارتباط الحصريّ بالإنسان، مُخْلِصَةً لاشتقاقها اللغويّ.

- التجسيم:

ربّما لا يحتاج الأمرُ كثيرَ عناءٍ لنلاحظ أنّ الجسم هو خارجٌ وشكلٌ نُطْلِقُهُ على كلِّ ما يلامس حواسنا، وإن ارتبط أحيانًا بعظْمَةِ الخَلْق؛ فالجسمُ "جماعةُ البدن أو الأعضاء من الناس والإبل والدواب وغيرهم من الأنواع العظيمة الخلق... (و) جسمُ الشيء حقيقته، واسمُه ليس حقيقةً"⁴¹. وإذا كان الاسم ليس حقيقةً، فهو معنويٌّ: فاللموس - أي الشكلُ الخارجيُّ والبدنُ - هو الحقيقةُ إذًا.

وقد خاض المعتزلة كثيرًا في مفهوم التجسيم، وكانت آراؤهم تشير إلى أنّ الجسمَ صاحبٌ وجودٍ حقيقيٍّ ملموسٍ، له حدودُه وحيزُه المكانيُّ. فالجسم في نظر أبي الهذيل (ت 235هـ) "هو ما له يمينٌ وشمالٌ، وظهْرٌ وبطنٌ، وأعلى وأسفل"⁴²؛ وهو عند النّظام (ت 230هـ) "الطويلُ العريضُ العميقُ، وليس لأجزائه عددٌ يُوقَفُ عليه"⁴³؛ والأجسام عند القاضي (ت 392هـ) "لا تكون إلا متحيّزةً وموصوفةً بعرض"⁴⁴. ولا يشير الكلامُ السابقُ إلى أنّ هذا الجسمَ خاصٌّ بالإنسان بدنًا وروحًا. وكذلك قال الأشاعرةُ: "الجسمُ مُركَّبٌ من مادةٍ وصورَةٍ"⁴⁵.

⁴⁰ كما فعل جان ألكسان، مثلًا، في كتابه: التشخيص والمنصة (دراسات في المسرح العربي المعاصر)، الصادر عن اتحاد الكتّاب العرب في دمشق 1989م. ولا يبتعد المشخّصاتي عن هذا التوجّه.

⁴¹ لسان العرب، مج 12، مادة جسم.

⁴² المعتزلة والفكر الحرّ: عادل العوّا، ط1، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، 1987م، ص136.

⁴³ السابق، ص139.

⁴⁴ السابق، ص145.

⁴⁵ الملل والنحل: الشهرستاني، صحّحه وعلّق عليه: أحمد فهمي محمد، ج1، ط1، مطبعة حجازي، القاهرة، 1368هـ/1948م، ص135.

فالتجسيم يشير إلى كتلةٍ وحجمٍ لا يختصان بالإنسان وحده، بل به وبغيره، وهذا يدعو أيضًا إلى رفض أن يكون التجسيم معيّرًا عن الأنسنة.

- التجسيد:

لا يختلف الكلام في التجسيد كثيرًا عما كان عليه في التجسيم؛ إلا أن ابن منظور قال: "ولا يُقالُ لغير الإنسانِ جسدٌ من خَلْقِ الأرض"⁴⁶، وبهذا جعل الجسدَ خاصًا بالإنسان، وهو جسدٌ بالنتيجة، لكنّه جسدُ الإنسان؛ وربّما هذا ما جعل أحد الباحثين يقول عن التجسيد إنّه: "أُدخِلَ في معنى الأنسنة باعتدادِ الجسدِ خاصًا بالإنسان"⁴⁷. إلا أنّ صاحب القاموس المحيط قال عن الجسد بأنّه: "جسدُ الإنسان والجنّ والملائكة والرّعفران"⁴⁸، لكنّه لم يُخرِجه عن الشكل والمادة.

فالتجسيد شكلٌ خارجيٌّ لا يختلف عن التجسيم كثيرًا؛ لكنّ الواضح أنّهما - وإن لم يكن بالإمكان حلولُ أيٍّ منهما محلَّ الأنسنة - يمكن أن يدخُلا في الأنسنة بوصفهما يدلان على البدن والصفات الخارجيّة، خصوصًا التجسيد، الذي يكاد يختصُّ بجسم الإنسان. فنحن نستطيع القول: إنّ التجسيم والتجسيد هما الصفةُ الظاهريّةُ للأنسنة، التي لا يمكن أن تُعوّضَ عن الباطن الإنسانيّ، الذي تظهر صفاته على الأشياء الخارجة عن طبيعة الإنسان؛ كما لا يمكن أن تُختصرَ صفاتُ الإنسان بظاهره.

3- مقارباتٌ غيرُ عربيّةٍ للأنسنة:

1-3: الإحيائية والطفوليّة:

قد تتمدّد الطفولةُ في لاشعور الإنسان مترافقةً مع حياته، لتظهر حيّةً بين الفترة والأخرى، عند كلّ استفزازٍ للذاكرة؛ إذ إنّ "كلّ مؤثّرٍ نتقبّله يترك طابعًا أو أثرًا معيّنًا يمكن إحياءه فيما بعد بحيث يشارك في وعينا، ويؤثّر في سلوكنا"⁴⁹. وقد تتشارك دوافعُ الطفولة مع دوافعِ نفسيّةٍ وجماليّةٍ تحضُّ الناسَ عامّةً، والشعراءَ خاصّةً، على بعث الحياة في الموجودات والغيبّيّات، فيُحيون ما لا حياةَ فيه. وارتباطًا بهذا الفعل نشأت الإحيائيّة، التي

⁴⁶ لسان العرب، مج 3، مادة جسد.

⁴⁷ الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية (القدامة وتحليل النص)، ص 127.

⁴⁸ القاموس المحيط، ج 1، مادة جسد.

⁴⁹ محاضرات في طبيعة الفن ومسئولية الفنان: محمد النوبي، المطبعة الكمالية، جامعة الدول العربيّة -

معهد الدراسات العربيّة العالية، 1958م، ص 46.

تشير في بعض جوانبها إلى "مذهب حيوية الطبيعة التي نرى نحن أنّها هامة، لا حياة فيها"⁵⁰.

إلا أنّ علماء النفس والتربية ربطوا هذه الإحيائية بالبدائية والطفولية؛ ففي حديث فرويد عن الإحيائية يربط بينها وبين البدائية، التي هي أول تصوّرات البشريّة؛ فالإنسان كان يتصوّر سائر الكائنات الأخرى بأنّها مشابهة للإنسان⁵¹. ففي نظر الإنسان البدائيّ كانت الإحيائية تصوّراً طبيعياً، وكانت تحمل في ذاتها تبريرها، وكان يعلم أنّ الأشياء التي يتألّف منها العالم تسلك عين مسلك الإنسان، بحسب ما تفيده تجربته الخاصة. فلا يأخذنا العجبُ إذن إذا رأينا الإنسان البدائيّ يُسقط على الخارج تنظيمه النفسيّ الخاص⁵². وفرويد يُسمّي هذا الإسقاط بـ "الانفراج النفسي"⁵³.

وإذا كان فرويد ذهب عميقاً في الزمن إلى بدائيته، فإنّ العالم السويسريّ جان بياجيه ركّز في بحوثه على الأطفال في مراحلهم العمرية، ودرس تعاملهم مع العالم المحيط، فلاحظ "أنّ الطفل الصغير ينسب الحياة إلى الجمادات، وأنّ الحياة في نظره مرادفةٌ للشعور؛ فالشجرة تحزن حين تغيب الشمس، والمسمار يتألّم وهو يدقُّ في الحائط"⁵⁴. وبياجيه يعلّل إعطاء الطفل الأوامر للأشياء الحية وغير الحية "بتأثير النشوة اللفظية والتوهّم المقصود"⁵⁵.

وما بين فرويد وبياجيه أرى أنّ الأنسنة لا بدّ من أن ترتبط بالإحيائية. لكن؛ أتكون الأنسنة تعبيراً عن بدائية، أم تعبيراً عن طفولية الشاعر، أو عن كليهما؟ ربّما تكون بدائيةً داخليةً، لا تُعبّر عن بدائية العصر الذي يعيش فيه الشاعر. وهي، من هنا، طفولةٌ ملازمةٌ

⁵⁰ الطوطم والحرام: سيغموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشي، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1983م، ص101.

⁵¹ يُنظر السابق، ص103. ويرى فرويد هنا أنّ الإحيائية تحمل الشروط المسبقة لكل ديانة سترى النور لاحقاً، ويربط بين الإحيائية والأسطورة.

⁵² السابق، ص121.

⁵³ السابق، ص122.

⁵⁴ علم النفس العام (فصول في علم النفس): أحمد عزّت راجح، ط9، منشورات جامعة دمشق، 1420 - 1421هـ/ 1999 - 2000م، ص69.

⁵⁵ اللغة والفكر عند الطفل: جان بياجيه، ترجمة: أحمد عزّت راجح، راجعه: أمين مرسي قنديل، ط1،

مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1954م، ص36.

لحياة الشاعر. والشعرُ يصدر غالبًا عن عفويّةٍ ولاوعيٍّ، وهذه حالُ الطفل. والطفولة هي بدائيّةٌ خاصّةٌ جدًّا، يكون تأثيرها عند الشاعر أكبرَ حضورًا ممّا عند غيره؛ فالفنان، عند شارل لالو، هو الشخص الذي يحتفظ طولَ حياته بنصاعة أحاسيس الطفولة، وتلقائيتها⁵⁶. والطفولةُ قادرةٌ على الظهور العفويّ في مستقبل الفنّان، ظهورٌ يُحاكي تلك الأحاسيسَ في نضارتها وجدّتها⁵⁷.

2-3: الإناسة عند ستروس:

يصادفنا مصطلحُ الإناسة مع مصطلحاتٍ أخرى مثل: النياسة والإنسيّة والأُناس والنيّاس، في البحوث الأنثروبولوجيّة⁵⁸. ويُعدُّ كلود ليفي ستروس أحد أهمّ الباحثين في هذا المجال. وقد قدّم ستروس توضيحًا لهذه المفردات. فالإناسةُ تشير إلى الأشكال الفكرية التي تُسمّى بالأشكال الخرافيّة⁵⁹، بما تحمله من طقوس رمزيّة وكلامٍ أسطوريّ وإشاراتٍ يتكوّن منها طقسٌ من الطقوس، وكذلك قواعد الزواج، والأعراف، وصيغ التبادلات الاقتصادية. وقد جعل ستروس مكانَ الإناسة في الدراسات السيميائيّة⁶⁰.

وبينما تسعى الإناسة إلى اكتشاف القوانين العامّة التي تحكّم الطبيعة والمجتمع، فإنّ النياسة "تسعى إلى تركيب ماضي المجتمعات البدائيّة من جديد"⁶¹. أمّا الإنسية، فتبدو أكثر التصاقًا بحياة الإنسان وسيرورته التاريخيّة، فنجد الإنسيّة الأرسطراطيّة في عصر النهضة، ثمّ الإنسيّة البرجوازيّة في القرن التاسع عشر، ثمّ تأسست إنسيّة ديمقراطيّة

⁵⁶ يُنظر مبادئ علم الجمال "الاستطيقا": شارل لالو، ترجمة مصطفى ماهر، راجعه وقدّم له: يوسف

ماهر، دار إحياء الكتب العربية، 1959م، ص 77.

⁵⁷ يُنظر الفنّون والإنسان (مقدّمة موجزة لعلم الجمال): اروين إدمان، ترجمة: مصطفى حبيب، دار مصر للطباعة، د.ت.ا، ص 77.

⁵⁸ الأنثروبولوجيا: مصطلح مركّب من مقطعين من اللغة اليونانية، هما: anthropos وتعني الإنسان، وlogy وتعني علم، فهي "علم الإنسان". وتنقسم إلى ثلاثة أنواع: طبيعية واجتماعية وثقافية. يُنظر الأنثولوجيا (دراسة المجتمعات البدائية): محمد الخطيب، ط1، دارعلاء الدين، دمشق، 2000م، ص 13.

⁵⁹ يُنظر الإناسة اللبنانية: كلود ليفي ستروس، ترجمة: حسن قبسي، مركز الإنماء القومي، لبنان، د.ت.ا، ص 5. وقد أطلق ستروس على الباحثين في الإناسة اسم الأُناس والنيّاس.

⁶⁰ يُنظر السابق، ص 10.

⁶¹ يُنظر السابق، ص 12.

"تتضادُّ مع المذهبين اللذين سبقاها، باعتبار ولادتهما انطلاقاً من حضاراتٍ ذات امتيازاتٍ ولمصلحة [فئاتٍ] ذات امتيازاتٍ"⁶². فستروس يربط الإنسية بالطبقات الاجتماعية.

والملاحظ في هذه المصطلحات التي ناقشها ستروس أنها لا تعني إضفاء صفات الإنسان على غيره من الكائنات والموجودات؛ أي لا تقصد أنسنة الآخر المختلف عن الإنسان. إلا أنّ هذه المصطلحات هي جزءٌ من بنية عِلْمٍ يبحث في الإنسان.

4- مؤلفات عربية في الأنسنة:

قلّما استُخدِمَ مصطلحُ الأنسنة في الدراسات العربية، أمّا دلالته على المعاني التي وصلت إليها في هذا البحث فنادرٌ جداً؛ بينما ورد غالباً للتعبير عن النزعة الإنسانية للفكر. وقد وقفتُ على ستة كُتُبٍ جاء مصطلحُ الأنسنة جزءاً من عنوانها⁶³: اثنين للمفكر محمد أركون، وكتابٍ لكليّ من: أسعد شطارة سليم، وعلاء الدين آل رشي، وحسن ناظم، ومرشد أحمد.

في كتابه الأوّل: نزعة الأنسنة في الفكر العربي، جيل مسكويه والتوحيدي، يريد محمد أركون بالأنسنة النزعة الإنسانية، التي تعني احترام الإنسان، باحثاً عنها في الوسط الإسلامي⁶⁴، خاصّاً مسكويه والتوحيديّ بالبحث. ويربط الكاتبُ ازدهارَ هذه النزعة بازدهار النزعة العقلانيّة⁶⁵.

وتكلّم أركون في كتابه الثاني: معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلاميّة⁶⁶، عن الأنسنة "الملتزمة التزاماً كاملاً بقضايا الإنسان كإنسانٍ، بغضّ النظر عن استغلال

⁶² الإناسة البنيناية: كلود ليفي ستروس، ص 251.

⁶³ وذلك فيما وصل إليه جهداً في أثناء إعداد هذا البحث.

⁶⁴ وقد واجه المترجم مشكلةً في ترجمة مفردة: (humanisme). كما يُصرّح هو؛ فتارةً يترجمها: الفلسفة

الإنسانية، وتارة: النزعة الإنسانية، ومرة: الاتجاه الإنسي، ومرة أخرى: الإنسية، وأخرى: التيار الإنساني والعقلاني في الساحة العربية. يُنظر نزعة الأنسنة في الفكر العربي، جيل مسكويه والتوحيدي: محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، ط1، دار الساقى، بيروت، لبنان، 1997م، هامش ص 16.

⁶⁵ يُنظر نزعة الأنسنة في الفكر العربي، جيل مسكويه والتوحيدي، ص 14.

⁶⁶ وفي هذا الكتاب يشير المترجم إلى إصرار المؤلف على مصطلح الأنسنة. يُنظر معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية: محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، ط1، دار الساقى، بيروت، لبنان، 2001م، هامش ص 7.

معالجة تلك القضايا لأغراضٍ شخصيّة، أو أيديولوجيّة، أو مادّيّة⁶⁷. ويُحدّد الكاتبُ غايته من المصطلح بلفت الانتباه إلى الأبعاد الغائيّة التي ازدهرت في عصر الأدب والأدباء، وبالعودة إلى إحياء الموقف الفلسفيّ في الفكر العربيّ خاصّةً، والإسلاميّ عامّةً⁶⁸.
 وبتحديد الغايات هنا يبتعد المصطلح عند أركون عمّا هو عليه في دراستنا هذه؛ فالنزعةُ الإنسانيّةُ، والعقلانيّةُ، والالتزامُ بقضايا الإنسان، وازدهارُ الأبعاد الإنسانيّة في عهد الأدب والأدباء، وإحياءُ الموقف الفلسفيّ؛ رغباتٌ ذاتٌ منحنى فكريّ، لا تتقاطع مع غايات إضفاء صفات الإنسان النفسيّة والجسديّة على غير الإنسان، وأحياناً قد تتعارض؛ فالبحث عن العقلانية قد يتعارض مع مقولة بدائيّة الشاعر وطفوليّته وهو يُحيي الأشياء من حوله؛ وإن قلنا إنّه يُعقلّمها، فليس المقصود أنّه يجعلها كائناتاً عاقلاً ومفكّراً على الحقيقة.

والارتباط الفكريّ الساعي إلى خدمة الإنسان واحترامه يتّضح أكثر عند أركون عندما يجعل الأنسنة بديلاً من ذهنية التحريم والتكفير⁶⁹. ومن ثمّ فمصطلح أركون، بارتباطاته السابقة جميعاً، ليس خادماً لمصطلح الأنسنة بمنحاه الأدبي المستقل عن التجاذبات الأخرى.

بينما يبحث أسعد سليم شطارة في كتابه: أنسنة النُظم الاجتماعيّة (تصوّر لعالم أفضل)، في مفهوم الإنسانيّة بأبسط معانيه، التي تتمثّل في أحاسيس الرحمة والإحسان والإغاثة واحترام حقوق الإنسان، ويبحث في مفهوم الإنسانيّة العامّ الذي يتناول حياة الإنسان من جوانبها جميعاً⁷⁰. وهو بهذا لا يخرج عن محور أركون. والكاتب لا يتحدّث عن مصطلح الأنسنة ولا يقترب منه، إنّما يبحث في الإنسانيّة والمؤسسات الاجتماعيّة الناظمة للعلاقات البشريّة، وعن القيم السائدة في المجتمعات والحياة الأسريّة.

⁶⁷ معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، ص 8.

⁶⁸ يُنظر السابق، ص 12.

⁶⁹ يُنظر معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، ص 7.

⁷⁰ أنسنة النظم الاجتماعيّة (تصوّر لعالم أفضل): أسعد سليم شطارة، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995 م، ص 22.

أما علاء الدين آل رثي في كتابه: الإنسان أولاً، مقاربات في أنسنة الخطاب الإسلامي عند الدكتور صلاح الدين كفتارو⁷¹، فيفصّل في رؤيا الدكتور صلاح الدين كفتارو حول مناحي الحياة جميعاً: الدين، والفكر، والاقتصاد، والسياسة، والمستقبل؛ وبهذا يتداخل مع مفهوم محمد أركون أيضاً.

ويتكلّم حسن ناظم في كتاب: أنسنة الشعر، مدخلاً إلى حادثة أخرى: فوزي كريم نموذجاً، عن التجربة الشعرية للشاعر العراقي فوزي كريم. لكنّ توجه الأنسنة في هذا الكتاب لا يختلف عن طرح محمد أركون، فأنسنة الشعر عند الكاتب "هي تنوير الإنسان عبر الشعر، هي أن يكون الشعرُ ملتجئاً بحسّ الرسالة الإنسانية"⁷². ويُفهّم من هذا أنه يريد أن يُحقّق وجوداً إنسانياً فاعلاً للشعر، ليقوم بدور التنوير والتثقيف، من خلال رسالة إنسانية؛ وهذا يعني اتجاه المصطلح باتجاه النزعة الإنسانية.

والكتاب يستفيض بالحديث عن كتاب فوزي كريم (ثياب الإمبراطور: الشعر ومرايا الحداثة الخادعة)، وكذلك عن بيان جيل الستينيات في العراق. وفي الكتاب حوارات ومراسلات كثيرة مع الشاعر.

إلا أنّ كتاب: أنسنة المكان في رو ايات عبد الرحمن منيف، للدكتور مرشد أحمد، هو أكثر الكتب صلةً بالأنسنة التي أصّلنا لها في هذا البحث؛ فالكاتب، منذ البداية، يرى أن الفنّان باستخدامه الأنسنة يضي "صفات إنسانية محدّدة على الأمكنة، والحيوانات، والطيور، والأشياء، وظواهر الطبيعة؛ حيث يشكّلها تشكياً إنسانياً، ويجعلها كأيّ إنسانٍ تتحرّك وتحسّ، وتعبرّ، وتتعاطف، وتقسو حسب الموقف الذي أُنسنت من أجله"⁷³. وهذا المعنى هو الأكثر التصاقاً بالجانب الأدبي للأنسنة، وهو الجانب الذي عالجناه هنا.

وأختلف مع المؤلّف في فهمه للتشخيص، فهو يُسمّي منخ الصفات الإنسانية الجوهرية للأشياء تشخيصاً، ويُسمّي منخ الذات للأشياء جسمها وأعضائها تجسيداً⁷⁴. وإن كنتُ

⁷¹ الإنسان أولاً، مقاربات في أنسنة الخطاب الإسلامي عند الدكتور صلاح الدين كفتارو: علاء الدين آل رثي، مركز الناقد الثقافي، دمشق، د.تا.

⁷² أنسنة الشعر، مدخلاً إلى حادثة أخرى: فوزي كريم نموذجاً: حسن ناظم، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006م، ص13.

⁷³ أنسنة المكان في رو ايات عبد الرحمن منيف، ص7.

⁷⁴ يُنظر السابق، ص7 و8.

اعتمدتُ التجسيدَ صفةً ظاهريةً للأنسنة، فإنّ نتائج بحثي في التشخيص اختلفت مع رؤية الدكتور مرشد أحمد له، لأسبابٍ عديدةٍ مرّ ذكرُها، لمستُ بسببها دلالةَ التشخيص على معانٍ ومفاهيمٍ شتى لا تُحدّد بمنح الصفات الإنسانية الجوهرية للأشياء. ولا نجد في كتاب: أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، تأصيلًا أو تقصيرًا لمعنى الأنسنة لغويًا وفكريًا، كما لا نجد فيه تفريقًا بين مصطلح الأنسنة والمصطلحات التي تُستخدم بدلًا منه؛ لذلك لم تحصل الفائدة النظرية المرجوة منه.

خاتمة:

مما سبق يتبيّن لنا أن "الأنسنة" مصطلحٌ قائمٌ بذاته، ودالٌّ على معانٍ خاصّةٍ به، وإن اشترك مع مصطلحاتٍ أخرى ببعض النقاط. وأرجو أن يكون هذا التأصيل قد أزال اللبس والخلط بين المصطلحات الأدبية، وكذلك أن يكون ميّز المصطلح الأدبي من المصطلح الفلسفي؛ كما أرجو أن يكون هذا التأصيل طريقًا للاستخدام المنضبط الدقيق له وللمصطلحات التي تشاركه ببعض المعاني.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

1. الأثنولوجيا (دراسة المجتمعات البدائية): محمد الخطيب، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 2000م.
2. أساس البلاغة: الزمخشري، تحقق: محمد باسل عيون السود ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـ/1998م.
3. أسرار البلاغة في علم البيان: عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وتعليق: محمد رشيد رضا، ط2، مطبعة المنار بمصر، 1344هـ/1925م.
4. الأمالي: أبو علي القالي، ج2، ط2، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1344هـ/1926م.
5. الإناسة البنائية: كلود ليفي ستروس، ترجمة: حسن قبيسي، مركز الإنماء القومي، لبنان، د.تا.
6. الإنسان أولاً، مقاربات في أنسنة الخطاب الإسلامي عند الدكتور صلاح الدين كفتارو: علاء الدين آل رشي، مركز الناقد الثقافي، دمشق، د.تا.
7. أنسنة الشعر، مدخل إلى حدائنة أخرى: فوزي كريم نموذجًا: حسن ناظم، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006م.
8. أنسنة النظم الاجتماعية (تصوّر لعالم أفضل): أسعد سليم شطارة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995م.
9. التشخيص والمنصة (دراسات في المسرح العربي المعاصر)، الصادر عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق 1989م.
10. التعاريف: المناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط1، دار الفكر المعاصر - دار الفكر، بيروت - دمشق، 1410.
11. التعريفات: الجرجاني، الدار التونسية للنشر، 1971م.
12. التفسير النفسي للأدب: عزّ الدين إسماعيل، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، د.تا.
13. الحيوان: الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ج1، مكتبة مصطفى الباي الحلبي وأولاده، مصر، 1356هـ/1938م.
14. خزانة الأدب ولبّ لباب العرب: عبد القادر البغدادي، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ج1، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1387هـ/1967م.

15. الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية (القدامة وتحليل النص): عبد الإله الصائغ، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 1997م.
16. دراسة الأدب العربي: مصطفى ناصف، ط3، دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1983م.
17. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ضبط وتعليق: محمد رشيد رضا، ط2، مطبعة المنار، مصر، 1331هـ.
18. ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر، د.تا.
19. ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، مج2، دار المعارف، مصر، القاهرة، 1979م.
20. ديوان الحماسة: أبو تمام، شرح التبريزي، ج1، ط1، مطبعة السعادة، مصر، 1346هـ/1927م.
21. سنن البيهقي الكبرى: البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج3، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1414هـ/1994م.
22. شرح أشعار الهذليين: السكري، حققه: عبد الستار أحمد فراج، راجعه محمود محمد شاكر، ج1، مكتبة دار العروبة، القاهرة، د.تا.
23. شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقدم له: إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1962م.
24. شرح القصائد العشر: التبريزي، تحقيق: فخر الدين قباوة، ط1، المكتبة العربية، حلب، 1388هـ/1969م.
25. صحيح البخاري: البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ج3، ط3، دار ابن كثير، بيروت، 1407هـ/1987م.
26. طريقة التحليل النفسي والعقيدة الفرويدية: رولان دالبيز، ترجمة: حافظ الجمالي، ط1، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1983م.
27. الطوطم والحرام: سيغموند فرويد، ترجمة: جورج طرايشي، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1983م.
28. علم النفس العام (فصول في علم النفس): أحمد عزّت راجح، ط9، منشورات جامعة دمشق، 1420 - 1421هـ/1999 - 2000م.

29. العمدة: ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج2، ط2، مطبعة السعادة، مصر، 1374هـ/1955م.
30. الفنون والإنسان (مقدمة موجزة لعلم الجمال): اروين إدمان، ترجمة: مصطفى حبيب، دار مصر للطباعة، د.تا.
31. القاموس المحيط: الفيروزآبادي، ج2، المطبعة الميمنية بمصر، د.تا.
32. الكتاب: سيويه، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ج1، دار القلم، 1385هـ/1966م.
33. الكليات: الكفوي، القسم الأول، إعداد: عدنان درويش ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1974م.
34. لسان العرب: ابن منظور، مج1، دار صادر، دار بيروت، بيروت، 1375هـ/1956م.
35. اللغة والفكر عند الطفل: جان بياجيه، ترجمة: أحمد عزت راجح، راجعه: أمين مرسي قنديل، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1954م.
36. مبادئ علم الجمال "الاستطيقا": شارل لالو، ترجمة مصطفى ماهر، راجعه وقدم له: يوسف ماهر، دار إحياء الكتب العربية، 1959م.
37. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج1، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1358هـ/1939م.
38. محاضرات في طبيعة الفن ومسئولية الفنان: محمد النويهي، المطبعة الكمالية، جامعة الدول العربية - معهد الدراسات العربية العالية، 1958م.
39. معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية: محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، ط1، دار الساقى، بيروت، لبنان، 2001م.
40. المعتزلة والفكر الحرّ: عادل العوّا، ط1، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، 1987م.
41. المفصل في علم العربية: الزمخشري، ط1، مطبعة التقدم، مصر، 1323هـ.
42. الملل والنحل: الشهرستاني، صحّحه وعلّق عليه: أحمد فهمي محمد، ج1، ط1، مطبعة حجازي، القاهرة، 1368هـ/1948م.
43. نزعة الأنسنة في الفكر العربي، جيل مسكويه والتوحيدي: محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، ط1، دار الساقى، بيروت، لبنان، 1997م.

Dilbilim ve Edebiyata Dair
Kültürel Miras Üzerine Değerlendirmeler
TERİM - 1



Editör

Dr. Öğr. Üy. Khaled Hasan ALADWANI



SONÇAG YAYINCILIK MATBAACILIK
İstanbul Cad. İstanbul Çarşısı No.: 48/48
İskitler 06070 ANKARA
T: (312) 341 36 07
soncagyayincilik@gmail.com
www.soncagyayincilik.com.tr

